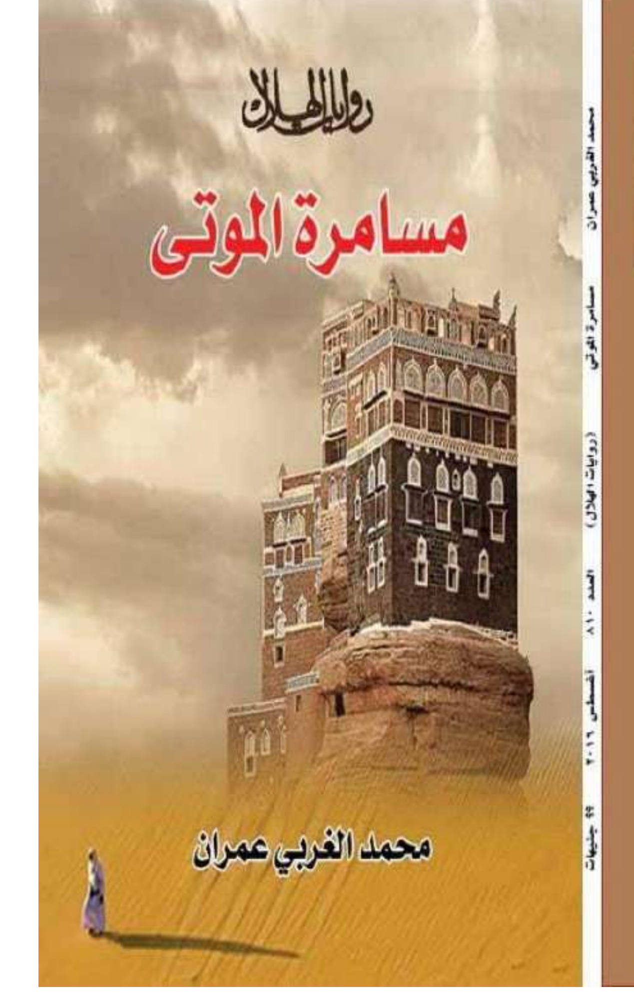








محمد الغربي عمران

مسامرة الموتى

رواية



إهداء

عبد العزيز المقالح..

إنسانا مبدعا وهامة أدبية سامقة. وطنا في زمن عزت الأوطان.. رعاية تعتز بها أجيال متعاقبة.. بكل إجلال أقدم إليك أستاذنا الكريم هذا العمل الروائي المتواضع تقديرا وتبجيلا لمقامكم السامي.. معاهدين أن نسير على نهجكم الإنساني.. في سبيل عزة الإنسان.. مناهضين لدعوات التطرف والعنف .

أســـماء

٤٧٠هـ

-١-

ظهرَ "اليامي" في سوق الوراقين يحفه خيَّالتُه.. أُقفِلت الحوانيت.. وبقي مَن يتبرأ موجهين أصابع الاتهام لمن تواروا.. ظلَّ لأيام ثم قرر مغادرة صنعاء بالكتب التي جمعها.

لم يترك لرفضي مجالاً فحملني عنوة إلى ذي جبلة.. بغال وجمال تنوء بأثقالها من الكتب وجرار نقيع سراديب القلعة.. عشرات العسكر والخدم يحجلون حولنا. قطعنا المرحلة الأولى بوصولنا بلاد قبائل سنحان وبلاد الروس قبيل مغيب الشمس.. استقبلونا بإنشاد تراحيب المطر.. يتقدمنا اليامي إلى قلعتهم "العسال" على حيد وعلان.. احتشد البعض حولي يتأملون وجهاً يغطيه الشعر.. أزفرُ لتتطاير خصلات وجهي كما لو كنت كائناً غريباً.

سار بنا اليامي من قلعة إلى أخرى حتى حصن "هران" المطل على مدينة ذمار.. تسابقَ أمراءُ قلاع تلك البلدان بدواب محملة بغلال الذرة والقمح وخيول ومنسوجات الشعر هدايا لمولانا المكرم.

إعياء السفر المتواصل جعلَ كُلّاً مشغولاً بنفسه.. استطعتُ التسلل والهروب حتى أزقة المدينة. ظننت بأن لن يستدل إليَّ أحد.. لكن الجميع يشيرون إلى وجه ذي الشعر.

أمر اليامي إحكام وثاقي مكلفاً مَن يحرسونني حتى ذي جبلة.. بملامح غاضبة ظل يشيح نظره عني.. يثير ضحكي وقد بدت شفتاه أكثر بروزاً مما يجب. ودعتنا القبائل رافعة أسنة الرماح.. منشدين في مجد مولانا المكرم وزوجته الحرة سيدة.

ولم يأتِ المساء حتى ارتقينا جبالاً حتى قلعة "صيد". على ضوء الصباح تراءت لي وديان متشعبة وأفق غطته ركام جبال بعيدة.. أشار أحدهم إلى نقطة معتمة مؤكداً أنها ذي جبلة.. خفق قلبي أمعن النظر وقد بدت كسرة غائرة وصغيرة. نسيتُ تلك اللحظة وثاقي وقد تراءى لي وجه شوذب قريبا.

هبطنا باكراً مسالك منحدرات وجروف سحيقة.. بعد ليلة استقبل فيها اليامي هِبات تلك القبائل من صبايا ومواشٍ وجرار العسل والسمن لمولانا وزوجته.

انتصف النهار ونحن نسلك وديان حبيش والسحول يطل علينا حصن "خَدِد" من الغرب.. ومن الشرق يسايرنا حصن حب.. دنت الشمس نحو المغيب.. ما لبثت السماء أن تنفست وميض نجوم صامتة.. تحيطنا أشباح أشجار باسقة.. نخب بعتمة أرواحنا المجهدة. دخلنا أخدود نهر صغير.. تقترب حوافه ثم تتسع.. يصاحبنا أزيز حشرات ضاجة.

ارتفع صوت مقدمة الركب: الحمدلله لقد وصلنا مقر مولاي الملك المكرم "ذي جبلة" تبعته أصوات بالتهليل والتكبير.. خفق قلبي جذلا: أخيراً أنت في ديارها.

أناخوا وسط عتمة بددتها مشاعل عدد من النساء.. رجل يتعكز بساق خشبية.. عرفته.. داريت وجهي جانباً.. متأملاً جدراناً عالية.. أبراجاً سامقة تسلقت أسافلها أعشابٌ كثيفة.

ارتفعَ صوتُ اليامي لعسكره مشيراً إليَّ: صِلوه إلى دار النسخ. ثم أشار لذي الساق: وأنت هذا في استلامك. سار يتقدمنا بسراجه.. انعطف وسط ظلام بارد.. توقف أمام باب جانبي.. أغلق الباب دوني وانصرف.

وقفت وسط صمت الحيرة محاولاً اكتشاف ما حولي: حجرة واسعة مُلِأتْ جدرانُها بكوات فارغة.. يحتلها أثاث وثير ونافذة وحيدة تطل على فضاء يزينه صخب الظلمة.. عدة أبواب جانبية يفضي أحدها إلى بيت خلاء.. وآخر إلى عدة غرف خالية بلا نوافذ.. في أطراف الحجرة فسحة مستطيلة يصعد من طرفها سلم حجري ينتهي بباب علوي مقفل.. أدور في مكاني دون هدف.. أسير في دوائر متلاحقة.. أرضخ لإرهاقي.. أطفئ السراج.. أتمدد على فراش دكة تلتصق بحواف الجدار.. سريعاً ما احتواني جراب النوم.. لم يدم بحجم إرهاقي.. كما لو أن طيف شوذب أيقظني.

خطوت نحو النافذة الوحيدة.. قضبان متداخلة.. وميض سخي. انقضى وقتٌ حتى ظهرت غلالةٌ ساحرة.. نجيمات نسيها الليل.. بدأ الضوء يحتضن أسنة جبال عالية.. سفوح تنتهي بتلال دون ملامح.. تأملت لحظات خروج ضوء أودية غائرة. لا شيء تحت نافذتي غير فضاء أخدود وادٍ عميق.. تليها مرتفعات تلال معشبة. للحظات تعالى صخب عصافير.. طغى على أزيز روحي.. اتسع أفق الضوء.. رأيت دروباً دقيقة تهبط أودية وأخرى تصعد جبالاً بعيدة.

-٢-

مع شروق الشمس فُتِحَ الباب السفلي.. باب ليلة البارحة.. أطل وجه ذي الساق.. التقت عيوننا.. وجهٌ يحيطه هلال شعر أبيض.. شفتان مستهلكتان.. تأكد لي معرفته. وضع قصعة الطعام بلا مبالاة وجلس على دكةٍ خارج الباب يشفط دخان يراعه الطويل.. سرت باتجاهه.. خطوت لأخرج فمد ساقه الخشبية معترضاً.. بينما أصابعه تداعب جمر تمباكه.. حدثته:

- يبدو...

قاطعني.

- أعرفك.. ومن ينسى شعراً يخبئ وجهاً لا تُعرف ملامحه؟

- لكني اليوم...

- لا تثرثر.

- أريد الخروج.

- حتى يأتي الفسح.

- فسح؟

- يبدو أنك لا تعلم بما يدور؟

- ومن أين لي ؟

- الكل مشغول بصعود مولانا المكرم.

تعجبت.. أحدث نفسي: وما علاقة صعود مولانا بخروجي إلى الشمس؟ ثم عاودت حديثي إليه:

- ولمَ يصعد؟

- لا يجوز لأحد طرح هكذا كلام!

نهض يتعكز.. أقفل الباب متأففاً.. مخلفاً حيرةً تجالسني.. عرفت لحظتها أني حبيس.. عدت أسير بين الجدران.. لم يكن لي غير النافذة المطلة على أفق الجبال العالية.. قضيتُ نهاري أفكر في ما أنا فيه.. أناجي شوذب.. أعاتبها.. أبحث عن وسيلة تخرجني لأتعرف على ذي جبلة.. مع شروق الشمس فُتِحَ الباب.. كرر مد ساقه حين هممتُ بالخروج.. مقتعداً دكته يداعب جمر دخانه.. بلغ حنقي أن قررت ألا أحتك به ولا أعيره اهتماما.. تركته يفتح الباب كعادته يضع قصعة الطعام.. أظل على فراشي دون حركة.. أرقب مقدمة يراع دخانه معلقاً.. يهتز وجهه مغمغماً بكلمات غير مفهومة كمن يبحث عن شيء.. ثم يعود مستوياً في جلسته.. فقط دخان أزرق يتراقص.. وهكذا يعاود دلق وجهه ناظراً إلى الداخل.. ثم إلى قصعة الطعام.. ليعيد رأسه من جديد إلى الخلف.. يردد همهماتٍ كمن يهامس جليساً له.. لم يدم طويلا.. أقفلَ البابَ وذهب.

وهكذا توالت الصباحات.. كنت في حيرة من أمري.. متذكراً اليامي.. صرخت عالياً: أريد اليامي! كرر إغلاق بابَهُ صامتاً.

أرقبُهُ مظهراً لا مبالاتي بينما كان الغيظ يسكنني.

حتى ذلك الصباح حين عبر الباب متعكزاً.. ثم جلس على أطراف فراشي ينفث دخانه.. لم أتحرك متصنعاً عدم الاهتمام.. أخذ ينقر ساقه بأحد أظفاره.. خرج صوته هادئاً على غير عادته:

- عرفت البارحة حكاياتك!

ترددتُ لبرهة:

- ماذا عرفتَ؟

- عرفت أنك كاتب رسائل القصر!

- إذاً ستنال عقاباً شديداً على تصرفاتك.

ابتسم مربتاً بحنو على كتفي:

- كيف أُعاقب وأنا أقوم بواجبي؟

- أي واجب وأنت تهينني؟

- هذا أمر مولاتي الحرة سيدة!

- سيدة؟

- هي في مقام الملك بعد صعوده التعكر.

صمتُّ متأملاً ملامحَه المتغضنة: وجه يحفه البياض.. ملابس جلدية انحسرت عن كتفيه حتى خاصرته. فضلت الصمت بينما استمر ملاطفاً في محاولة لإقناعي بعدم العناد.. لم أرد عليه.. نهض غاضبا رافعا صوته: يبدو أنك أحمق ولا تستحق التقدير! بعث فيَّ نزقه الضحك.. أشحت بوجهي كاتماً ضحكتي.. وقف مرتبكاً.. لانفجر مقهقهاً لقلة حيلته.. نهضت ممسكاً بكفه معتذراً.. وكأننا أصدقاء نعاتب بعضا.. التفتَ وقد اتسعت عيناه: أتسخر مني؟

- أستغفر الله.. فقط أضحك على خيبتي.

قلتُها مبتسماً وبصوت فيه رجاء.

عاد ليجلس مغمض العينين ينفث دخانه.. يمسك معصمي معاوداً النظر إليَّ.. وبصوتٍ خفيض:

- ألستَ متزوجا؟

لم يسألني أحد ذلك السؤال.. ولذلك شل تفكيري.. مندهشاً من سرعة انتقاله من موضوع إلى آخر.. أدركت بأنه يعيش فراغاً.. طال صمتي ولم أجد ما أرد به.. فرددت سؤاله عليه:

- وأنت.. أمتزوج؟

ابتسم في حنو.. بدا لي كما لو كنت أعرفه منذ سنوات.. أحدث نفسي: لمَ لا أشاركه رغبته في المنادمة؟ قد يثق بي.. يدلني على طريق شوذب.

نفخت شعر وجهي.. رفعت ناظري إلى عينيه يحدوني الأمل.. بينما كان يواصل شفط يراعه مبتسماً.. ثم همس: لم تجب.. أين أولادك؟

كان أسلوبه وهو يدفعني للحديث مضحك.. بأسلوب من يعرف كل شيء.

أجبته ساخراً:

- أولادي لا يزالون في ظهري.

ابتسم.. يرقبني بنظرة تعجب.

- أيعقل أنك لم تتزوج بعد.. فلمَ الشقاء؟

" لِمَ الشقاء؟" قالها ولا يعرف بأني كثيراً ما سألت السؤال ذاته.. ولم أجد لشقائي جواباً. بالفعل لماذا الشقاء؟ سكنني صمت وحيرة.. كرر صوته: هيا قل لي أم أنك لا تريد أن تتحدث معي؟

- فقط لا أملك جواباً.

نهض مغاضباً وهو يتنفس رائحة تنباكه.. مط وجهه ساخراً مني.. خمنت بأنه يقصد شيئاً آخر غير شقاء العقل.. هو لا يفطن إلى شقائي.. ولا يعرف كم يعذبني العدم.. ارتفع صوته متذمراً ليعيدني إلى واقعي.. حاملاً قصبة دخانه:

- صورتك أهوج.. وأنا لا يعجبني أمثالك!

تركني وسار يتعكز مقفلاً الباب عليَّ.. بينما صوته يتردد: أنت أهوج. ذهب بي تفكيري إلى شوذب.. وأمل لقياها يتفاعل فيَّ.

صباح اليوم التالي فتح الباب ولم يعاود الدخول.. وضع قصعة الطعام.. جلس على دكته الصخرية.. انشغل بجمر يراعه لبعض الوقت ثم أغلق الباب ومضى. وهكذا لأيام دون أن يكرر دخوله.. سرت على استحياء باتجاه الباب.. متظاهراً بالخروج.. اعترضني كما هي عادته:

- الم أحذرك؟

- أريد أن تراني الشمس كما أرى ضوءَها.

- لم يحن الوقت.

- متى يحين؟

- لا نملك إلا الانتظار.

اتكأت على قائم الباب أسترق النظر إلى ساحة خالية حتى أطراف الغابة القريبة.. كنت في حيرة من أمري.. سألته:

- دوما تشقيني امرأة؟

- كيف ذلك؟

- لا أقصد شيئاً!

- شرف مولانا المكرم أعزه الله لا يناله إلا...

- مللت من ذلك الشرف؟

- لا أريد سماع لغوك.

- لو كنت مكاني...

قاطعني..

- لحمدت الله.

قالها بحمق.. ونهض يغلق الباب.

صمتَ قليلا.. ثم همهم بصوتٍ آمِر:

- حيث أنت.

منذ ذلك الصباح يجلس على دكته خارج الباب.. وأتكئُ بدوري على قائمة الباب.. لا

يفتأ فمه يشفط دخانه.. أحدثه بحذر حتى لا أثير نزقه. عيناي تتجول حيث تحلق نتف سموات زرقاء وجدران الجبال العالية. رياح تداعب أعالي أشجار الغابة القريبة.. يشاركني دخان يراعه ومضغ أوراق القات.. أشعر بنشوة حين أتنفسها.. لأيام أضحيت أنتظر صباح دخانه بشوق.. نشغل صباحاتنا بثرثرة متواصلة.

-٣-

حدثني عن حضور أمراء جزيرة اليمن لمرافقته صعوده الحصن.. قال: امتلأت الدور الملحقة بالوافدين ونُصِبت الخيام.. ونُحِرت مواشٍ كثيرة.. وحامت الضباع ليلا.

يبدأ الحديث ليستمر دون توقف.. أسمعه ومشرب يراعه يتنقل بيننا حتى يذبل جمره.

فكرت باستغلال لحظات النشوة.. أن أدحرج أسئلتي حول ما يدور خلف تلك الجدران العالية.. حتى أصل إلى شوذب دون أن ينتبه. بدأت بسؤال حول حياة زوجة الملك.. نظر في عيني صامتاً.. ثم ابتسم وسألني:

- مالك وما لهذا السؤال؟ مركزاً ناظريه في عيني.. ليدفعني الهروب بسؤال حول ماضي عمره.. سريعاً ما ارتسمت على شفتيه بسمة صافية أشاح بناظريه بعيداً كمن يستدعي إلهاماً.. ثم يجيب بصوتٍ مرح: أنا من همدان.. كان أبي يملك الأرض ويفلحها وأنا وأخوتي نساعده.. لم نكن نعي بأن زواج أبي بأخرى سينهي استقرارنا.. ليتزوج بثالثة بعد أشهر.. وهكذا ظل يطلق هذه ويتزوج تلك ما دفعه إلى بيع ما يملك.. كان رجلاً متديناً.. قال وهو على فراش الموت: لقد عشت كما أوصانا النبي "حُبِّبَ إليَّ مِن دنياكم

النساء والطيب وجُعِلَتْ قُرّةُ عيني الصلاة".. تفرق إخوتي.. والتحقت بخدمة مولانا الملك المكرم وهو لا يزال أميراً.. وسارت بي الأقدار بعيدا.

حاربت.. فلا توجد بلاد في جزيرة اليمن إلا وحاربنا أهلها حتى أخضعناهم.. إلى ذلك اليوم الذي فقدت فيه ساقي.. وكان في غارة مولاي المكرم لصد زحف النجاحي عن الجبال العالية: صيد والشعر وحصن قيضان وسلبة.

يومها دار القتال من حصن إلى آخر.. ولم تنتهِ تلك المواجهات حتى كان سهماً قد علق بفخذي.. كدت أنفق تحت سنابك الخيل. يومها كان مولاي المكرم قد استحدث جماعة من جنده يسحبون مَن طُعن أو كُسر من أرض المعركة.

لنُسحب خارج ميدان القتال. بعد ذلك قُطعت ساقي بحد نصلٍ بتار.. وغُمست في زيت يغلي.. مَنّ الله عليَّ بحياة جديدة وهبتُها لسيدي المكرم.. الذي لولا فضله لكنت من الأموات.

أكمل حكايته وقد أضاءتْ عينيه ابتسامةٌ بهيجة.

- هل أعجبتك حكايتي؟

هززتُ رأسي مظهراً غبطة زائفة.. متمنياً أن يجنح بأحاديثه الطويلة إلى حياة القصر.. وبدلاً من ذلك سألني: وأنت هلّا حدثتني عن نفسك؟ لم أحب سماع ذلك السؤال بعد أن أتقنت دور المستمع.. وعرفت كيف أنمي نشوته بالحديث عن نفسه. كنتُ قلقاً من تبادل مواقعنا.. أن أفقد وده.

- لا يوجد لدي ما يستحق الحكي.

كم أبهجت كلماتي وجهه مربتاً على كتفي.. كمن يتفضل علي:

- ولو.. احكي.

استحضرتُ حكايات قديمة.. محاولاً اختيار ما يمكن أن يثير إعجابه.. بدأت بحكايتي صغيراً.. أدهشني إصغاؤه.. هازاً رأسه بين فينة وأخرى.. في حقيقة الأمر أشعرني بالارتياح إنصاته.. ولذلك لم أترك شيئاً مما عشته إلا وحكيته. شعرت بتماهي تلك الفواصل بيننا.. ولم أعد أشعر بأنه سجّاني. سألته ذات يوم عن اليامي.. رد بسؤال مستفسراً: أتقصد القزم؟ هززت رأسي بالإيجاب. ليواصل: له لسان معسول.. ولذلك هو شاعر مولاتي الحرة ومستشارها.. رجل يؤتمن عليه.. الوحيد من الرجال من أسكنته دار ملحقة بالقصر.. استغللتُ استجابته وشكوت له خيبة ظني منه.. فرد يخفف من ألمي: كل مَن في ذي جبلة لا يملكون من أمرهم شيئاً.. إنَّ مولاتي سيدة هي من تمنع أو تسمح.. ولا يتم شيء هنا إلا بإرادتها.. حتى الخروج والدخول من أبواب القصر باذنها.

ذات صباح سمعتُ باب السلم العلوي يُفتح لأول مرة.. لم يُدهش ذو الساق حين هبطتْ مجموعةٌ من الجواري بثياب مبهرجة ووجوه باسمة.. ومع تأجج دهشتي وقفتْ إحدى الجواري تخاطبني:

- مولاتي الملكة الحرة تمُنُّ عليك بهذه الكسوة.. وتأمرك بالمثول في حضرتها.

خفق قلبي رهبة.. وأنا أزفر فرحاً ليتطاير شعر وجهي.. وقف ذو الساق مشجعاً: ألم أقل لك دوام الحال من المحال. تمتمتُ: أخيراً فُرِجت. تبعتهن متبختراً بثوبي الجديد. إحداهن توصيني: أنصت في حضرة الملكة.. حتى لو طرحت عليك سؤالاً.. لا تجب.. ولا تتحدث إلا إذا سمعت منها " أسمعك" عندها تحدث بما تريد وبكلمات مختصرة. كانت وهُنَّ يعبرن بي ممرات متداخلة وسلالم صاعدة تردد عين نصائحها.. بينما حواسي تبحث فيما حولي عن وجه شوذب.. عن رائحتها.. صوتها.. كل الروائح تتشابه. همسات لا ترى هنا وهناك.. عبرن بي مساحات ضوء ضيقة. حجرات فسيحة.. وأخرى معتمة.. حتى قاعة لم ترَ عيناي مثيلاً لأثاثها.. تطل نوافذها على وديان وسهول بعيدة.

صف من الجواري.. وجوه متشابهة.. اضطربت أنفاسي وأنا أبحث عن وجه شوذب البيضاوي بين الوجوه.

ارتفع صوتٌ جعلَ الصمتَ يتردد على مسمعي: أنتم في حضرة الملكة الحرة سيدة... للحظات من السكون والترقب لفت نظري حركة على مقعد مرتفع يواجهنا ظهره.. ثم ارتفع كف أبيض تغطي أصابعه الخواتم.. فقط كف ومسند خلفي. وصوت غلماني: مرحباً بك.. اطلعتُ على ما خطته يداك.. ولذلك اصطفيتك كاتباً لنا.. ستحظى برعايتنا وعليك إنجاز ما يصلك من رسائل ومخطوطات. صمتتْ لهنيهات.. ثم عاد صوتها: وما دُمتَ في خدمتنا عليك بنسيان ماضيك.. حتى اسمك.. ونسيان من تكون.. وتلك العلاقات التي تنشأ مع سنوات العمر.. حتى المشاعر والعواطف.. من الآن أنت صفحة اللحظة. وإن لم تستطع فاحتفظ بماضيك لنفسك.. لكنك أمام الغير أنت لست كائنَ الأمس. في الأيام الماضية ثرثرت كثيراً.. عمَّن تكون وعمَّا كنتَ تصنعه.. وعمَّن أحببت. تحدثتَ بسخاء.. وذلك معيب في من يكون في شرف خدمتنا. فلا تعُدْ إلى مثل ذلك حتى لا ينالك العقاب! كثيراً ما سيتكرر عليك سؤال: من أنت؟ وعليك أن ترد بثقة: خادم الملكة الحرة سيدة. وإن كان ولابد أن تثرثر فعليك بتمرين خيالك على صنع ما تريد حكيه عن نفسك.. على ألا يكون فيه حرف واحد عن حقيقتك. واعلم أن أسمك صعفان!

صمت صوتها وظل كفها مرفوعاً.. بينما انشغلتُ بمغالبة حيرتي.. أحاول استيعاب ما سمعته.. أنقل ناظري في حذر بين مسندها ووجه الصبايا ولا وجه لشوذب بينهن.. محاولاً إخفاء ارتباكي.. أن أسيطر على ارتعاش أطرافي. اختفت تلك الكف.. وصوت يرتفع "انتهت المقابلة!" التفتُ باحثاً عن وجه شوذب فلم أرَه.. بينما اتجهن بي خارج القاعة.. أحسستُ بأجنحة حزن وأنا لم أرَها. هبطن باضطراب مشاعري من حيث صعدن بي.. أغلقن الباب لأجالس غبطتي وحيرتي.. أنا على يقين أنها في القصر.. وقفت أمام نافذتي أسترجع تلك اللحظات.. وجهها.. عينيها.. هي نفسها وإن نظرت إليَّ بلا مبالاة.. واليوم لا تفصلني عنها سوى جدران.

صدى صوت الحرة سيدة يتكرر "عليك أن تنسى ماضيك.. اسمك.. وتنسى من تكون" أسئلة تشقيني: كيف ألغي نفسي؟ وألا أكون أنا.. فمن أكون؟!

قضيت ليلي جوار النافذة متأملاً بحر الظلمة.. أنتظر بوح الفجر. أشرقت الشمس.. وقفتُ مرتبكاً بعد أن فُتح الباب السفلي.. ظهر ذو الساق مبتسماً. كنت حنقاً منه.. أريد صفعه.. أن أصرخ في وجهه.. سؤاله: لماذا وشيتَ بي؟ لكنني عجزت عن المجابهة.. مفضلاً عدم مجالسته. قهقه وهو يحجل راقصاً على ساق واحدة.. ثم وقف كمن عرف ما يدور بخلدي مشيراً إليَّ: "هيا.. لا تكن ساذجاً.. ما حكيته لي بالأمس كان عن شخص اسمه جوذر.. اليوم أنت صعفان"!

-٤-

لم يتغير شيء.. ذو الساق يفتح بابه السفلي في مواعيده.. مواصلاً منعي من الخروج.. في أول صرخة مهدداً:

- لقد تغير الوضع.. سأشكوك إلى الملكة.

لكنه رد بصوتٍ قوي:

- انتظر إرادتها.

اقتنعتُ لحظتها بوضعي الغريب.. وإن كان هناك من خدعني فإنه القزم.

أشعل السراج.. أستقبل الليل.. آه ما أطول ليلهم.. أجالس نفسي أحاول أن أكون شخصاً أعرفه.. أن أكون نفسي.. بعد أن حاولت ألا أكون أنا.. فكرة تحيرني.. فضلت استحضار وجوه شوذب علّني أكتشفُ نفسي الجديدة.. اخترت غرفة داخلية خالية من الأثاث.. أن أنقشه على الجدران.. في سعادة قفزت صارخاً كأني أمسك بتلابيبها.. سارعتُ بإخراج أقلامي ومدادي.. أسميتها غرفة شوذب قضيت شطراً من ذلك المساء أعلم الجدران.

منذ تلك الليلة أمسيتُ أقضي جل وقتي في غرفة شوذب.. احترتُ في بداية الأمر.. أنظرُ فماً صغيراً.. أنفاً دقيقاً.. عينين تنظران إليَّ على الدوام.. شعراً أسود يتدفق.. هي تلك يوم أن كنا عائدين من الحانوت إلى دارهم.. حينها كانت تسير أمامي مرحة.. لم تكن ترقص فقط.. بدت تهرول وهي تدور بثوبها السابح.. تلتفت لتلتقي عيوننا.. تبتسم وتكرر دورانها بينما أنتظر لفتتها التالية.. هكذا تمنيت نقشها بألوان زاهية.. أريدها كما كانت تتحرك في دوائر لا تنتهي.. تنظر إليَّ باسمة.. يطير شعرها.. وتحمر وجنتاها تحت عمود الشمس وفمها يرسم بسمته الخاصة به.. هل أستطيع رؤيتها فاردةً ذراعيها كعصفور دوري خافق الجناحين.. أتمنى كما كنت وإياها في ذلك الشارع.. سأنقشها يوم دلتني عليها أم الجواري.. أو يوم قلعة صنعاء.. أم الأفضل وجه شوشانا ذا الوشم الأخضر.

يُفْتح الباب العلوي مرة أخرى.. تهبط جوارٍ ثلاث.. يُسلِّمنني مخلاةً بها مجموعة من الرقوق: "مولاتي تأمرك بإنجاز نسخهن" تفوهت إحداهن ومضتْ. وهكذا أصبحن يهبطن قُبيل شروق الشمس.. يحملن ما أنجزتُه ويضعن ما يراد نسخه.. ليُغلقنَ الباب العلوي صاعدات. أسترق النظر.. أترصد خطوهن.. روائحهن.. أصواتهن: مولاتي تأمرك.. ومولاتي تريد.. ومولاتي تقول.

ذو الساق أتجنب منادمته بعد وشايته.. حاول إقناعي أن ماقام به واجب وليس وشاية.. وأنه ذلك ما عليه فعله.. ظللتُ أتجنبه حتى رأيت دموعه فتملكتني الخشية من تلك الدموع.. تظاهرتُ برضاي وعدتُ أشاركه نشوته وأستمع إليه بحذر.. لم يكن يلح في حديثي.. أو أنه كان يتواطأ مع رغبتي.. مدركاً مقدار الحسرة التي تسكنني.. ولأيام يتركني دون الحديث إليَّ أو السؤال عن أحوالي.. فقط يمد يراع دخانه في صمت.. حتى وجدتُ نفسي أتحدث إليه دون طلب منه.. وهكذا لأيام أتحدث بنشوة حول أشياء لا تخصني..وهو يتحدث عن أشياء لا تخصه.. ودوماً أسمع دوي أرواحنا تتهاوى في أعماق سحيقة.

مضت صباحاتي بين استلام مخلاة البريد.. والجلوس إلى ذي الساق.. ثم إنجاز نسخ البريد.. وفي غرفة شوذب أنقش سماءً بألوانٍ أخرى ونجومٍ لم يشاهدها أحد.. لم تكن من أرض تقف عليها فقد بدت كما لو أنها تطير في دوائر متلاحقة. إلى ذلك الصباح حين لاحظتُ لفافة مختلفة بين لفائف البريد.. ملمسها لا يشبه بقيتهن.. لأقرأ:"به نستعين وإليه نلجأ رب العرش العظيم.. ونصلي ونسلم على البهي رسوله الأمين.. وعلى مولانا علي كرم الله وجهه.. وعلى القمرين النيرين الحسن والحسين والزهراء البتول والأئمة الأطهار ومن والاهم إلى يوم الدين"

 فقط كلمات قليلة.. لديباجةٍ شبيهة ببداية الرسائل.. شغلتْ حيزاً بسيطاً وتبقت الصفحة فارغة.. لفافة أطول من لفائف الرسائل.. قلبتها بين يدي متسائلاً هل وقعت بين الرسائل بالخطأ؟ أعدت قراءتها.. عاينتُ رسم حروفها.. كانت شبيهاً لرسم حروف الرسائل المراد نسخها.. وضعتها جانباً منشغلاً بما عليَّ إنجازه.

عدتُ بعد وقت لأجدها خالية مما كان فيها.. ناصعة.. قلبتُ ظاهرَها وباطنها دون إجابة.. لا توجد حتى بقايا أحرف أو أي أثر للمداد. تملكني العجب.. وبحذر وخوف وضعتُ تلك اللفافة في مخلاة الرسائل المنجزة لأتخلص من غموضها.. لكنَّها عاودت الظهور بعد أيام: "هي مجازفة أن أكتب إليك.. هلَّا تفهمت ذلك؟ أكتب إليك مستفسرة عن أحوالك.. وأدعو الله أن يبصرك.. دع هذه اللفافة جانباً واكتب الرد عليها قبيل إعادتها إليَّ بلحظات.. كن حذراً.. أنتظر ردك.. في رعاية المولى".. تبلد تفكيري.. وضجيج نبض قلبي.. ألهج: من يمكنها فعل ذلك.. أهي شوذب؟ سأحتمل إلغاء نفسي.. سأحتمل ذا الساق.. وسأقبل بكل ما يريده.. ولن أفكر بالفرار.. فقط أن تكون هي.. هذا أنا لا أطارد سرابا.

تبخرت حروفها بين يدي.. أيقنتُ بأنَّ ما أعيشه خارج المألوف.. كانت عيناي تستعيد كلمات اللفافة "أنتظر ردك.. اكتب الرد عليها قبيل إعادتها بلحظات " تلك الكلمات جعلتني

أعيد فحص تلك اللفافة عدة مرات علّي أكتشف سرها.. ولكن دون جدوى.. قد يكون هو السحر.

لم أنم ليلتها أمسيت أدور حول نفسي وقد تغازر القلق حولي.. أنتقل بين أجزاء الدار.. قلق ممزوج بالحيرة.. أدخل غرفتها أنقش المزيد من وجوهها صغيرة.. هكذا قضيت ليلي حول تلك اللفافة العجيبة.. أقلبها بين يدي.. ماذا لو كانت فخ؟ أنظر من نافذتي إلى بحر الظلمة.. أبحث عما يرشدني.. لو لم تكن هي.. من ستكون؟ ظللت أقلب مخاوفي حتى الفجر.. لحظتها أمسكت يراع خوفي مرتجفاً كتبت: أنا على يقين من أنكِ هي؟ وقد ذكرتُ خوفكِ مِن أنْ تنكشفي.. فأنا أشعر أنكِ أنتِ.. ثم ما سرٌّ اختفاء حروف هذه اللفافة؟!

أنجزتُ تلك الكلمات وأودعتُها مرتبكاً مخلاة الرسائل.. ليصعدن ويتركن قلبي يملؤه الخوف والرجاء.. يطول مقام انتظاري ذلك النهار حتى صبيحة اليوم التالي.. بأصابع مترددة وأنفاس لاهثة أبحث عن مبتغاي بين رسائل البريد الهابط.. خفق قلبي بشدة وأنا أسحبها.. فردتُها وأنفاسي تسابق عينيَّ:

"يا لعفوه وكرمه.. ربي رب العالمين.. إلهي أستغفرك دوما عدد خلقك.. وأسبح بكل ذرات ليلك ونهارك.. وأصلي على سيد الخلق وعلى آله أجمعين. قرأت ردك بسعادة بالغة.. ويبدو بأنك كما استشرفك قلبي.. فشكراً لله الذي وضعك في طريقي.. أحمده حمد الأولياء والصالحين. أصدقك القول أثارتْ كلماتُ جوابِكَ مشاعري.. لكن تساؤلك"هل أنتِ هي" لم أعرف من تقصد بـ هي؟ فنحن لم نتقابل يوماً.. فقط رأيتُكَ لحظة وقوفك في حضرة الملكة وأحسستُ بما شدني إليك.. ثم سمعت عنك من يتحدثن حول جمال حرف نسخك.. ورأيت فيما تنسخ ما يفوق السحر.. وجهك المتخفي تحت شعرك زادني انجذابا.. سأنتظر ردك بشوق".

جاءت تلك الكلمات أكثر غموضاً على قلبي.. أعدتُ قراءتها باحثاً بين كلماتها ما يُبعد مخاوفي.. أقلبها حتى تلاشت حروفها.

-٥-

لها أن تنكر كجزء من خوف كامن.. فمن يعرفني غيرها في قصر ذي جبلة حتى يجازف بالكتابةِ إليَّ؟!ظللت أردد تساؤلاتي بصوتٍ عالٍ.. شعرتُ بالإحراج وأنا أرى ذا الساق وقد فتح بابه دون أن أشعر:

- ما هذا؟ أجننت أم أنك تعاشر الجن؟!

أتراني أبدو كما يقول؟ رفعتُ يديَّ متقدماً نحوه.. احتضنته بمشاعر تائه.. هامسني مربتاً على ظهري: لا عليك.. لا عليك هونها تهون.. ستفرج بفضل

الصلاة على رسول الله.

أجلسني يحدثني ناصحاً.. تركته متصنعاً الإنصات.. هازاً رأسي حتى أحسستُ بهالة من الوجد تحتويني.. سريعاً ما أدركَ أني لا أتابع ما يتحدث به.. تضايق ناهضاً هو يردد: أمرك اليوم غريب.. ثم سحب ساقه خارجاً.

دخلتُ غرفتها.. وقفت أمام جدرانها أتابع مرونة حركتها.. حاولت مسايرتها

راقصاً.. أدور عكس دورانها حتى تلتقي نظراتنا حتى تعبت. تلك اللفافة تمنحني سعادة ورضا.

إحساس ملتبس حين أجالس نفسي وأنا أخط جوابي إليها.. أقترب من نهاية كلماتي فألمح ابتسامة حول فمها الصغير: هذا أنا أكتب إليكِ والسعادة تغشاني.. إلى صبية تسكن خاطري.. إلى مَن فارقتها ذات يوم أمام أكوام صفحات كان علينا ملأَها بالمداد.. وأذكر بأنَّا تواعدنا على اللقيا أمام جامع صنعاء المقدس قبيل صلاة الجمعة.. وأجزم بذهابك في الموعد.. هي فرصتي الآن أن أكتب معتذراً وموضحاً سبب تغيبي عن موعد كان قبل عشرين سنة.. أنا على يقين من أنكِ ستعذريني.. لا تزال تلك التفاصيل تسكنني.. ظهور خيالة القلعة في أزقة سوق الوراقين.. لحظتها كنت أهم بالخروج لإغلاق الحانوت والتوجه إليك.. لكنهم تقدموا نحو باب الحانوت.. ظننتهم يسألون عن أحدهم.. حاصروني بعنفهم.. بريق عيني أحدهم مشيراً إليَّ"هيا اجلبوه" مستديراً على صهوة جواده.. بينما عسكره بادروا بضربي بسياطهم ثم تكبيلي وسحبي خلف خيل أحدهم.. ظننت أنَّ في الأمر خطأ ما.. ليقتادوني إلى القلعة.. وهناك أودعوني ظلمة لا تشبه أي ظلمة.. لأمكث فيها خمس سنوات.. كنتُ خلالها تحت الأرض.. أراكِ تنتظرينني أمام باب المسجد. يوم خرجت من الظلمة توجهت إلى نفس المكان.. فلم أجدك.. سرت باتجاه داركم.. ثم بيت أمي.. لكني لم أجد أحداً.. سرت أسأل الأزقة والأسواق.. أتلمس الطريق.. حتى أني سافرت مكة للبحث عنك بعد أن قالوا بأنهم رأوكِ بحوزة أحد النخاسين. كان همي أن أعتذر لك.

ويوم دلتني إليك أم الجواري.. في لقاءٍ بك أنكرتِ نفسك.. قلتِ أنَّ اسمك "فندة" وأنك لا تعرفين على ما أعتذر لك.. كنتِ تصرخين: "كف عن هذيانك.. أنا اسمي فندة.. ولست منتظرة من أحد الاعتذار عن أوهامه!".. صحيح أنكِ كنت قد أصبحت ناضجة.. لكني أميز بينك وبين الأخريات.. حاولتُ.. لكنكِ طلبتِ مغادرة المكان.خرجتُ منكسراً.. أرقبكِ لأيام حتى رأيتكِ تعبرين أزقة صنعاء على عجل وتدخلين بوابة قلعة القصر الكبير.. ذلك اليوم كانت صنعاء قد خرجت لاستقبال الملكة أسماء بنت شهاب وقد عاد بها ابنها الملك المكرم من زبيد بعد أسرٍ طال سنتين.. ولم يتجه لإنقاذها إلا بعد أن أُشيع بأنها حامل من النجاحي وأنَّ المكرم كان يخشى سطوة والدته. في ذلك اليوم رأيتكِ تلحقين بموكب الملكة وتختفين خلف أسوار القلعة.. أنا على يقين بأنكِ تتذكرين كل ذلك. فما عنيته بأنكِ أنتِ شوذب هو لتذكيرك.. والسلام.

أكملتُ كتابة الجواب ودسسته بين لفائف المخلاة.

كلما جلست إلى ذي الساق يلح عليّ عما يشغلني.. أنظر في عينيه متذكراً ألاعيبه.. أئد رغبتي بالحديث خوف وشايته.. في الوقت الذي أتمنى أن يطيل جلوسه لكنه ينهض متأففاً يغلق بابه.. فأعود أجالس النافذة مع إحساسي المسافر بعيدًا.. إلى حيث غيوم تهبط لتقبل شفاه الجبال.. أحلم بأن أعود يوماً عبر طرقها حتى صنعاء.. إلى سوق الوراقين.. مواصلاً ما أحب صنعه في حانوت المعلم. وهكذا ما إن يغلق بابه ليسافر حلمي هناك إلى أزقة مدينة الفتنة صنعاء.. أظل معها حتى يوقظني وهج الفجر.. تتسلل أنفاس الشمس.. لأصحو من نومي.. أنتظر هبوط جواري البريد. وما إن يغادرن حتى أسارع بلهفة إلى التنقيب في مخلاة الوارد بارتباك.. أخاف ألا أجد مبتغاي.. أميزها.. أفردها بلهفة.

"سبحان الكريم المتجلي عن أي صفات.. سبحان مرسي الجبال ومسري السحاب الصافنات.. وأدعوه أن يرحمنا برحمته ويحيطنا بعنايته.. رب العرش

العظيم وخالق الكون المكين.. من إذا قال للشيء كن فيكون.. وأستغفره وأتوب إليه من كل ذنبٍ عظيم.. وأصلِّي على خاتم الرسل سيدنا طه الشفيع المبين.

سلام على قلبك الذي أشفق عليه من هيامٍ عجيبٍ لكائنٍ أقل ما يُقال عنه غريب.. تكتب إليَّ بتفاصيل شائقة لعلاقاتك بفتاة تعشق إنكار ماهيتها.. مكرراً جزمك بأني هي! وأصدقك القول أني أزداد مودة لك.. وأنتظر بلهفةٍ لجوابك.. كيف لكائن يشقى بفتاة تنكره وتنكر نفسها؟ لو كنت مكانك لسلختها من ذاكرتي وانشغلتُ بما يفيد حياتي. ثم ما تتوقع أن أرد عليك وأنت تسألني بأسئلة لا رد لي عليها.. كيف لي أن أساعدك؟ أشعر بالغرابة جوارك.. وأنا في موقع عجيب منك.. بل مشاعري مضطربة.. مترددة بين طلب المزيد من تلك الحكايات.. وطلب أن تراني أنا.. لن أزيد فقد بدأت أشفق عليك.. دُمتَ في عناية رب العباد"

-٦-

لم يعد نكرانها يؤثر فيَّ.. أمعن في المقاومة.. بمزيد من حكاياتنا المشتركة.. فلا يوجد هنا ما أعيشه خلف جدران دار النسخ. وسأظل حتى يذوي نكرانها.. كتبت جوابي: "السلام عليكِ وعلى قلبٍ يود دون معرفة.. لن أمل من تذكيركِ بيوم عُدتُ بحسرتي بعد أن ابتلعتكِ بوابةُ القلعة.. وأصدقُكِ القول بأني فقدت الأمل في رؤيتك مرة أخرى.. فأنا أعرف متاهات القلعة.. ولذلك انصرفتُ باحثاً عن حياة جديدة.. سكنت داركم الخاوي إلا مني.. أعدتُ ما تهدَّمَ مِن جدران وسقف حانوت سوق الوراقين.. رسمتُ ليومي إيقاعاً لا يتغير: أصحو في الصباح الباكر.. أتجه سوق اللقمة عبر أزقة أَلِفَتْ خطواتي.. ترقب عيناي من بين شعري ملامح مَن حولي.. أتناول صبوحي على مصطبة عارية.. أرتشف قهوتي.. أعود باتجاه الحانوت متقبلاً في صمت نظرات المارة وتعليقاتهم الساخرة.. تحتويني زاوية المعلم التي تعرفينها.. أرقب المارة.. أستقبل طلبات النسخ.. أنشغل بقية يومي في محاولة تقديم أقصى ما لديَّ مِن معرفة.

تلك الأيام استقر الملك المكرم في صنعاء بعد سنوات من الحروب.. لتزدهر أسواقها.. ويروج نسخ الكتب.. ولذلك خطيتُ لنفسي طريقاً مختلفاً إذ أطلب أعلى الأجور مقابل

أعمالاً جيدة.. في البداية مرت أيام عشتها على الكفاف.. لتتغير الأحوال وأصبح لا يأتيني إلا مَن يريد خطوطاً متقنة ونقوشاً بديعة.. كنت أمعن في رسم حرفي.. ونقش زخارفي وتلوينها بمداد أخلطه بمسحوق الصدفيات ليأتيني بألوان براقة.

أوقات فراغي أقضيها في مراقبة حركة المارة.. تلك الملامح والملابس المتباينة.. وهكذا طوال أيام الأسبوع. أذهب لزيارة قبر أمي بين الحين والأخر.. لا أعرف ما عليَّ فعله غير أني أشعر بمَن يمسد شعري وصوتٍ يردد صلواته.. ولذلك كثيراً ما قضيتُ جوار قبرها أحكي بعض ما أعيشه.. لتلفح أنفي رائحة وجهها. فبعد رحيلها لم يعد من صديق يسمعني.

عاودني الشعور بأني سأراك.. أجلس في زاوية المعلم وأترك عينيَّ تحرث وجوه المارة علِّي ألمحك. وسأعود متُذكِّراً يوم رأيتك هناك في سوق الوراقين كان ذلك بعد ظهور عسكر القلعة.. لعدة أيام باحثين عن كتب المذهب.. طاردوا أصحاب الحوانيت واقتادوا مجموعة منهم.. كنت بينهم مُحمَّلاً ببعض كتب الحانوت. قادونا تحت ظلال سياطهم نحو القلعة.. ليغمى عليَّ لحظات عبورنا البوابة حين حظرت ذكرى ظلمة الأمس.. عبرنا الساحة وجسمي يتفصد رائحتها.. جدران الأمس العالية.. العسكر في حركة دءوبة.. كل ما حولي هو ما كان بالأمس.. لم يتغير شيء.. تلك الدور المتناثرة.. القصر الكبير.

اصطففنا في حجرة واسعة.. أطل علينا قزمٌ وإلى جواره ثلة يطوفون مدونين بيانات ما حملناه إليهم من كتب. انصرف الجميع وبقيت أرفض ترك كتبي.

- لن أنصرف إلا بها!
- وهذا؟
رأيتُه يقلب بين يديه آخر ما نسختُ.. كتاباً في العشق كَتَبَهُ رجلٌ قديم.. كنت أنوي إهداءَهُ إليكِ.. صمتُّ بينما أخذ يتصفحه مُردِّداً: مدهش.. هل أنت من خطه؟
- نعم.. أعتبره هديتي لك على أن ترد لي بقية ما حملتُ.
- أتهديني مِن كُتُبٍ هي لنا؟
- لكنها حقي ولن أتركها.

- أنا على يقين من أنك ستتركها!

نطق كلمة "يقين" رافعاً سبابته صوب عيني بتهكم.. فاتحاً فمه باتساعه. فضلت الصمت بينما واصل: إن استمررت بالرفض فلا تلُمْ إلا نفسك!

تخيلتني أعود ظلمة الله التي ابتلعتني ذات سنين وهويكرر" لا تلُمْ إلا نفسك". تداخلت حواسي ولم أعد أميز ما يردده.. وإن كنت أتابع حركة شفتيه وتلك النظرات الجافة.. تركني غاضباً دون معرفتي بما استمرَّ يتفوه به.. وخرج ليعود برجل يسحب ساقاً خشبية.. قادني بدوره نحو الساحة حيث شجرة كافور معمرة.. تلتف حول جذعها عدة سلاسل حديدية.. التقط طرف إحداها.. وقيد به ساقي بتؤدة وصمت غريب.. ثم نظر في عينيَّ باصقاً على الأرض ومضى.

اتكأتُ على جذع الشجرة أرقب حركة الساحة.. تلك الجدران الصلدة.. مع قدوم الليل حاولت النوم رغم برد العراء.. لم يهتم بوجودي أحد إلى بعد شروق الشمس.. فقط نظرات بلهاء تعبرني.. ومع نهاية النهار عاد ذو الساق مُهدداً: لم يعد مطلبنا ترك ما أوصلت.. بل عليك ببقية الكتب المخبأة!

وهكذا مضى يردد دون أن أتفوه.. لكن ما أثار انتباهي ترديده "الكتب المخبأة" أنظر إليه بتعجب فيعقب: لقد وعدنا أحدهم بأنْ يدلنا على مخبئك! لا يوجد من يعرف السر غيري وغيرك ومعلمي الذي رحل مع سره؟ أبحث عن أجوبة دون فائدة.

لم أذق طعم نوم تلك الليلة.. ليعود ذو الساق صباحاً.. ودون أن يعيرني اهتمام انشغلَ بفك السلسة من جذع الشجرة.. يجرني عبر ممرات أحد دور القلعة.. صاعداً بي سُلَّمَ أحجارٍ بيضاء حتى قاعة واسعة امتلأت بالصبايا ورائحة عطرية نفاذة.. لم يكن من رجل عداي وذي الساق الممسك بطرف سلستي. مجموعة من الصبايا.. كانت حالتي يُرثى لها.. عيونهن تصب نحوي.. تهادت همهمات وسكنت حركتهن لألمحكِ تتابعين بنظرات محايدة.. لم تكوني بعيدة.. إحداهن ذكرت الله وصلت على محمد.. ليستمر صوتها يردد أدعية.. ثم صمتَتْ للحظاتٍ ليرتفع صوتُها مرة أخرى موجَّهاً إليَّ:

- لِمَ لا توصل ما لديك من كتب؟!

تشجعتُ متناسياً هيئتي المتعبة:

- ما لديَّ ليس ملكي.

خرج صوتي عنيداً وعدائياً.

- لا يهم.. أيَّاً كان مالكه.

وجدتُ شفتيَّ تسابقني بذل:

- لكنها أمانة.

- أنت وصاحب الأمانة موالي المكرم.

- لم يعد صاحب الكتب مِن موالي أحد.

- ماذا تعني ؟

- صاحبها في ذمة الله.

- عليك بإيصالها.

- لن أخون الأمانة.

ساد القاعةَ صمتٌ قليل.. طرأتْ لديَّ فكرةٌ الهروب إلى الأمام كنت خائفا من إرسالي الظلمة.. كمن تقرأ ما أفكر به وقد رفعت صوتها من جديد.

- أتريد أذية نفسك؟

زادني تهديدها ارتباكا.. فكرت ثم رفعتُ صوتي:

- للراحل ابنة.

ضجَّ همسٌ ناحلٌ بين الصبايا.. ثم قالت:

- وأين مَن تقصدها؟
- في آخر مرة رأيتُها قبل سنوات تدخل القلعة في موكب مولاتي الملكة أسماء كرم الله ثراها يوم عودتها من زبيد.
- تقصد بأنها من جوارينا؟ التفتَتْ تشير إليَّ وأردفَتْ: أتعرفها جيداً؟
- كما أعرف نفسي!
أتكلم وأسترق النظرَ إليكِ.. بينما قالت آمِرةً:
-أنظر في الحاضرات هل هي بينهن؟
تطاير همس القاعة.. وبداخلي تأجج حنينٌ دفينٌ وأنا أنقل عينيَّ مِن وجهٍ إلى آخر.. والفتيات يتابعن اتجاه عينيَّ نقلةً نقلة.. خفت أن أدلها عليك فتخونني الأمانة وتسلميها صندوق كتب المعلم.. الغريب أنَّ كُلاً مِن تلك الوجوه كان فيهن منك.. كدتُ أقول لها كلهن هي.. لأرفعَ صوتي وأنا أنظر إليكِ:
- ليست بينهن!
رفعت صوتها تشير عليهن:
- هيا.. استدعين مَن تبقى.
أحاول تخمين لا مبالاتك.. مَرَّ بعضُ الوقت تقاطرت فيه مجامع أخرى إلى القاعة من عدة أبواب.. ظللت أتصنع الترقب.. زدت ارتباكاً لتلاقي نظراتنا. وأجزم بأنك تتذكرين تلك اللحظات.. شعرت بأن القاعة خالية إلا منك.. كانت عيناك تقول شيئاً.. هبطت نظراتي إلى عنقك وصدرك.. رأيتكِ الأنثى في أروع حالاتها.. وما زاد ارتباكي ذلك الصوت يستعجلني:

-هل هي بينهن؟

ظلت نظراتي عليكِ.. وجهكِ وقد زاد استدارةً ونقاءَ.. فمكِ الخاتم.. عينيكِ الضاحكة.. خفت أُشيرُ إليكِ.. أشعر بأنك سترضينها.. ابتسمتُ:

- لا!

ليعود صوتُها سريعاً:

- ائتوا بمن تبقى.

إحداهن ردَّتْ على الفور:

- لم يعد من أحد خارج القاعة مولاتي.

تسترقين النظر وقد اضطربتْ ملامحُكِ.. عاتبتُ نفسي: لماذا ألعبُ هذه اللعبة؟! لو كنتُ أشرتُ إليها هل كانت سترضى بتسليمها الأمانة؟

- يمكنك التقدم وإعادة النظر.

جزمتُ بصوتٍ حزين:

- لا أحد.

- سأمنحكَ وقتاً وأتركك تخرج.. وعليك أنْ تأتي بما لديكَ.. أشارتْ إلى ذي الساق: دعوهُ يذهب.

لم أتوقع ما حدث.. قادني هابطاً دون أن ينبس بكلمة.. فك سلسلة قدميَّ تحت شجرة الكافور.. مشيراً على عسكر البوابة بتركي أرحل.

-٧-

خرجتُ أسير وأنا جد سعيد.. لا زلتُ أحمل نظراتكِ وملامحكِ الجامدة.. غير مصدق أن تكوني أنتِ.. كنتِ أنتِ لكنَّها لم تكن نظراتك..أعترف لك.. مررتُ على الحانوت.. تجمَّع مَن في سوق الوراقين يسألونني؟

أتأمَّل أعينهم.. ملامحهم.. شفاههم.. أصواتهم. كنتُ أهزُّ رأسي تارة.. وأخرى أغمغم كما لو كنت أحدث نفسي.. أود معرفة ذلك الفم الذي وشى.. أيّ العيون؟! لكنها نظراتهم وأصواتهم متشابهة.. استأذنتهم هرباً من إشفاقهم.

كنتُ منشغلاً بتلك الفسحة التي مُنِحَتْ لي.. أفكر في التصرف الذي عليَّ إتباعه.. ظللتُ لأيام أفكر.. لاحظت في أحد الأيام أن هناك مَن حاول العبث بسقف الحانوت.. تكرر النبش.. ما جعلني أخشى على صندوق كتب المعلم.. سارعتُ مِن باب الاحتياط بحفر أرضية المخزن الخلفي وإنزاله باطن الأرض.. وإعادة تسويتها.. أفكر مَن يمكنه العبث بالحانوت.. أطيل البقاء في زاوية المعلم أرقب عيون أصحاب الحوانيت علّي ألمح ما يشير إلى شيء.

مرَّت الأيامُ وقد أَمِنتُ على أمانتي.. ثم أن عسكر القلعة لم يظهروا مرة أخرى.. أيكونوا قد نسوا الأمر؟ إلى ذلك الصباح الذي فاجئتِني بظهوركِ أنت.. وأذكر لحظة حضوركِ كنتُ منهمكاً بتزيين هامش صفحة مخطوطة.. أحسستُ بمَن يقف فوق رأسي.. رفعتُ ناظريَّ لأرى وجهَكِ الطفولي الباسم.. عينين تتابع ما أصنع صامتة.. سَرَتْ رعشةٌ في أوردتي.. كل شيء مِن حولي أخذ يهتز.. تعرَّق جسمي وفاحت رائحة المداد.. حاولتُ رفع صوتي.. ثقل لساني وتاهت حواسي..لا أعرف ما علي فعله؟ مددت يدي ألامس كفكِ.. لكنكِ أزحتِها بلطف.

- رويدكَ.. هل أنتَ بخير؟

هنيهات من الذهول أخذتُ أستعيد بعدها حواسي.. عدتُ أتأمل عينيك.. ابتسامة فمك المدور. ما حيَّرني نقشٌ أخضر على ذقنك.. لم أميز ما يعنيه.. لكنه شبيه بالفراشة. اقتربت رائحتك.. تضاعفت رعشةُ كفي لحظة لامستِهِ.. تشجعت:

- مرحباً شوذب.

إعوجَّ فمُكِ مستغرباً:

- أيُّ شوذب؟

أربكني برود تساؤلكِ.. تعثرتْ حروفي.

-.....!

- أنا شوشانا.

سكتُّ لبرهة بينما كنتِ تتأملين رفوف الحانوت.

- فلتكوني من تشائين.

- لا أعرف عمَّن تتحدث.. يخلق من الشبه تسعاً وتسعين.

- أهلا وسهلا.

- أريد أن أتحدث إليكَ.. هل المكان منساب؟

- كما تحبين.

- أرى أنكَ مشغول.. سأعود إليك مرة أخرى لنخرج من السوق ونتحدث.

- لماذا لا يكون الآن يا....؟

في تلك اللحظة ابتسمتِ مزيحةً ملامح الجدية.

- اسمي شوشانا.. كما اسمك جوذر..أتحب أن أدعوك بغير اسمك؟!

- إن كنتِ لستِ أنتِ فمن أين لكِ باسمي؟

هدّأتُ مِن صوتي.. استدرتِ منصرفةً بعد أنْ همستِ بصوتٍ بارد:

- سأخبرك حين أعود.. شريطة أنْ تحفظ اسمي.

جفلتْ كلماتِي وأنا أرقبكِ تفرين من بين يدي.. أراقب حركة جلابيبك السوداء ماضيةً بين المارة حتى غبتِ.. خيل إليَّ أن من في الشارع يراقبون حالتي. تلفت نحو حوانيت الوراقين.. سعدت لانشغالهم بأنفسهم. لم أعد إلى ما كان بين يدي.. ظللت مُشرِعاً ناظري غير مصدق أنك كنت معي.

-٨-

منذ تلك اللحظات انشغلت بوحدتي محاولاً استعادة ما دار.. شغلتني تساؤلات كثيرة: هل هربتِ من القلعة.. تودين العودة ؟ لكن كيف؟. مستعرضاً احتمالات واحتمالات.. باحثاً في نظراتكِ تلك.. وعدكِ بالعودة.. ماذا تُردن قوله؟!

توقعت أن تعودي صباح اليوم التالي.. لكنه انقضى.. مضت بعده أيام وأنا أرقب نهر المارة.. وجوهاً تشبهك وأخرى.. كنتُ قلقاً من عدم عودتكِ.. ظللت أتابع الشارع.. لألمح جلابيبكِ السوداء بين الزحام.. لاشيء يشبه خطواتك الراقصة. ثبت ناظري عليك.. تذكرتُ بأنك قلتِ السوق لا يناسب.. خرجت.. أغلقت الباب.. ابتسمتِ مشيرةً برأسكِ أنْ أتبعَكِ مستديرة نحو منعطف زقاق جانبي.. قُدتِ قلبي عبر أزقة الصفارين ثم الحدادين.. خرجتِ بنا إلى حي الدباغين.. ثم تبعتك بمحاذاة أخدود السائلة.. تُرى إلى أين.. وفيما ستحدثني؟ سألتُ نفسي. تمنيتُ لو تمسكين ببرد كفي.. لأذكركِ بتلك الصباحات البعيدة بعد أن أضحيتِ فتاةً ناضجة.. أحدثكِ برغبتي أن نكون معاً.. كوني مَن تشائين.. لم تدركي بأنك كشفتِ نفسك حين وصلتِ رأس الشارع حيث داركم.. أشرتِ عليَّ بفتحه.. عبرتِ تصعدين أمامي سُلَّماً كثيراً ما لهوتِ على درجاته.

عند الدور الأول سمعتُ صوتَكِ يسألني:

- أنت يهودي؟

كنتُ أود أن أرد عليكِ بأنَّي لا أعرف لي دين. وهذا أنا أعود لأذكّركِ الآن بتلك التفاصيل الصغيرة.. وأني كنت أعرف أسلوبكِ كما هو الآن.. وإن كنتِ صادقة في تساؤلك.. ففي طفولتنا كيف كنا نتحدث ببراءة عن الدين وعن المعبود وعن أنفسنا.. وحين نعود إلى معلمي يحدثنا بضرورة إعمال العقل وعدم التسليم بظاهر ما يعتقده الناس.. ولا بمسلماتهم.. وكان يدعونا دائماً للبحث عمَّا وراء ظاهر الأشياء لنصل إلى حقيقة جوهرها ولنصنع لأنفسنا ما نؤمن به.

أطلتِ النظر في عينيَّ وقد أطلتُ الصمت.. ثم قلتُ لكِ:

- أنتِ أدرى بديني.

- أعلم بأنَّ أمكَ يهودية.

- وتعلمين الطريق إلى الحانوت.. وتعرفين اسمي.. وكيف تصلين داركم.. وفوق ذلك تسألين؟!

أطلتِ النظر مبتسمة.. لأدرك في تلك اللحظة بأن كائناً لا مرئياً يتلبسكِ.. وأنكِ مصممة على المضي بعيداً.. قلت بملامح جادة:

- لن أسأل طالما وذلك يضايقكَ.. لكن عليَّ إخباركَ بأنَّ العيلوم هو مَن زوَّدني بكل ما أعرف.. وهو من أرسلني لدعوتك.

- العيلوم.. وماذا يريد منا؟!

- ما يريده مِن أي يهودي!

- لكني لستُ يهودياً.

راسمةً دوائرَ نزقٍ حول فمك الصغير.. ما لبثتْ أن تسلقتْ إلى عينيك.. كان عليَّ أن أتظاهر بالبله.. هكذا فكرت تلك اللحظة.. بينما كنتِ تدورين بعد أن التقطتِ كتاباً تقلبين صفحاته.. ثم خطوتِ نحو أرفف خزائن الجدران.. تفحصين أوعية المداد.. وأقلام اليراع والريش.. توقفتِ:

- أنت بارع في ما تصنع.

هززتُ رأسي لكلماتك.. وقد زاد حضوركِ في تلك اللحظة.. صوتكِ يسترد

رقته: تصنع ألواناً براقة.

رميتُ بكلماتٍ يوافقن هواكِ:

- تقصدين أنَّ إتقان العمل ينحصر على اليهود؟

- ألا تدرك فتنة ما تصنعه؟ هذه الحروف الملونة مدهشة حد السحر.

- ترين عملي.. وأنتِ ماذا تجيدين صنعه؟

- أشياء كثيرة.. أجيد قراءة أسرار الكف.. وأستعينُ بالنجوم لقراءة الطالع.

- قراءة الطالع.. والاستعانة بالنجوم؟

- نعم.. هل تريد قراءة طالعك؟.

في تلك اللحظة أحسستُ بأنكِ أوقعتِ نفسكِ في فخ.. سارعتُ بمد كفي حتى أكشف زعمكِ وأفضح ما تدعينه.. في تلك اللحظات شعرتُ تجاهكِ بالشفقة.. ويدي معلقة في الهواء.. رفعتِ وجهكِ تحركينه بالنفي.. قلتِ باسمة:

- سأقرأ طالعك.. لكن بعد أن ننقشَ فيك وشماً.

ابتسمتُ وأنا أراكِ تغرقين في إدعائك.. سألتكِ متعجباً دون أن أسحب يدي المعلقة.. ساخراً:

- وشم؟!!

- نعم مثل هذا.. ومررتِ بسبابتكِ على ذقنكِ.

اقتربتُ من وجهكِ.. بينما أمسكتِ كفي تمسحين ظاهره وتتمتمين مغمضة العينين.. أتأمّلكِ مستسلماً تقولين: ظهرُ كفكَ نقيٌّ البشرة.. سيكون النقش عليه سهل.

- لماذا وشم؟

- لن يكون الآن.. سأتركك الآن.. وأعود إليك...

- أوافق على كل ما تريدين.. ليس لشيء.. فقط من أجل تعودي إليَّ.

كنتُ صريحاً معكِ فلم يكن يهمني شيء بقدر ما يهمني أن تكوني معي.. مخفياً ضيقي في الوقت نفسه من رغبتك بالانصراف: "سأعود إليك".. فقط كلمتان أضافتْ إليَّ شيئاً مِن السكينة.. أخفيتُ ما كنتُ أشعر به.. هممتُ النهوض لأودعكِ.. ربَّتِ على كتفي:

- أعرفُ طريقي!

خرجتِ في خطوات متوازنة.. تابَعتْ أُذناي وقْعَ أقدامِكِ.. قلتِ بأنَّكِ تعرفين طريقكِ.. أعرفُ بأنكِ تعرفينها.

تسرَّبَ الشكُّ بعد خروجكِ.. متسائلاً: هل غادرت الدار بالفعل؟ قد تكون مختبئة في إحدى الزوايا.. لكن لماذا تختبئ؟ وماذا لو تأكدت؟ شككت في أن تكوني صعدت الدور العلوي.. أو أنك تتخفين في ظلمة الدور الأسفل.. أتذكر بأني بعد حين خطوت أبحث عنكِ.. صعدتُ درجاتِ السلَّم فلم أجد لكِ أثراً.. هبطتُ الدور السفلي علَّي أكتشف شيئاً.. لم أجد غير خيبتي.

هذه المرة سمعتُ قرعاً على باب الدار.. في البداية ظننتُه متسولاً.. لكن القرع تواصل.. ما جعل قلبي يخفق بشدة.. لا أدري لماذا مرَّ طيفُكِ فجأة. هبطتُ مسرعاً.. لأراكِ تقفين وخلفكِ امرأة.. وأذكرُ بأنّي لم أتمالك نفسي فاحتضنتك.. بدورك تواطأتِ للحظات.. شعرتُ بعدها بالخجل لبرودكِ.. صعدتِ وصعدتْ المرأةُ تحمل كيساً خلفكِ وكأنها من أهل البيت.. ما إن دخلنا الحجرة حتى وضَعتْ كيسها في الزاوية.. دعيتِني :

- اقتربْ انظرْ ما جلبناه لك. وأخرجتِ لفافة كبيرة: هذه توراتُك.

بينما المرأة تهز رأسها مشجعة. استمررتِ منشغلةً كجندي لا يخطئ فأخرجتِ قطع أقمشة.. قطعة بعد أخرى.. ذكرتني القطعُ بترانيم أمي "باركني يا سيدي يا ربنا يا ملك العالم يا من عظَّمتنا بنزول التوراة" وهي تُلبسني مثلها صغيرا.

أجلستِني ثم جلستْ المرأة جواري.. أتذكر لحظتها بأنَّ وجهكِ أضاء بابتسامة انفرج لها فمك الصغير.. مرسلةً نظرات غامضة ثم جلستِ أمامي.. التقطتِ كفي تمسحينه وقد غطتْ وجهكِ علاماتُ الرضا.. واتسعت عيناكِ وأنت تنظرين في عيونها وتمطين شفتيكِ وكأنَّ بينكن لغة خاصة.. تمسحين كفي بزيت دافئ.. بينما المرأة أخرجت قناني صغيرة وإبر دقيقة.. استلَّتْ إحداها وانهمكَتْ بوخزي وخزاً مؤلماً.. كنت تمسكين بذراعي لتثبيته.. لحظتها اجتاحتني آلام لا تطاق.. أدركتُ جديتكِ وأنتِ تُخضعين كفي لضربات تلك المرأة.. همستِ:

- أريدكَ أن تنسى الألم.. ركِّزْ بمتابعة ما تصنعه الإبرة.. أن تتعلم كيف يكون الوخز؟

تحاملتُ لأبدو شجاعاً أمامك.. سألتكِ:

- لماذا؟

- سنعلمك كيف تنقش أروع منها.. فلك أسلوب نقش ساحر بالقلم والريشة.. فقط تستبدلهن بالإبرة.

أهز رأسي وأنتِ تواصلين الشرح.. بينما تلك المرأة انكفأتْ تهنهن.. ومع تسارع إيقاع وخزها يتسارع أنينها.. رويداً رويداً تسرَّبَ خَدَرٌ لذيذٌ تخلَّلَ كفي.. نامَ الألم.. وأنتِ تحدثيني بصوتٍ شبيهٍ بصلوات أمي.. تهتزين مع إيقاع هنهناتها.. مَرَّ وقتٌ خلته لن ينتهي وهي تظفر الوخز بأنينها.

للحظة سكت الوخز وتوقفت أصواتكن.. ربَّتِ على كتفي:

- أترى.. لقد انتهينا.. هيا انظر.

سطح متورم.. تمررين أصابعك على كفي النائم.. تنفخين ليتأجج شذىً زكي.. ناظرة في عيني: سيخف الورم تدريجياً ويزول.

نطقتِ كلماتكِ بسعادةٍ كما لم أرَها على وجهك أبداً.

- لكن لماذا الوشم؟ ستعرف سِرَّهُ يوماً ما.. أتمنَّى أنْ تتحامل على ألمك.

- محتمل!

- أعرف.. لكني أريدكَ أن تتحامل لأنَّها ستعلمكَ طرق الوشم.. لن يكون عليكَ صعب كما قلت لك.. أنت خير مَن يجيد النقش.. فقط كيف تمسك بالإبرة.

- تابعتُ ما صنعتْه بإبرتِها.

- يبقى عليك أن ترينا كيف ستصنع نقشك في القطعة الجلدية.

أخرجتِ قطعة جلد طرية. تحاملتُ على آلامي لشطرٍ مِن ذلك الليل أنتقل بالإبر من قطعة جلد إلى أخرى. كانت ليلة غريبة.. كما لو كنتُ مسحوراً.. مندهشاً أسأل نفسي: كيف انقدتُ لكِ ولتلك المرأة.. ولم أبدي حتى أيَّ تساؤل.. كل ما كان يعنيني طاعتكِ من أجل أن تبقي معي.. ظاناً بأني سأغريكِ بانقيادي.. لم يكن يهمني إلا أن تشعري بتعلُّقي وعشقي لكِ. التفتِ إليَّ بنظرات باسمة:

- غداً يدعوك العيلوم للصلاة في الكنيس.

- لا أريد الذهاب.. ولا أريد ملابسه وهداياه.

- الملابس ستحملها للصلاة في الكنيس.. ونسختك من التوراة مكانها في بيتك.. أليس كذلك؟

- وأنت هل ستكونين هناك؟.

- سأصطحبك إلى الكنيس.

- هكذا يمكنني مرافقتك!

في تلك اللحظة صمتتْ المرأةُ التي معكِ وقد كسا وجهَها وجومٌ غريب.. ثم التفتتْ حين لاحظتْ مراقبتي لها.. فأومأتِ:

- هذه خالتي تجيد نقش الوشم.. وأيضاً قراءة الطالع. كان حضور تلك المرأة يثير تساؤلي.. تتصرف بألفة كأنها تعرفني.

كان عليَّ أن أنقاد لكِ:

- ظننتكِ حين حدثتِني المرة الماضية أنكِ تجيدين نقش الوشم وقراءة الكف.. أو هكذا فهمتُ.

- قراءة الكف نعم.. وأنا من سيقرأ لك.. لكن الوشم لا أجيد نقشه كما تجيده خالتي.. وكما ستجيده أنت.

-٩-

أنهيت كتابتي بعد امتلاء صفحة اللفافة..وضعتها كالعادة.. منتشياً مِن تذكري تلك الوقائع التي قد تعيدها إلى صوابها.

ولم تتأخر في ردها.. لأقرأ:

"اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك.. وأدعوك مِن قلبٍ شغوفٍ بمحبتك.. والتعبد لعظمة ربوبيتك.

أكتبُ إليكَ وقد وجدتُ سلوتي فيما تحكي.. مِن ضربٍ للوشم وعن حياة أجهلها.. مستغربةً مِن تعاظم ظنونك.. ولزاماً أنْ أعرِّفكَ على ماضيَّ.. كما أنت تكتب حكايات نفسك.. وإن تمنيتُ لو كنت شوذبك.

وحكايتي أن أمي تركتني صغيرة ولا أعرف إلا أنها هربت مع رجل عشقته. وحين بلغت الثانية عشرة وهبني والدي للملكة.. كان الأهالي يتسابقون ببناتهم إلى الملكة بمقابل وبدون مقابل لما يتوسمون من حياة النعيم والتربية الصالحة.. وبدورها لا تقبل إلا مَن ترى فيها الحسن والذكاء.

وجدتُ نفسي غريبة وسط نساء كُثر. كنتُ ومجموعة مِن الصغيرات نخضع لتعليم جوارٍ كبيرات.. يعلمننا الطاعة والإخلاص لمولاتي.. عبادة الله.. نظافة أنفسنا.. تعلم القراءة والكتابة.. التعامل بأدب ورقة.. ثم انتقلنا في مرحلة لاحقة لحفظ الشعر والأدب.. وفنونٍ لا غنى لكل جارية عنها.

ومن لحظة دخولي القلعة مُنع عليَّ الخروج كجميع جواريها.. ولم يعد لي صلة بأبي ولا أعرف عنه شيئاً.. عرفتُ مع مرور الوقت أنَّ حياتي مِلك مولاتي.. ولا أملك حق نفسي.. وأنني في مكان تتمناه الكثيرات.. وأننا في أفضل حال.

كنتُ أسمع بعض الثناء على حسني.. ولم أبلغ الخامسة عشرة حتى كنت ضمن مَن يخدمن مولاتي.

برحيل الملكة أسماء حلَّتْ الحُرَّة سيدة محلها مستوعبةً درس رحيل الملكة.. لتسير على هَدي وصاياها السرية.. فهي مَن توسمت فيها النبوغ.. وخلعت عليها صفة الحرة.. ولذلك زوَّدتها قبل رحيلها بكتاب وصايا سرية. وبذلك سارت الحُرَّة سيدة على نهج مولاتها أسماء.. جاعلةً مِن تلك الوصايا دستوراً

لحياتها.

تلك الأمور وغيرها كانت تتكشف لي خلال سنوات عمري في خدمة الحرة سيدة التي حدثتنا في لحظة صفاء عن صراع الملكة وابنها المكرم على السلطان.. وكيف كانت نهاية ذلك الصراع برحيلها.. لأعيش بعد ذلك الصراع بين الحرة سيدة وزوجها الملك المكرم.. ومع مرور الوقت تكشفت أساليبها لمضاعفة سطوتها عاماً بعد آخر.

هذه أنا أبادلك حكاياتى لتعرف مَن أكون.. محاولةً بذلك إبعادك عن عذاب الظنون التي تسكنك.. فقد وددتك.. وأضحيت أنتظر جواباتك.

أستودعك رب العباد.. وأُذكِّركَ وأُذكِّر نفسي الحذر.. لا تُسر أحداً أياً كان عمَّا بيننا.. وإن رأيتَ أيَّ خطرٍ على حياتك فلا تكتب إليَّ".

-١٠-

أكملت قراءة رسالتها وقد غمرتني أحاسيس متباينة.. خوف ممزوج بقلق.. أن أقع في منادمة ذي الساق تحت تأثير شهوة الحكي.. وخوف آخر أن يَصدُق ما تدعيه بأنها ليست شوذب.. لم أعد أحبذ أن تحكي حكاياتها.. وإن كنتُ بحاجة لمثل تلك الحكايات.

سارعتُ بكتابة جوابي إليها: لا أريد المزيد من حكايات الخوف.. لا تحتاجين لكل ما ذكرتِ لأن تثبتِ أنك لست أنت.. ولن يغير يقيني كُلُّ ذلك.. فما أتوق إليه هو أنتِ كيفما تكونين.. فتعالي نلتقي.. لأراك وتسمعيني.. فهل يتحقق لي ذلك؟

ذكَّرتُكِ في جوابي السابق بظهوركِ وزياراتكِ المتكررة لي.. ومفاجأتي بمَن قَدِمَتْ معك لضرب الوشم.. ذلك الشكل الذي جعلني أتذكركِ كل يوم.. وكان يثير الأسئلة لدى مَن يلحظه.. ما اضطُررتُ إلى إخفائه في جراب تجنباً لتكرارها.. لم تكن مَن علَّمتني ضربَ الوشمِ بصحبتك حين أتيتِ لمرافقتي إلى الكنيس.. قبَّلتِ كفي فجأة حتى تسَّربَ لبدني دفءُ أنفاسِكِ.. مشاعر لا قِبَلَ لي بها.. لحظتها لم يعد يهمني شيءٌ غير وجودِكِ.

-الآن علينا التوجه إلى الكنيس.. وبعد ذلك نتحدث في كل شيء.

تلك اللحظة شعرتُ بأنَّك مغرمة بي.. ولم أكن فقط مغرماً بك. لم يكن يهمني ما وراء دعوتكِ.. كل ما كنتُ أريده أن أحافظ عليكِ جواري.. وأن نظل على تلاقٍ.

- سترى ما يسعدك.

- لا يهم المكان الأهم أن نكون معاً.

رمقتِني دون أن تغلقي فمكِ:

- أيسعدكَ أن نكون معاً؟

هززتُ رأسي في سعادة وأنا أتبعكِ خارجاً.. أسير خلفكِ.. أحمل هديتكِ مِن أقمشة. لم يكن حيُّ اليهود بعيداً حيث الكنيس.. طوال سيرنا أخذتِ بإزجاء النصائح: اخفِ وشمَ كفِكَ ما دُمتَ بينهم.. حين تصافح العيلوم أخبِرْهُ مَن تكون.. حين يتكلم هز رأسك وعيناك في عينيه بعلامة الرضا.. وإن تكلمتَ امزجْ ابتسامة عينيك بكلمات هامسة.. وحين يتحركون للصلاة سِرْ معهم.. شاركهم صلواتهم.. افعل ما يفعلون.

-١١-

حين كنا أمام كنيس.. أشرتِ لشخصٍ يبدو أنه ينتظر قدومنا.. عبر بي ممرات حتى أوصلني حجرة جانبية.. قدمني لرجل عرفتُ أنه العيلوم وعرَّفني إليه.. لا أعرف من أين له بتلك المعرفة بأمي. مددتُ يدي مصافحا له.. ابتسمَ هازّاً رأسه بوداعة.. ثم قال: نعرفك.. أنت منا وننتظر حضورك دوما. هل تؤمن بوجود الله؟ وأن الله فريد من نوعه؟ ليس له جسم.. وهو أزلي؟

كنتُ أهز رأسي ناظراً في عينيه.. مواصلاً: إذاً عليك أن توجه صلاتك له لا لأحد غيره.. كما إنّ عليك أن تؤمن بما قاله الأنبياء من بني إسرائيل.. وتؤمن بنبوءة موسى أعظم الأنبياء.. وأنَّ ما جاء في التوراة المكتوبة والتوراة الشفوية كما التعاليم الواردة في التلمود وغيرها من الكتابات إنما أعطيت لموسى.. ولا غيرها توراة.. وأنّ الله يعلم أفكار ومواقيت الرجال.. إنَّ الله يكافئ الأخيار ويعاقب الأشرار.. وإنَّ المسيح سيأتي والأموات سيحيون.

ظللتُ أهز رأسي كلما رفع وجهه إليَّ.. متذكِّراً كلماتكِ.. لكن ظل استغرابي بذلك الرجل الذي رافقني إليه.. الذي يعرف كل شيء عني وعن أمي حتى وفاتها!

ثم اصطحبني إلى قاعة الصلاة حيث انشغلَ الحضورُ بتبادل الهدايا مِن حلوى وفطير.. وسط تعالي قهقهاتهم هنا وهناك.. يسير بعضهم راقصاً.. وآخر يغني.. ليتبعه البعض.. أخذ الجميع في تناول الطعام والشراب.. شربتُ مع الشاربين.. شاركتهم الصلوات متذكراً نصيحتك: "افعل مثلما يفعلون.. إنَّ طبيعة الإنسان تكمن في غضبه وشهوته وكأسه.. اشربْ لتكتشف مَن أنت؟".

لا أعرف كيف انتهت تلك الصلوات.. ولا متى.. ولا أعرف كيف عاد بي إلى دار المعلم؟ ولا كيف اختفى؟ ما أعرفه أنني وجدتُكِ أمامي وأنا غارقٌ في نشوتي.. أحاول الوقوف برأسٍ متصدِّع يكاد يقع لثقله.

- هل أعجبك العيد؟

أومأتُ لكِ بابتسامةٍ نشوى.. أردفتِ: أعدُكَ بأنْ أصطحبكَ دوماً.

رددت عليك ضاحكاً:

- تعلمين بأني لا أؤمن بدينهم.. ولم أذهب إلا إرضاءً لكِ.. وليس لقناعة فيَّ.

- إرضاءً لي؟

- ثم إنَّ ذلك الرب الذي يعبدون لا يعنيني.. ودوماً أبحث عمَّا يقنعني.

- لكن أمك يهودية.

- لا يعني ذلك شيئاً لي.. ما يهمني هو أن تكوني معي.. وماعدا ذلك لا يعنيني.

تكلمتُ إليكِ بكلام كثير لم أعد أتذكره كله وأتذكر أنكِ قلتِ:

- أمرُكَ مُحيِّر.

رددتُ عليكِ وقد تلبَّسني نوعٌ مِن الغرور:

- كُلٌّ مِنَّا سحابةُ حيرة.. أنتِ وإنْ أدعيتِ معرفة نفسكِ ستجدين بأنكِ غريبة عن أقربِ الناسِ إليكِ.. وغريبة أيضاً إلى نفسكِ.. اجلسي مع ذاتكِ.. أنا على ثقة بأنكِ لن تعرفيها.. بل ستقفين في حيرة مِن أمركِ.. وستكتشفين بأنكِ أكثر مِن كائن.. جربي ذلك؟

صمتِ قليلاً ثم أدرتِ رأسكِ:

- ماذا تقصد؟

- أقصد بأني لا أصدق بأنكِ تؤمنين بتلك الحكايات والأساطير! فلتكوني مسلمة أو يهودية؟. ألم تباغتكِ أسئلة دون أن تجدي لها أجوبة؟

ألم تتساءلي عمَّن يعبدون؟ وأين هو؟ ولِمَ هم يقولون بأنه دين يخصهم دون الأغيار؟

ولِمَ علينا التصرف باسمه بينما يتشرنق في غيابه؟ وهل هو عاجز عن حتى ينبروا للدفاع عنه؟ وما حقيقة أنه أوكل بمهامه لبعضنا.. ولماذا؟ وكيف نعرفه بعيداً عن تعريفاتهم؟

صمتٌ وأنتِ تتأملين عينيَّ مبتسمة:

- الم أقل لكَ بأنكَ محير.

- الحيرة لا تكفي للوصول للحقيقة.

- فمن تعبد؟

- لا أظنني أعبد أحداً!

- ومَن ترى الناسَ تعبد؟

لا شيء.. يعبدون أوهاماً يبتكرونها لأنفسهم.. مَن ترينهم في الكنيس يعبدون أنفسهم.. وما يتلونه من التوراة وأساطير التلمود إنما هي عبادة لوَهْمٍ بعد أن اختلقوا ربّاً لا يُرى ولا يُمس.. وادَّعوا بأنه ربٌّ يخصهم دون الأغيار.. وكهنتهم يعون ما يصنعون مِن وَهْم..

لكنها مصلحتهم في الاستمرار.. وكل تلك الأسفار والمزامير عبادة وتقديس لسلالتهم وتمجيد لنبوغ وتميز يدعونه.

وجُلُّ المسلمين يعبدون محمداً ومراقد وأضرحة عترته وإنْ أنكروا.. ولم يستوعبوا الربَّ المُجرَّد الذي جاء به اليهود وإنْ ادعوا ذلك.

والنصارى جاهروا بعبادتهم ليسوع.. كائن مِنَّا غير مجرد.. وإنْ ادعوا بأنه الله..أو ابنه المُخلِّص.. فيما الله الحق يقبع في أعماقنا ولا يحتاج لأي طقوس ولا إلى أنبياء.. ولا لأي تعريف.. ولا لمن يمثله أو يدعي فهمه دون غيره.. فقط أن نتجنب أذية أنفسنا كبشر وأذية مَن حولنا.

- أشفق عليكَ من ترهاتكَ.. لكنه تأثير ما شربته.

- قد يكون.. وكم تمنيتُ لو أنَّ معلمي حاضراً بيننا حتى أرى ما يقول فيما زرعه بي!

صمتِّ تحدقين فيَّ.. لتجذبيني بالحديث عن نفسكِ.. وأُذكِّركِ الآن ببعض ما قلتِه: أخبرتُكَ أنَّ اسمي "شوشانا" هربتُ وأمي مِن الشام إلى صنعاء منذ سنين.. وقصتي تشبه قصتكَ.. فأمي ليست مسلمة.. تزوجَتْ بمسلم أنجب منها ولدين وأنا ابنتهما الصغرى.. قُتل والدي في معركة بين العباسيين والفاطميين.. لتنشطر الأسرة.. فأخواي ضمهما أقارب أبي.. هربت أمي مع تاجر يهودي سار بنا جنوباً نحو أقارب له.. تعلمتُ مِن أمي التنجيم.. وعلاقة النجوم بالبشر.. وحين وصلنا صنعاء وسكنا حي اليهود راقَ لأمي أن تكونَ يهودية وراق لي.. ظل الوشم الذي على ذقني يدل على أني لستُ يهودية.

قاطعتكِ مستغرباً:

- إذاً لماذا وشمتِني وتعرفي أنَّ اليهودي لا يُوشَم؟

- ستجد سِرَّ ذلك في القادم مِن عمرك.. وستدرك بأنَّ جحودكَ لخالقكَ باطل.. وأن روحاً ترعاكَ رغم تكذيبك.

ثم تسللَّ صمتٌ لللحظاتٍ بيننا.. هَطَلَتْ أثناءه أفكارٌ اعتمَلَتْ بداخلي.. شعور مَن تعصف به رياحٌ عاتية.. أعادني صوتُكِ مِن جديد:

- ولذلك أتمنى ألا تُعرِّضه لدَنَس.. رمز عظمة الوجود يحمل أسراراً كثيرة.. يحمل رسائل إلى كائنات نورانية تراك ولا تراها.. يصنع صلتك بها.. مَن يحمله يطهره مِن الكراهية والخوف.. دائماً يحمل شجاعة الإحساس بالحب لكل ما حوله.. حب قيمته أنت.

سكتِ تراقبين صمتي دون أن تنبسي بكلمة.. كما لو كنت تراقبين مدى تأثيرك على نفسي.. لتنفرج ملامحُكِ وقد عَلَتْها ابتسامةٌ عذبة.. بينما ملامح وجهكِ لا تزال ترتعش:

- أود أنْ أسألَكَ عن أمرٍ كثيراً ما تردَّدتُ في طرحه.

صمتُّ أنظر في عينيك مشجعاً البوح بسؤالكِ.. قلتِ وأنتِ تداعبين وشمي:

كثيراً ما سمعتُهم يتحدثون عن وجود كُتُبٍ تخفيها.. وهي مما تركها لكَ معلِّمُك قبل مقتله وأوصاكَ بإخفائها.

نظرتُ إليكِ لحظة وقد طردت ما تبقى من نشوتي.. لأتساءل صامتاً: مَن هم الذين تسمعين منهم ذلك؟ ولماذا يتساءلون؟! ابتسمتُ في ثقة متذكراً بأني كنتُ قد غيرتُ المخبأ. شعرتُ بعدها بالأمان على تلك الأمانة.

ظللتِ تداعبين كفي تنتظرين الإجابة.. أجبتُكِ ساخراً:

- ما تسألين عنه أضحى في باطن الأرض.

بعدها لم تنطقي.. جزمتُ بأني نجحتُ في تتويهكِ.. وإبعاد قلقي منكِ.. محاولاً كسرَ صمتٍ خيَّمَ بيننا.. حاولتُ تغييرَ مجرى الحديث وسألتُكِ أنْ تفي بوعد قراءة طالعي.. لكنكِ استأذنتني متعللة بتأخر الوقت.. نطقتِ كلماتكِ كما لو كنتِ تسكنين في الجوار. لكنَّكِ ذهبتِ ولم تعودي أبداً.

توقفتُ عن مواصلة الكتابة عند تلك الذكرى.. أرهف السمع لهبوطهن.

-١٢-

تشرق الشمس ولا تهبط لفافتها. هي المرة الأولى التي تتأخر.. هواجس تجالسني.. أرقب جواري البريد.. نظراتهن المسترقة.. كلماتهن المختصرة.. فلا أستشف شيئاً. أبحث في وجد دخان ذي الساق علَّه يساعدني..لكنه يغريني بالشكوى.. أتماسك في اللحظات الأخيرة.. متخيلاً ثعلباً ينصت مبتسماً وقد أطلَّ المكرُ مِن عينيه.

" بسم رب الأكوان ومشرخ البنان.. وخالق مِن العدم الإنسان.. نحمده ونسبح له ليل نهار عدد خلقه.. ونصلي ونسلم على ضياء الأنام.. وآله تسليما كثيراً وعلى الأئمة من عترته. لم يكن لي من حيلة إلا أن أتوقف عن بعث خطابي إليكَ بعد أن سمعتُ من بعض الصبايا بأنكَ ما إن يضعن المخلاة بين يديك حتى تضطرب أصابعك وتزيغ عيناك وكأنك تبحث عن شيء.. ما جعل رعبي يستيقظ.. حين سمعت حديثهن تعرق جسدي.. وقررتُ التريث لبعض الوقت.. وها أنا ذا أعاود بعد أن خفت ثرثراتهن.. أرى بعيونك أحداثاً تمنيت أن أعيشها.. أمرٌ يعجبني في حكاياتك.. فنحن جواري مولاتي لنا حيواتنا داخل القصر..ولنا ما يبهج.. لكن ما تحكيه يدفع للدهشة.. وأصدقك أن ما تكتبه من تلك المشاعر أحس بها.. رغم ذلك التعكير الذي تزرعه بين فينة وأخرى.. ولذلك أنتظر حكاياتك بفارغ الصبر.

أتمنى عدم إظهار اللهفة أمام مَن يهبطن بالبريد.. حتى تظل كل مشاعر الود تنساب بيننا.. ودمت في عناية رب لا تخفى عنه السرائر".

كلما أكملتُ قراءة رسالة من رسائلها أعود لقراءتها باحثاً عما تخفيه بعض الجمل.. وأتخيلها تفعل الأمر نفسه بجواباتي إليها. في هذه الرسالة منحتني سعادة باعترافها أنها تشعر بكلماتي.. وأنها تحرك أحاسيسها.. وما كان أسعدني بذلك. لم أتأخر بالجواب إليها لإحساسي بأنها بدأتْ تعترف.. والحقيقة أنني أسعد كثيراً حين أجلس إلى الكتابة مستعيداً

تلك الحيوات.. فلم يعد لي مَن أبوح إليه غير هذه اللفافة التي تحمل الكثير مِن الحكايات وكأنها تتغذى بمشاعرنا.. وجدران وسقوف غرفتها.

في ذلك الصباح شاركتُ ذا الساق دخانه وقاته.. لم أصدق ما حل بي من الخدر.. ما إن أقفل الباب حتى كنت أضحك عالياً.. أرقص وأغني بصوتٍ يطربني.. لا أعلم هل رؤيتي لهبوطها مِن الجدار تراقصني كان حقيقياً أم وَهْمَاً.. بل وتُقرِّبُ عينيها من عيني لتدور كفراشة في دوائر رقصها المتتالية. في تلك الليلة لم أنم حتى اقتراب الفجر.. بدأتُ أكتب:

سعدتُ برسالتكِ بعد انقطاعها.. كنتُ قلقاً فبددتِه..كنتُ حزيناً فأزلتِه.. أنا لا أعرف حياتك خلف الجدران إلا ما تذكرين.. وأحاول دوماً تخيل تلك الحياة المبهمة.. ورسائل الملكة التي أنسخها لا تعرِّفني بشيء.. فهي لأمراء القلاع.. أوالمتنفذين في أراضي قصية.. أتلقى ما يشاع ولا أملك إلا التأويل.. ولذلك أمارس العشق بديلاً عن الإيمان.. وكنتِ عشقي.. لأنَّ لا حقيقة في وجود غيبيات.. سنوات من البحث عنكِ.. أستجديكِ الظهور.. ولا يزال بداخلي بقايا أمل. إلا أن العدم يصبغ تفكيري لأجدني أقف إجلالاً لمطلقه.. ذلك الشيء الذي يبتلع كل شيء.. ولذلك كثيراً ما فكرتُ أنَّ العدم هو الكائن الحق.. إنْ كان هناك من حق.

اسمحي لي أن أكتب إليكِ كشوذب ولن أتواطأ مع رغبتكِ.. ولكِ أن تكوني ما تريدين.. واتركي قلبي يراكِ كما يريد.. قد تكمن السعادة في وهمنا لا فيما هو كائن.

وتلك أنتِ تتمنين لو كنتِ هي.. كونيها من أجلي.. فبحكاياتنا المشتركة أعينكِ لتستعيدي ذاتك.

كما لو أفقتُ مِن تأثير سحر..عدت أنتظر عودتك.. صحوت على أسئلة تؤرقني: هل فقدتها؟ مرت الأيام ولم تعودي..وانقضت شهور خرجت لأبحث عنكِ.. بدأتُ بحي اليهود.. أسأل مَن أصادف عن منزل شوشانا.. ناثراً أوصافها: فتاة بوشم على ذقنها.. طويلة.. وجه بيضاوي.. عينان ضاحكتان وفم مدور.. جاءتْ وأمها هرباً مِن بلاد الشام.. تجيد التنجيم وقراءة الكف. كل مَن سألتهم يشيرون بعدم معرفتك.. وما زاد حيرتي أنَّ العيلوم نفى أن تكون بين اليهود من لها تلك الأوصاف.. لكنه تذكر حضوري في ذلك العيد. سألت عن ذلك الذي كان يرافقني.. لم يدلني إليه أحد.

-١٣-

عدتُ حزيناً.. انكفأت في زاوية المعلم عاجزاً عن تفسير غيابك.. وعما يدور.. أفكر بهدوء مجمّعاً أفكاري.. وقد أخذ اليقين مني مأخذه بأن عطش هي شوشانا وشوشانا هي فندة وكلهن شوذب التي هي أنتِ.

ولم يعد يهمني إن حضر خيَّالة القلعة لملاحقتي أو لم يحضروا.. ولا سلاسل شجرة الكافور. توالت الأيام دون أن يظهروا.. حمدتُ النسيان الذي شملني برعايته ولم يعُد أحد يبحث عني.

انتشرتْ خلال تلك الأيام أخبارُ عزمِ الملك أحمد المكرم الرحيلَ إلى اليمن الأسفل.. قيل أنه وجد عاصمةً بدلاً عن صنعاء. وبتلك الأخبار احتَّلت المدينةَ مشاعرُ القلق.. لتتناسل شائعات كثيرة حول أسباب هجره عاصمته وهو مَن حارب سنوات وجدع عشرات السلاطين وقتل مِن القبائل الآلاف لإخضاعِهم من أجلها.. ليتركها باحثاً عن حاضرة أخرى لسلطانه.

كان الأمر غريباً لم يصدقه معظم الناس في البداية.. لكن يوم الرحيل جاء وقد خرجت صنعاء تبكيهِ راجيةً ألا يهجرها.. كان الموكب كبيراً تحفه عساكر كُثر. شق الموكب المدينة حتى أطرافها.. لتختلط أصوات الأبواق بأدعية المساجد.. وعويل النساء بصهيل الخيول. اربدت السماء وعلت رعودها.. لكنها لم تذرف مزنة واحدة.. سرتُ خلف الركب مع السائرين.. وعيناي تتمنى رؤية وجهك على أحد الهوادج. حام الخيالة بالزجر والتهديد يردعون الناس مِن مصاحبة الركب. تابعتُ الركْبَ أفترقُ وأبتعد عبر مزارع واسعة جنوباً حتى توارى بعيداً.. عدتُ وقد بدتْ منارات ودور المدينة وأسوارها كائنات شاخت فجأة واعتلاها بياضٌ مبهم.. تلك السحب دنت من سفوح تسمع أنينها.

دخلتُ باب اليمن الأسفل.. سرتُ باحثاً عن بقايا دفء.. ظللتُ أهيم دون هدى حتى دنت الشمس ليحل ليلٌ دون رائحة.. خواءٌ رغم زحام الدور.. كلي مشغول برحيلك.. رافضاً كل أسمائك.. أحاول الهروب من تفكير يقودني إليكِ.. أستجمع معرفتي التي اكتسبتُها مِن الكتب.. محاولاً التصالح مع الحياة.. لكنه سؤال ظل يتكرر: لماذا الكل يرحل عني؟!

لم أعد أطيق البقاء في الحانوت.. ما إن تمر اللحظات حتى أنهض من زاوية المعلم.. أحاول التخلص من ضيقٍ يلاحقني.. أقفل الحانوت مبتعداً.. أسير عبر الأسواق.. أعاود الوقوف أمام بوابة أسوار القلعة.. كل ما فيها باهت.. مناراتها ودُورها المطلة من خلف أسوارها غريبة.. لا أعرف لماذا بدأتُ أبحث عن معجزات.

لأيام اعتكفتُ في أحد مساجد المدينة.. ثم لجأت إلى الكنيس.. لا أعرف هل أبحث عنكِ أم عن معجزةٍ ما.. أم عن نفسي؟. لم أجد غير الخواء.. فكرتُ بمغادرة صنعاء إليكِ.. أنْ أفرَّ مما يعتمِل بداخلي.. أن أتبعك إلى ذي جبلة.

إلى ذلك الصباح حين رأيتُ حانوت المعلم فاغراً سقفه.. تفترسه الشمس.. حتى سقف المخزن كان مهدماً.. في بداية الآمر اعتقدتُ بأن الأنقاض قد أخفت تحتها ما خبأته في باطن الأرض (الصندوق).. سارعتُ لنبش ذلك الركام.. تقاطر خلْقٌ لا أعرفهم ينبشون.. يبحثون عمَّا يلتقطونه.. لم أنهر أحداً.. وبعد طول جهد لم أجد الصندوق.. حفرتُ أكثر حتى أحسست بأني قاربتُ على الجنون.. جلستُ فوق الركام أندبُ أمري.. تكاثر المارة والوراقون.. بالكاد أرفع بصري الدامع.. لأسمع كلمات المواساة.. فارقتُ السوق كسيراً لا ألوي على شيء.

تبخر ما كنتُ قد اكتسبتُه مِن ثقةٍ بنفسي.. مكثت في الدار ولم أعُدْ إلى السوق.. انزويتُ أقرأ ما أجد من كتب.. غائصاً في معاني الكلام. ولأيام أمسيتُ لا أطيق حتى فتح النافذة أو النظر إلى العابرين.. أكره سماع الأصوات الآتية مِن بعيد.. أقف على ما تحمله بعض

الكلمات والجمل من دلائل.. أبحث عما وراء معانيها.. لا أستجيب لقرع الباب.. ولا أهتم لأصوات الأزقة.. إلى ذات صوت كان يكرر: (جوذر.. جوذر) سمعته من خلف نافذتي المطلة على باب الدار: هيا اهبط لأراك.. لقد ذهبتُ إلى السوق ولم أجد غير ركام حانوتك! جئتك لأعرف ماذا حصل؟

أسمع صوتاً دون أن يعني لي شيئاً.. تزايدت الأصوات المصاحبة لقرع الباب.. أخذتُ أتلصص مِن شق نافذتي لأرى قزم القلعة على خيله وعيون المارة تتجمع.. بينما صوته الممطوط يواصل ندائي.. عسكره فاغرون أفواهَهم دون معنى. كرَّر مُهدِّداً: إنْ لم تهبط سأكسر الباب وأصعدُ إليك.. ألا تسمع؟! لم أبالي. وما هي إلا لحظات حتى سمعتُ تهشيماً أسفل الدار.. تعالت جلبة.. لأفاجأ باقتحامه لحجرتي.. انكمشتُ على نفسي وشعورٌ بالمهانة يجتاحني. وقفَ ملاطفاً.. ثم ركع ممسكاً برأسي يتودد.. يسحب ذراعي ناهضاً.. نهضتُ.. احتضنَني حتى أفقتُ مِن غيبوبتي.. اعتذر لي عن اقتحام خلوتي.. مادَّاً بثيابٍ جديدة:

- مُرسلة لك مِن مولاتي الحرة.

- مولاتي؟

- نعم.. وأَمرَتْ أن اصطحابك إلى ذي جبلة.

كان ما يحدثني به مفاجأة.. نبض قلبي بسعادة.. متخيلاً وقد التقيتُ بكِ في ذي جبلة.. لكنني فجأة وجدتني أكابر وأرفض دعوته:

- لا أريد مفارقة صنعاء!

- هذهِ إرادة الحرة.. لا مناص لك!

- ولماذا أنا؟

- لترى ما يُراد منك ثم تستأذنها العودة.

- ألم ترَ الدكان ركاماً؟!

- رأيتُه.. و سأصل لِمَن فعل ذلك.

- كيف تصل؟

- اتركِ الأمرَ لي.. أنتَ مِن اليوم في عناية مولاتي.. ألا تفهم؟!

- عناية؟

- نعم.. ولك مكانتك.

لا أعرف لماذا كان يزداد عناد رفضي كلما كان يزداد تودده.

- لا أريد أي مكانة.

- الحانوت هُدم.

- قل لي.. أهُمُ الورَّاقون وقد ظنوا بك سوءاً؟

- يجوز.. لكني لا أتهم أحداً.

- هل فقدتَ غير الجدران؟

- أمانة المعلم.

- ألأمانة التي رفضتَ تسليمها لنا؟

- نعم.

- كلها؟

- لا أعرف كيف استدلوا عليها؟

- لا تقلق سأعرف الفاعل عاجلاً أم آجلا!

- وماذا بعد؟

- سأرغم الوراقين ببناء الحانوت بعد أن أجدع أنوفهم.

رددتُ مكابراً:

- لا أريد جدع أنف أحد.

كنتُ في صراعٍ مع نفسي.. في الوقت الذي كان يزيد مِن تصميمه.. خائفاً مِن أنْ يرضخ ويتركني.. لكنهَ أرسلَ عسكرَه لاقتيادي صباح يومِ الرحيل. والآن اعذريني سأكتفي بهذا.. أسمع وقع أقدامهن ومازال لديَّ الكثير لأقوله.. أستودعك.

طويتُ اللفافة على عجل.. متهيئاً لظهورهن.

-١٤-

وللمرة الثانية يتأخر ردها.. تمر الأسابيع دون رد!! تهاجمني أحاسيس الفقد.. الجأ إلى نافذتي الوحيدة.. أناجي فضاءً دامساً إلا من عيون السماء.. إلى تلك اللحظة حين تجاوب لعبث أصابعي أحد قضبانها.. شغلتني حالته.. اهتزَّ قلبي أملاً.. أخذتُ أبرمُه يميناً وشمالاً حتى استجاب أحد طرفيه.. سحبتُه.. أقلِّبُ ذلك القضيب بين يديّ.. ليُفتح أمامي متسعٌ يكفي لعبور جسمي. أسألُ نفسي كيف حدثَ ذلك؟! كانت أمامي هاوية مظلمة.. جدلتُ ما استطعت جدله مِن الأغطية.. تسحبتُ بين القضبان.. أمسيتُ خارج المبنى متدلياً.. لم أجد

لأقدامي موطأ نتوءٍ صخري.. وقفتُ للحظات أتلمس عل قدمي تجد حواف.. بعد جهد عدت متسلِّقاً في ذعر إلى حجرتي.. سحبتُ الجدائل.. أعدتُ القضيبَ إلى مكانه خوفاً.. غير مصدق ما أنا فيه.

لم أنم لعدة ليال.. باحثاً عمَّا يمكن أن يصلني أسفل الجرف.. أعدتُ المحاولة.. متشبثاً بشقوق الجدار.. أرتعش خوف الانزلاق.. لم أجد ما يمكن السير عليه.. ظلامٌ صاخب.. غموضٌ مهيب.. قضيتُ شطراً مِن لياليَّ أحاول اكتشاف المكان.. ثم توقفتُ أدراجي.

ليلةً بعد أخرى أدركتُ أنَّ عليَّ إيجاد حبلٍ أطول يصلني أسفل الجرف.. صرفتُ النظر حتى أجد حبلاً.

يبهرني اكتمال القمر.. يدعوني للحلم وسط سناه الذي أضفى عليَّ شعوراً بالأمان والسكينة.. أتابع أطواره من خلف نافذتي.. أفكر في طريقة لإيجاد موطئٍ لقدمي خارج تلك النافذة.. أحلم بالتجوال ليلاً باحثاً عن باب يمكنُني مِن الدخول إلى قاعات القصر.

-١٥-

ألتصق بقضبان النافذة متابعاً رحلة القمر.. ليلة بعد أخرى أتابع تغيرات أطواره.. يُنسيني ما حولي.. لحظات ملامسة شفاه الجبال العالية.. ليالي اكتماله.. خُيِّلَ إليَّ هبوطه.. في البدء ظننتني بين الصحو والمنام حين زاد دنوه.. واتسع بهاؤه.. يدنو ويدنو حتى انفصال نقاط بيضاء صغيرة عنه.. اقتربتْ تلك النقاط فوق سماء الغابة.. كانت لخيول مجنحة - أو هكذا تصورت ذلك- تهبط أكثر فأكثر لأراها برؤوس وأعناق صبايا فاتنات.. حُمن أمام النافذة.. سكنتْ جميع جوارحي رهبةً وخوفاً.. تقدمتْ إحداهن حتى لامسَتْ قضبان النافذة.. عيناها مرايا لليلٍ مُبهَمٍ.. تسللتُ.. مددتُ كفي أمسكُ بشعرها.. كتمتُ أنفاسي متوجساً.. اعتليت صهوتها.. إحساس بالطفو فوق فضاءٍ شذي.. يتطاير شعرها.. علت بي لأرى ظلال القصر تلتصق به الدور الملحقة.. الغابة والأودية وجبالاً اتشحت بزرقة ساحرة.. طفونا عالياً.. لأرى بحراً مِن النجوم.. زادت رهبتي للحظات سماع وقع أقدام وهمهمة آدمية.. ما لبث أن ظهر رجلٌ مديد القامة له سيماء الجلال والمهابة.. اعتلى وسائد من سحب.. وقف حوله خليط من غلمان وجوارٍ حِسان.. اعتلتْ إحداهُن وسائده وأخذتْ تتلو ما يشبه الموعظة بكلمات غير مفهومة ليجهش باكياً.. تبعه نحيب مَن حوله.. ثم أشار عليها أن توَم الصلاة.. وقفَتْ إماماً للجميع حتى كائنات القمر.. قرأتْ هي تراتيل خليطاً مِن لغات شتى.. سجد الجميع لها.ثم قام فينا خطيباً منتحباً كأنه الرعد القاصف.. ربَّتَ على رؤوس الجميع حتى جاء دوري.. أطال النظر إلى وشم كفي.. كنت أتأمل وجهاً مستطيلاً مشوباً بحمرة.. عينين واسعتين وفماً يلتهم شفتيه.. خرجَتْ مَن أمَّتْهُم في الصلاة متقدمةً نحوه.. بيدها نصلٌ مضيءٌ دَّستْهُ بهدوءٍ في صدره.. ابتسمَ ماسحاً وجهَها. لم أقوَ على تحريك لساني.. التفتَ إليَّ وأشار أنْ أصمت.. ثم مضت هي تحمله بعيداً.. لتعود بي تلك النقاط البيضاء المجنحة حتى وجدتُ نفسي على فراشي.

صباح اليوم التالي جلستُ إلى ذي الساق الخشبية أحدثه عن رؤياي.. حكيتُ له حتى النهاية.. لم يهتم إلا بأمر ذلك الرجل الطويل الملتهم شفتيه.. سألني متعجباً:

- أتعرف سيدي المكرم..أو قابلته يوما؟

- أبداً.. لماذا؟

- تصفه كما لو كنت تعرفه.

- غريب!

- أن تؤمكم إحدى الجواري.. وتسجدون لها.. ثم تدمع عيناه.. هذه رؤيا تخيفني.

تركني و أقفل الباب كئيباً.. يتمتم بصوتٍ واخزٍ مريب.. استبد بي الإحباط.. في الوقت الذي قطعت الأمل بعودة لفافتها بعد شهورٍ طويلة مِن الانتظار.. لتعود دون مقدمات.. تماسكتُ حتى لا يلحظن.. غير مُصدِّقٍ أنَّها بين يديَّ.

"عناية الله وحكمته هي ملجئي والمنتهى.. عليه التوكل وإليه نصدق النيات بصالح الأعمال.

لم يكن لي إلا أن أفكر قبل أن أعاود الكتابة إليك خوفاً.. وحقك أن تتقاذفك الهواجس والشكوك.. لأنك في منأى عمَّا يدور بداخل القصر.. أمسى الموت ينام ويصحو معي.. فقبل أشهر وُجِدتْ إحدى جواري القصر على فراشها وقد أسلمتِ الروح.. بعد رؤيتها ممددة ظننتها تغط في نوم عميق.. لا يبدو عليها آثار الموت.. بعدها انسحبتُ إلى سطح القصر كسيرة.. قضيت ليلتي دامعة.. لا أعرف لماذا هذه المرة شعرتُ بكسر.. مع أنَّ الموت يجالسنا دوماً.. موت هذه الجارية ذكرني بموت مماثل أثناء رحلتنا من صنعاء إلى ذي جبلة قبل سنوات.. ذلك الموت مازال ماثلاً أمامي.. كان ذلك في حمَّام قبائل آنس.. حين وُجِدتْ عددٌ مِن الجواري في حوض المياه.. تجمعنا لنراهن يطفون وسط بخار متصاعد.. ذلك المنظر انبعثَ بكل تفاصيله هنا.

وأعود لأحكي لكَ حكاية جواري حمام آنس.. بداية خيوط حكايتي منذ عزمَتْ مولاتي الحرة الرحيل مِن صنعاء تطبيقاً لإحدى وصايا الملكة أسماء.. بدايةً بالوصية الرئيسة للوصايا: "أنْ تضعي غاية تعيشين مِن أجلها.. على أن تخطي طريقاً لتحقيقها على مراحل.. خطوة بعد أخرى.. والسلطان أجل الغايات" تلك الوصايا التي أورثتها الملكة أسماءُ للحرة سيدة.. تدعوها لمواصلة السير على طريقٍ بدأَتْه هي.. وبدورها كانت مولاتي الحرة وفية للراحلة.. نادرة حياتها لما يمكن إسعاد روحها.. فكثيراً ما كانت تناجيها في صلواتها وخلوتها حتى يظن مَن يسمعها بأنها تُحضِّر روحَها.. وكثيراً ما تؤمنا في صلوات تهديها إلى روحها.. نناجي طيفها ندعوها لعوننا ومناصرتنا.. وذلك في دورات محسوبة.

أنتَ تعرف أنَّ ما يُعلَن ويُشاع بين العوام غير ما يدور داخل جدران القصر.. فضمن الصراع بين الملك وزوجته الحرة سيدة أشاعت الحرة أنَّ الملك قد فوضها كمساعدة له

على إدارة سلطانه بعد وفاة والدته.. وتلك الشائعات أشاعتها تطبيقاً للوصية: "مِن أمضى الأسلحة الشائعات.. فعليك التمهيد قبل أن تقدمي على أي عمل بتمهيد طريق التنفيذ بالشائعات بين الخواص والعوام".

وقد أعقبت الحرة ذلك بتوزيع العطايا على خطباء المساجد.. ولم يمضِ وقتٌ حتى كان اسمها يُتلى على منابر مساجد صنعاء والمدن الأخرى.. ليعاملها الجميع كملكة.. يلجئون إليها في أمور كثيرة.. كما بسطت يدها بالصدقات.. والإنفاق على توسعة المساجد.. وإنشاء محاسن مياه الشرب في أحياء صنعاء..

تبعت تلك الخطوة خطوة أخرى.. إهداء بعض جواريها باسم الملك إلى كبار أمراء حصون وقلاع البلاد بغرض أن يقمن برصد أخبار أولئك الأمراء وما يدور في إماراتهم: "اجعلي من ضعفك قوة.. فالأنثى أمضى سلاح على الرجال.. والعيون تُبصِّرُكِ كل ما يدور".. ما جعلها تعرف ما يفكر به كل أمير.. بل وتعرف ما يدور في مجالسهم.

وهكذا ظلتْ تخطو بثباتٍ يوماً بعد يوم لمزيد مِن السلطان. وظلتْ تُسلِّط عليه أجمل جواريها وأرق الغلمان تنفيذاً لإحدى الوصايا: "شهوات الحياة أمضى سلاح لإلهاء وإخضاع كلِ جبار وعزله" ولم يُدرك بأن روح والدته أسماء قد بُعِثَتْ في زوجته.. ليغرق ويبتعد رويداً رويداً عمَّا حوله.

وظلت تسير وصية بعد أخرى حتى أضحى سلطانُها يُقرَن بسلطان الملك. ثم أشاعتْ بأنَّ المُكرَّم مُصاب بمرضٍ عضال يشتد عليه بين يومٍ وآخر.. وأنَّ الحكماء نصحوه بالراحة لبعض الوقت.. والتخفيف من ضغوط المُلْك.. في الوقت الذي أصبح لديها عدد كبير من الجواري.. طوَّرت مِن تدريبهن وتعليمهن بما يخدم أغراضها.. وابتدعتْ نظاماً جديداً لتربيتهن على فنون الإغواء ورقَّة الطبع.. وتعلم فنون الأدب. كما اهتمت بمعارف ما يُعجب الرجال في الفراش.. محيطة ذلك النظام بسرية تامة.

-١٦-

أمسى المُكَّرم منصرفاً إلى ملذاته.. وإنْ عاودته نوباتُ صحوٍ محاولاً استعادة سلطانه.. لكنها سريعاً ما تعيده إلى الظل.

أخذ أمراء البلاد يتعودون الخضعوع لسلطانها.. عدا السلطان سبأ بن أحمد الصليحي سلطان حصن أشيح الذي ظل يقاوم.. بل وأخذ بتحريض قادة بعض القلاع والحصون.. ما مثّلَ قلقاً دائماً لها.

والسلطان سبأ الصليحي.. من أفضل قادة الملك المكرم.. وهو ابن عمه وله الفضل بإخضاع أنحاءِ واسعة من جزيرة اليمن.. وقد أعلنَ المَلِك في أكثر مِن مناسبة أنه خليفته بعد موته.. وأنَّه الوصي على زوجته وأولاده بعد رحيله إلى جوار ربه.

الحرة سيدة كانت تعمل جاهدة لإخضاعه لكنه ظل عصيَّاً.. لتجد نفسها تلجأ للوصايا السرية: "إذا ضاق عليكِ الخناق.. ولم تجدي علاجاً لحائلٍ يقف بينكِ وبين المُضيِّ في تحقيق غايتِكِ.. سارعي لإزالته.. أو بتغيير مقر سلطانِك.. ولنا في رسول الهُدى أسوةً

حسنة.. لتنطلقي في مَدِّ سلطانِكِ مِن موقعٍ يخصكِ". أدركَتْ بأنها لا تستطيع التخلص منه.. ولذلك أخذتْ تقلب الأفكار حول تغييرِ مركز سلطانها.. مستعرضةً أنحاء جزيرة اليمن.. مفضلةً اليمن الأسفل.

أطلقت شائعة تعتمد على سلسة شائعات سبق إطلاقها.. مفادها استفحال مرض الملك.. وأنَّ الحكماء أمروا بنقله إلى منطقة دافئة بعيداً عن برد الجبال العالية.. ثم أخذتْ تعد العدة لإخراج تلك الفكرة في صورة مقبولة.. فوجَّهتْ الدعوة باسم الملك إلى أمراء وقادة حصون وقلاع اليمن.. ولا يعرف أحد أن الملك مُغيَّب.. وكان أول مَن وصل أمراء قلاع الجبال العالية شاهرين سيوفهم ورماحهم.. طالبين العطايا.. مقدمين أنفسهم لمحاربة أعدائه.. أعقبهم وصول وجهاء عدة مناطق.. كان آخرهم أمراء وقادة مناطق بلاد اليمن الأسفل.. الذين أتوا حاملين هداياهم من جرار العسل والسمن.. يجرون دوابهم المحملة بالبن والحبوب.. لتختتم شائعاتها بأنَّ المَلِك استشار زوجته الحرة سيدة فأشارتْ عليه بالقول: "العيش بين سكان اليمن الأسفل أفضل.. لأنَّ ذلك أقر للمملكة وثبوت قواعدها.. وأسهل جانباً في مصادر الأمور ومواردها.. وهي متوسطة بين اليمن الأعلى والأسفل.. وبها يخصب العيش ويطيب المحل.. ولكرم أهلها".

وهكذا انطلقت الأخبار حول نية الملك المكرم الرحيل جنوبا.

بدورها أقنعت الملك أن يخرجا في رحلة استشفاء إلى حمَّام بلاد آنس لعدة أيام ومن ثم يعودا صنعاء. لم يكن يدرك بأنها ستذهب به بعيداً ولن يعود صنعاء إلَّا ليُدفن فيها.. وبالفعل وصلنا وادي الحَمَّام وقضينا عدة أيام.. ليستمر الركْبُ بالتوجه جنوباً.. مُخلِّفاً جُثَثَ مجموعةٍ من جوارٍ تطفو على وجه بِرك المياه الساخنة.. أُشيع بأنَّ الوفاة كانتْ غرقاً لعدم إجادتهن السباحة.. إلَّا أنَّ الحقيقة كانت عكس ذلك.. فقد حاولن تنبيه الملك لما يدور مِن حوله.. وقبل أن يصله الخبر كانت أرواحهن قد صعدت لعلِّيين.

كان ذلك تحذيراً لمَن تفكر بالشذوذ عن طاعتها.. تلك الحادثة تركتْ لدى جميع الجواري رُعباً كامنا.. ولذلك ذكَّرني موت جارية الأمس القريب بتلك الجواري.. فقد تعودنا داخل القصر اختفاء بعض الجواري بين فينةٍ وأخرى.. نتيجة زلة أو وشايةٍ.. إذ أنَّ مولاتي لم تخصص حبساً لمَن يُخطئنَ.. ورأتْ أنَّ الموت أهون عقاب.. لذلك أُصبتُ بشعورٍ مرير لقتل تلك الجارية التي كان خطأها الإخلاص.. فقد أخبرت الحرة سيدة بأن زوجها ينوي الغدر بها.. لتصعد روحها إلى سموات العُلى.. لم أستطع بعدها أن أرفع ناظري في وجه مولاتي.. خلالها كنتُ أحاول الخروج مِن خوفي في أنْ لا نجد مَن يحزن علينا.. أو يفتقدنا.. فهل عذرتَ قلباً منشغلاً بكَ؟ أتركك في رعاية خالق السموات والأرض رب الثقلين".

-١٧-

كتبتُ إليها جواباً قصيراً.. كنتُ راكعاً أمام أحد وجوهها أنادمها بدلاً عن ذي الساق: لستُ متأكداً ممَّا ذكرتِ.. وغير مستوعب كل تلك الحكايات التي تسردينها في رسائلك.. لكن ما

يهمني هو أنتِ.. وإن كان فهي حياة يجب أن نعيش لحظاتها.. ونُقبل عليها..فإذا كنت تهجرين الحياة.. فماذا أقول وأنا حبيس داري منذ وفدتُ إلى ذي جبلة؟ دعينا من مبررات تأخير ردكِ.. ها أنا ذا أذكّرك بأسئلتي: لماذا لا تجيبين على ما أطرح من أسئلة؟ ألا تكفي كل تلك الأحداث التي كررتُ ذكرها؟ ولا أعرف لماذا تحبين الإمعان في الذهاب بعيداً؟ وكأنَّ ما كتبتُه إليكِ لا يعنيكِ.. فإلى متى تسوفين عن لقيانا؟ ولماذا تفضلين تلك الحكايات المميتة؟ أكرر دعوتي أن تتوقفي عن الكتابة وأن نلتقي مرة واحدة.. لأنظر في عينيك.. وتسمعي نبض إيماني.. لنرى ما يكون من غدنا.. فهل تمنحيني فرصة واحدة؟ مللتُ مِن الرسائل ومِن مبررات تهربك.. سأنتظر تحديد الزمان والمكان.. وأُسِرُّكِ لقد وجدت طريقة للخروج من محبسي.. أنا في انتظاركِ لتحددي.

انتظرتُ ردَّها.. ويبدو أنَّها لن تبعثَ بأيِّ رسالةٍ إلا بعد أن تجد مبررات تأخرها.. هي لا تعلم مقدار حاجتي إليها.. ولا تعي ما تعنيه تلك السطور القليلة التي تبعثها.. وأنها تمثل لي حياة في محبسي الغريب.

لجأتُ راكعاً إلى أوجهها الجدارية.. لمحتُها تُحرّكُ كفيها.. صمتُّ أنتظر صوتها.. أنسالت ابتسامة فمها الصغير.. صوتها المميز.. فردتُ لفافتها لأقرأ: "بدايةً أُسمّي على الرب العظيم وأُصلِّي وأسلِّم على رسوله الكريم.. وآله الطيبين الطاهرين.. وأجزم بأنك تعيش وهماً كبيراً.. وأخاف أن يقودك إلى الجنون.. فما يهمك من أكون؟ اكتبْ كما يكتب العاشق وكفى.. دعْ قلبك يقودك بعيدا عن أوهامك.. منذ تلقيتُ أول جواب وأنت تنوح وتتذمر كثكلى.. أدعوكَ لأنْ تسكن أضلُعَي فتفضل الشكوى.. فلتعلمْ أني نبذتُ كل مَن في القصر وسكنتُ إليكَ.. كف عن تذمرك وابتعد عن التشاؤم.. أخاف عليك أن تدمن التعاسة! أن تشكوني إلى نفسي.. وتتهمني بالذهاب بعيداً في حديثي إليكَ.. حين أكتبُ إليكَ أشعر بأني أكتب إلى صخر.. كم أخبرتكَ أنَّ الموت يتربص بي في كل وقت.. وأننا نعايش

ذلك الكائن المجهول الذي يجول في أنحاء القصر ولا ندركه إلا بضحاياه.. ولا نعرف من التالية.. وأنت تفضل التذمر والشكوى.

وإمعانا في علاجك سأذهب بكَ قليلاً لأحدثكَ عن بعض الصراع الذي يحتدم حولنا.. تلك العلاقة بين الملك وزوجته حتى ترى ذلك الجحيم الذي يعيش بنا.. فبعد استقرارنا في ذي جبلة استمرّتْ الملكة ترفض دخول جناح الملك كما كانت منذ سنوات في صنعاء.. إلى إحدى الليالي حين خرج المُكرَّم طالباً زوجته إلى مخدعه.. بدا طلبُه غريباً.. وقف كل مَن في القاعة في صمتٍ وترقُّب.. مولاتي تنظر إليه مبهوتة كما لو أخطأ في حقها.. تنقل ناظريها بينه وبين مَن حولها مِن جوارٍ وغلمان.. لترفع صوتها غاضبة مستهجنة:

- إنَّ المرأة التي تُراد للفراش لا تصلح لتدبير أمور السلطان.. فدعني وما أنا بصدده.

كمن تيقن مِن وساوس تراوده.. اقتربَ منها هامساً بتهكُّم:

- أيعقل أنْ تعيش امرأةٌ كل هذه السنوات بعيداً عن متعِ الفراش؟! وأنا مَن خبرتُ مباهج فراشك.

علا صوتُها أكثر.. مستنكرةً ما يرمي إليه:

- أنا غير كل النساء.

رد ساخراً وهو يلوح بيده:

- لا يمكن ذلك حتى للبتول مريم!

ثم أخذ يحجل حولها بتهكم.. وبصوت حازم: إياكِ والاعتقاد بأنكِ وصلتِ إلى ما وصلتِ إليه مِن سلطان دون رضا مني.. اعلمي أنكِ في نهاية الأمر زوجة الملك.. وهذه الليلة آن لكِ أن تمضي إلى فراشي صاغرةً وإلا فستفقدين كل شيء.

لم ترد عليه.. تركته ومضت مبتعدة صوب جناحها.. بينما وقف ثائراً مِن جديد مُتَّهِمَاً إيّاها بعصيانه.. آمِراً غلمانه وجواريه بسحبها وإيداعها إحدى الدور المتصلة بالقصر وإحكام الحراسة عليها.

خيّمَ الذعرُ في أرجاء القصر بعد أنْ أمست الحرة تحت غضب الملك.. استعاد هيبته وأحكم سيطرته.. لكن لم يدم حبسها غير عدة أيام.. خرجتْ بفضل دهاء جواريها.. ولم ينتهِ الأمر بخروجها.. بل انقلب الأمر وأمسى الملك محجوزاً بحراسة جواريها في جناحه.

اختفى جميع مَن وقفَ في صف الملك من جوارٍ وغلمان.. عقاباً لتواطؤ أو إهمال أو خيانة بيّنة.

أحدثكَ عن حقيقة يجهلها جميع مَن خارج القصر.. وأكثر الجواري داخل القصر أيضاً.

لم تكتفِ مولاتي بحجز الملك في جناحه وعزله عن الحياة.. بل رتبت لنقله ونفيه إلى حصن جبل التعكر.. وقد حدث ذلك في الأيام الأولى لوصولكَ ذي جبلة.. وبذلك ظل حبيساً حتى رحيله.. وكالعادة: "الحكماء نصحو الملك بقضاء أشهر الصيف أعلى حصن التعكَر لاعتدال جوه بعد أن أشتد المرض عليه" كما أشاعت: "الملك فوض الملكة الحرة سيدة قبل صعوده تفويضاً كاملاً بأمور الدولة حتى يعود" ومن ذلك اليوم أصبحَ يُطلَق عليها صفة ملكة قبل أسمها: الملكة الحرة سيدة.

في ذلك الصباح أخرجت هودجه المزين كأروع ما يكون.. بينما كانت هي تتابع الموكب بعيون دامعة.. تحيطه الخيالات من جواريها.. لمنع أيٍّ كان الاقتراب منه لحالته المرضية. اخترقوا أحراش الغابة حتى أعلى الجبل المطل على جبلة.

ليبدأ عهدٌ جديدٌ في ذي جبلة.. أخرجتْ بقايا حراسه وغلمانه من القصر وأسكنتهم دار طرفية.. مكلفة مِن جواريها مَن تحرس الأبراج.. ولم يعد من رجل داخل القصر.. ليصبح قصر العز بذي جبلة قصراً للجواري.. ولتعيد توزيعه وترتيبه.. بحيث خصصت الأدوار العلوية لها ولولديها علي ومحمد.. وما تبقى مِن أدوار لجواريها.

كما خصصت القاعات الكبرى للصلوات والدروس والتدريب.. وأخر لمنامات الجواري.. وهكذا بقية الأدوار وملاحقه المختلفة.. موزعةً أوقاتها بين الإشراف على تعليم وتهذيب الجواري واستقبال الرسائل وتحليلها.. والرد على ما يجب الرد عليه.

تحضر قاعة الدروس الليلية لتلقي درسها.. تُكرِّر "أنَّ شرف الجارية يتركز في طاعتها لمشيئة سيدتها.. وأن سيدتها بمثابة ربها الأدنى.. وغير كل نساء الدنيا.. فجميع النساء يعشن دون هدف.. أما جواري ذي جبلة فيعشن بهدف عبادة الله.. وترسيخ الحق المتمثل في شريعته وسنة رسوله الكريم.. وخدمة أولي الأمر وحماية جزيرة اليمن".

وكثيراً ما تردد في درسها أنَّ النساء أعلى مكانة بما خصهن الله مِن خصائص العطاء.. وهكذا تنهي دروسها بإقامة الصلوات الطويلة.. ودوماً تحرص على التذكير بأوامر الله في ما يخص الطاعة".

لا أعرف كم مضى من الوقت أستمع فارداً بين يديها لفافتها.. كنتُ بين الصحو والمنام.. فكلما حاولتُ مقاطعتها ترفع كفها متحدثة.. تسير بي بعيداً لتختم كلامها بدعوتي لأنْ أعيش اللحظة.. لأنَّ الحياة لحظات. أبتسم وأعلم بأنها استعارت تلك الجملة مني!

نهضتُ وقد تلاشى صوتها.. وأوجهها على الجدار دون حركة.. لكنها تركتْ باب الأمل مشرعاً.. وقد كررتْ كلمات المودة وعبرتْ عن عاطفتها في كلمات قليلة: "أن تعي بأني أودك وأخاف عليك وأتوق يوماً أن يجمعنا الله في حياة هانئة".

تلك الكلمات أنستني كثيراً من حنقي.. إلا أنَّ ما يحيرني أن رسائلها تنحصر بداخل الجدران.. في الوقت الذي كنتُ أنتظر أن شيئاً من حكاياتها خارج الجدران.. أو أنها تعرف بأنها ستفضح نفسها.. وتتضح كينونتها.

لم أعد أفرق بين رسائلها وتلك اللحظات التي أستمع إليها راكعاً في غرفتها.. خاصة حين يُغلق عليَّ ذو الساق بابَه مغاضباً.. ولا يعرف بأنها قد فتحت لي نافذة أخرى أطل منها.

-١٨-

دعيني وقناعتي.. سأحدثكِ بحديث الوجوه.. فبعد أن تعودتُ على حكاياتكِ لاحظتُ بأن كائنات ذي جبلة متعددة الوجوه.. بل إن حكاياتكِ تجعلني أرى تلك الجدران بأكثر من وجه.. وأن عذابي ليس أكثر مما تعانيه أنتِ.. وبذلك تزداد قناعتي أن العاشق شهيدٌ حي وروحٌ لا تموت.. قد يهمني مصير مَن ذكرتِ من جوارٍ وعسكر.. من انتهت حياتهم لمجرد زلة أو وشاية.. فتلك الحكايات التي تطرحينها تزيدني رغبة بالحياة.. وما أعيشه مِن وحدة وعذاب يهون أمام أن أعيش وقد تغيرتْ ذاتي.

وحدتي هذه جعلتني أفكر فيما نعيشه.. ولم أعد أستغرب لتعدد الأشياء في ذاتها.. أشياء كثيرة وليس فيك فقط.. فكثيراً ما قرأنا في القرآن أنَّ لله أسماءً وأوجهاً عدة.. وحين تقرئين التوراة ترين مقدار التناقض.. وهكذا أرى لمولاتي الحرة من خلال ما ذكرتِ أكثر

من وجه وتلك نزعات ربوبية.. وعكستْ ذلك على محيطها.. فلو حدّثَ أحدُنا عوام الناس عن ماهية الملكة لقتلوه.. كما إنّ لمولاي المكرم أوجهاً تخصه.. ولذلك الشاعر القزم.. وللحارس ذي الساق.. لكل شيء هنا أكثر من وجه وأكثر من اسم.. حتى إنّ الكائن لا يستوعب نفسه.

يظل أملي أن نفر مِن هذا العبث.. ستسمعينني وأسمعكِ كثيراً.. أنْ نستعيد أنفسنا.. لا تهمني النتائج.. وأشغل نفسي بالغد.. فهذا أنا وقد وجدت أملاً بالفرار.. لكني لن أهرب دونكِ فأنتِ قبلتي.

توالت الصباحات دون أن تعود لفافتها.. كرَّت الشهور دون أمل.. جالستني حيرة قبيحة.. قد تكون أسوأ حيرة عرفتُها.. هل أكون أسأتُ دون إدراكٍ مني فخاصمتني؟ حاولت تذكُر صوتها.

فكّرتُ باللجوء لذي الساق.. أحاول كسب وده.. أن أستغل ثرثرته الصباحية.. لا أعرف إن كنتُ أعيش الوهم أم هي الحقيقة؟ كنتُ أخاف الإيقاع بي مرة أخرى.. فدوماً يتربص وينشر شراك ثرثراتي.. لكني أخفي وجوهي.. لا يمكن أن أسمح له باكتشافها. ذلك اليوم كنت أضحك بشكل متواصل.. لا أعرف ماذا أفعل.. أسرعَ غاضباً وأقفلَ بابه ورحل.. حين جلسنا صباح اليوم التالي رفضتُ مشاركته قاته ودخانه فقال لي جادّاً: الناس يدخنون ويمضغون القات من أجل المنادمة.. لا الضحك المتواصل. لحظتها أدركتُ بأنه يحمل المكر في عينيه وإنْ أجاد إرسال كلماته بشكلٍ جاد. وزدتُ مِن يومها حرصي.. فقد حدَّستُ بأنَّ أغصان القات وإشراكي في دخانه لم تكن بنية نقية.

في الصباح التالي سألته إن كان من حدثٍ قد حصل خلف الجدران.. أو أنَّ جاريةً قد ماتت؟ فرد ساخراً: كيف تبحث عن إجابةٍ ورسائل الملكة بين يديك؟!

أفحمني.. لكني واظبتُ الجلوس مستمعاً إليه.. أشاركه مضغ أغصان قاته.. دخان يراعه.. أتحايل على طرح سؤال وأخشى أن يثير حفيظته.. أتراجع خوفاً.. كنت أحاول أن أنجح بأي خبر عنها.. أستمرئ حكايات يعرف أنني أختلقها.. وأدعي زوراً بأنها حكاياتي.. لكنه يبتعد بحديثه. نضحك كثيراً لحكايات يتمنى كل منا لو عاشها.. يسألني أن أقسم بصدق ما أحكيه حين تعجبه إحداها.. فأضحك كثيراً.. وأطلب منه أن يقسم هو الآخر.. ينظر إليَّ هازاً رأسه ثم يفتح فمه المليء بنثارة القات.. يضحك عالياً. صباحاً بعد آخر أحاول تجاوز شرنقة القلق.. أن أصل إلى خبر يشفي قلبي.. أن يحدثني عما يعرفه خلف الجدران.. عن حياة الجواري.. أبحث عما يدفعه للحديث إليَّ بصدق.. أن أصل إلى ما يدلني على سبب توقف رسائلها لما يقارب السنة؟!. ألوم نفسي لعجز حيلتي في استدراجه للحديث.

إلى ذلك الصباح حين فكرتُ باليامي.. تجرأتُ وسألته أنْ يصول إليه رسالتي.. تأملني مبتسماً

وقال: عملي هو فتح بابك وإغلاقه.. لا علاقة لي بأحد ولا بالقزم مستشار الملكة.. أقسم بأني أصدقك القول أن كل شيء مرصود.

زاد خوفي.. ومِن جانب آخر أضاء لي غموضاً.. ليبرز سؤال اللحظة: لماذا كل هذا؟ لقد أقسم.

في وهدة إحدى الليالي فُتِحَ البابُ العلوي في غير موعده.. لم يكن قد فُتح ليلاً قط.. اضطربَ نبضي واستنتجتُ أنَّ في الأمر ما يُخيف.. ضوء جعلني أراهن يهبطن بجلبتهن.. قالت إحداهن: تأمرك مولاتي سرعة إنجاز هذه الرسالة.. مادة إليَّ برقاقة.. قلبتها آخذاً بقراءتها: "بسم الله الرحمن الرحيم والحمدلله القديم القدير الرحمن الرحيم المبدء البديع القوي الرفيع الفرد الأحد العزيز الصمد الذي جَلَّ أن تدركه الظنون.. وعلى أن يبلغ أدنى صفاته الواصفون بالإلوهية لنفسه وملائكته المقربين.. مبطل دعوة المشركين.. بقوله الذي عجز عن الإتيان بمثله القائلون (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون) قاصم كل جبار عنيد وقامع كل شيطان مريد وبالغ كل ذي أيد شديد.. الذي لم يبتلِ أولياءَه بما ابتلاهم تعنتاً ولا هضماً بل اختباراً.. وإن كان قد أحاط بكل شيء علماً ووسع أعداء دينه أناةً وحلماً.. ليرتكبوا بالاستدراج حوباً وإثماً.. كما قال جل وعلا تباركت أسماؤه: (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما) وسلام الله وصلواته وبركاته الطيبات وتحياته على ينبوع العلم والحكمة وولي الإحسان والنعمة.. ووارث الأنبياء والأئمة.. المفترض طاعته على الأمة.. باب العصمة المقصود.. ومنهل الرحمة المورود.. ومطلب الفوز الموجود.. ومعدن الفضل والجود.. وحبل النجاة الممدود.. وسدر الهداية المخضود.. وبيته الذي أوحى فيه إلى والد ومولود.. سيدنا أمير المؤمنين المستنصر بالله رب العالمين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين معالم الإيمان ومعادن البيان.. المملوكة تناجي حضرة الإمامة وتناهي سدة الخلافة جعل الله عزهما باقياً على الأيام.. وتنعي إليكم الأجل الأوحد المنصور العادل المكرم عمدة الخلافة تاج الدولة سيف الإمام المظفر في الدين.. متوسلة تنصيب ابنه عليَّاً خلفاً لأبيه...".

عدتُ أقلب وجهي في وجوههن صامتاً.. أعقبتْ إحداهن: كما أمرتنا ألا نبرح حتى نعود بها.

فتح ذو الساق الباب في موعده صباحاً.. استغرب صمتي وانطفاء وهج عيوني:

- حين تعود لجمودك أتصور ملامح وجهك قبيحة.. أتوسل لا تفعل.

- ألم تعلم بموت الملك؟

- موت الملك؟!

رفع صوته غاضباً.. طالباً مني أن أصنع ما أردتُ دون تجاوز المقامات.. ثم أقفل الباب بعنف. كنت في ترقب لضوضاء عزرائيل. النهار يمر دون ضجيجه. لعدة صباحات يفتح الباب.. يضع قصعة الطعام ثم يمضي مخاصماً.. حتى جواري البريد لم يهبطن بعد تلك الليلة.. تراكمت حيرتي.

مضت ليالٍ كثيرة كدت أن أصاب بالجنون.. حتى سمعت طبول عزرائيل تدق.. وضجيج حضوره المرتق بنحيب صارخ.. هبط بعدها عدد من الجواري.. وقفت إحداهن توزع مهامهن.. لنمضي ليال في نسخ رسائل عزاء رحيل المكرم إلى مختلف زوايا جزيرة اليمن.

زادني حيرة ما يدور.. كيف يموت الملك مرتين؟ لكني تأكدت هذه المرة بأن الموت قد حصل.. فتلك قمم الجبال تشتعل بنيرانها وأسطح القلاع والحصون.. تنقل أخبارها.

منذ رحيل الملك زاد ذو الساق هرماً.. يفتح الباب متجنباً مجالستي.. يمكث بعض الوقت صامتاً معانقاً يراعه.. ثم يقفل الباب في هدوء ويمضي.. حاولتُ تعزيته.. لكنه كان جلفاً.. يفتح الباب فأظل على دكتي أراقبه حتى يقفله.

حل بي بعض الحزن.. ليس على رحيل الملك.. لكن لشعوري بحزنه.. معاتباً الأقدار وعبثها.

مضت الأيام.. أنستني تلك الأحداث التفكير بشوذب وعدم ظهور لفافتها.. ليستقر يقيني بأنها قد تكون دفعت ثمن زلة. وليلة بعد ليلة بدأت فكرة الهروب تراودني.. أن أتسلل خارج تلك النافذة.. ثم يثنيني خوف السقوط في ذلك الجرف.. بدأت بعمل جدائل طويلة من أغطيتي.. بعد أن مزقتها إلى شرائح طويلة. وقبل أن أقدم على الرحيل.. رأت عيناي ما لم أصدقه.. غمرتني رعشة لذيذة.. ضبطت نفسي.. لم أتماسك من الفرحة.. ما إن انصرفن حتى تركتُ لدمعي أن يفيض.

" شكري لمولى النعم.. من له الفضل عظيم الشأن ربي خالق الأكوان.. وحُبّاً في النبي الأمي ولد عدنان.. وصلاة على آله الأطهار وأئمته الأخيار.

سلام عليك من قلب مزقه الوجد وأضناه البعاد.

لا أعرف من أين أبدأ بعد غياب طال؟ أحملك معي وأذكر الله وأدعوه ألا يميت ودك.. وأحلف بالعظيم بأني كنت أموت خوفاً من أن تكتب إليَّ فتقع رسالتك بين أيديهن.. أو أن تعييك الحيلة فترتكب خطأ يكون فيه نهايتنا.. وظللت أترقب وأتوجس إلى أن عدتُ من غيبتي لأكتب لك في أمان.

أحسستُ عذابك حتى أنه ينام ويصحو معي.. بل إني جلست إلى نفسي في كثير من المرات أفكر كيف أهرب إليك وأنت حبيس دارك؟! وعليك أن تعلم بأن سبب انقطاعي هو أمر الملكة بصعودنا حصن التعكَر بعد نقل الملك بفترة.. وهو الغارق في ملذات لا تنتهي.. إلى أن فاجأنا ذات مساء برفضه كل ما يُقدَّم له.. طارداً جميع الجواري والغلمان من مجلسه.. ليقضي جل وقته في الصلوات.. ثم زاد تحوله بالصيام أكثر أيام الأسبوع. أصابت تلك الأخبار الملكة بالحيرة.. ثم تطور الأمر إلى أن أخذ يبعث برسائله لبعض قادة الحصون ومنهم أبو حمير سبأ الصليحي سلطان حصن أشيح. وهو ما كانت تخشاه الملكة.. فقد كان سبأ يتحين الفرصة لسلبها سلطانها.

طلبت مستشارها القزم اليامي.. ليشير عليها بسرعة إرسال مجموعة من جواريها المقاتلات إلى الحصن.. ليدور قتال عنيف بينهن وحراسة البوابات.. انتصرت فيه الجواري على مَن كان متواطئاً مع الملك.

وعادت إلى أروقة الحصن وقاعاته سكونها إلا من زقزقة أعشاش العصافير.. كل شيء عاد لسكينته الممزوجة بوحشة مرعبة.. مولاي في حجرة مؤثثة بسجاد وفراش وثير.. نوافذ ما إن تُفْتح حتى تتمايل ستائرها لصوت الريح.. بعد محاولته مراسلة الأمراء أقمنا على خدمته لأشهر.. لكنه كان يتصرف كما لو أنّا غير موجودات.. يقضي أوقاته في الصلاة وتلاوة القرآن.. لا يتحدث إلى أحد.. إلى ذلك المساء حين جمعنا حوله وأخذ يحدثنا عما يجب فعله لإرضاء الله بطاعته وتنفيذ ما يأمرنا به.. طالباً منَّا القسم على كتاب الله بألّا نبوح لأي كائن بما يحدثنا.. وبدورنا أوصلنا ما دار للملكة.. لتسارع بإرسال حكيمها الذي أمرنا بالتهليل وبصوت جماعي.. وألا نتوقف طيلة الليل.. بينما كان عاكف على مداواته. وعجبي لطاعة الملك ظل ممداً دون حركة.. مضى الوقت وجدران الحصن تردد صدى أصواتنا.. رويداً رويداً أخذ وجهه بالانبعاج.. لترتجف ملامحه.. ويتشطر وجهه.. اتسعت إحدى عينيه بحمرة متجلطة وفم معوج.. ثم فقد النطق.. توقفت أطرافه عن الحركة.. ولم تنتهِ تلك الليلة حتى تحول إلى مسخ.

تسلل صوت مؤذن الفجر رقيقاً متعباً.. تخيلتُ الملكة في تلك اللحظات تطيل السجود وهي تتمتم ما يردده مؤذنها كعادتها.. حتى ينتهي لتجهش باكية.. متوسلة إلى الله أن يعينها في عبادته.. ثم تنهض.. تخطو.. ترهف السمع من على أحد نوافذ قصر العز المشرعة باتجاه جبل التعكر.. تنتظر إشارة غسق الفجر.

لحظتها رفع الحكيم عينيه إلينا كما لو كان مجذوباً.. مشيراً إلى إحدى الجواري بالبدء في تلاوة سورة ياسين والقرآن الحكيم.. لنردد بعدها بصوتٍ عالٍ.. ثم مضى بخطوات متوازنة خارج القاعة.

سافر نفير أبواق الحصن على خيوط الريح.. رددت صداها جبال صيد وحصون ريمان وحَبْ وخدد. ومع انتشار ألوان الضوء رُفعت رايات سوداء على أبراج الحصن.. كما ارتفعت رايات مماثلة على أسطح وأبراج قصر ذي جبلة.

لم يمر وقت حتى كانت الملكة بيننا.. يتبعها جيش جواريها.. وقفت إلى جوار الجثمان المسجي دامعة العينين.. مدت كفها تغمض جفنيه.. ظل نصف وجهه شاخصاً بتهتك مفجع.. وعينه المتجلطة تنظر الفراغ نازة قطرة دم.. عادت هابطة من حيث أتت.

ليهبط به بعد أيام قليلة جمعٌ غفيرٌ حول خيول تجر عربات مصندقة.. متحاشون هبوط ذي جبلة.. يسيرون باتجاه الجبال الشمالية نحو صنعاء.. ويقال أن الملكة الحرة سيدة هي مَن أمرت بدفنه بعيداً عن ذي جبلة.

تلك الليلة نامت ذي جبلة في سكينة وهدوء غريب.

كنت أحاول استقاء أخبارك.. وحين هبطنا زدتُ ربي شكراً بعد ان أدركتُ أنكَ لا زلتَ في محبسك تمارس النسخ.. وهذا أنت تعرف سبب غيابي.

أكرر الحمد لله على كرمه وجوده.. وأسألك: هل حاولتَ معرفة سبب انقطاعي؟ وهل كتبتَ شيئاً في غيابي واحتفظتَ به؟ هذه الشهور الطويلة علمتني الكثير.. علمتني أن حال الدنيا لا يستقر.. وأن علينا أن نلتزم الهدوء حين تدور بنا.. وأن نعايش الحذر دوماً.. وكما طلبتَ في رسائلك السابقة أن نلتقي.. أعدكَ بذلك.. وقد زاد إيماني بذلك.. فقط عليك بالصبر.. أستودعك حافظ السماء والأرض".

تعودتُ على انقطاع رسائلها وإذا بادرت فقد شذَّتْ.. وهكذا تشترك وذا الساق في محاصرتي. مضتْ صباحاتٌ كثيرة دون أن تعود لفافتها.. أردت أن أكسر ذلك الحصار.. ركعتُ وتوسلتُ أمام ساقه الخشبية ليعود.. قال بأني أحمل روحاً شريرة.. مُعلِّلاً أنَّ ذلك الحلم الذي قصصته عليه قد بشر بموت مولانا المُكرَّم.. وقال بأنه يخاف مني ويكرهني.

عاد ليدمن سرد حكاياتٍ بطولاتٍ أظنها لغيره.. لم تعد حكاياته تهمني بقدر ما كنت أجد نفسي بحاجة إليه. لتفاجئني لفافتها بعد أشهر:

"إنه الله مُقدِّر كل شيء.. نحمده على قدر جلال عظمته.. هو القدير اللطيف بعباده.. هو الخالق لكل ما في الكون.. وهو المُسيِّر.. واعلمْ أنَّ الرياح قد جرتْ عكس ما أشتهي.. في الوقت الذي كنتُ أبحث عن فرصة ألتقي بك أمرتْ مولاتي بانتقالي ومجموعة من الجواري بعد وصول وفد السلطان سبأ الصليحي مطالبين تنفيذ وصية الملك المكرم.. كنت أظنها أياماً وأعود للقصر.. لكنها طالتْ.

تعلم بعض ما يدور من خلال الرسائل.. لكنك لا تعلم أن الملكة كان يغيظها طالب السلطان سبأ مباشرة وصايته عليها وعلى أولادها قبل توليه الملك تنفيذاً لوصية الملك. لكن المفاجأة أن رسول الملكة إلى أمير المؤمنين كان قد غادر قبل موت الملك بأسابيع برسالة تعزية.. ليعود بعد موته بأيام حاملاً سجلاً يعزي فيه الصبي "علي" الذي لم يتجاوز الثانية عشر.. مُلقِّبَاً إيّاه بسليل الدعوة ونجلها.. مُنصِّباً إياه ملكاً خلفاً لوالده المكرم.. داعياً الجميع إلى طاعته ومساندته.. مُكلِّفاً الحرة والدته بالوصاية عليه.. ليسير مَن ينادي في الأسواق بما جاء: "وقد رأى أمير المؤمنين أن يصطنعكَ ويلحقكَ برتبة أبيك وينصبك منصبه ويرقى بك درجته.. وأقلدك النظر فيما كان أبوك تقلده من الدعوة الهادية والأحكام في سائر اليمن وسائر الأعمال المضافة إليه براً وبحراً وسهلاً ووعراً ونازحاً ودانياً وقريباً ونائياً".

وبهذا ودَّعتْ مولاتي وفد السلطان سبأ محملين بالعطايا وبمنسوخ من سجل أمير المؤمنين بتولية الملك علي.

لذلك غابت رسائلي عنك لأني كنت في خدمتهم.. وهذه أنا أعود.. وأكرر سنلتقي لأحدثك بما لا يُفضَّل كتابته. أقسم بخالق السموات والأرض بأني احترت في أمري.. فأي امرأة تسكب الود وأنت تجاهرها بالتكذيب.. دائماً أحاول أن أبرر كلما تردده في رسائلك كون الود ضرباً من الجنون ولا تنطبق عليه قياسات المنطق المعروفة.. ولذلك دوماً ما أفكر

في حالتك وحالتي. وكثيراً ما أتصورك ممسوساً.. أو أنكَ هازئٌ بما حولك وفيَّ.. أو مخلوق بائس تسكنه الأوهام ؟ لأعود فأشفق عليك ويزيد ودي أكثر.

وأعود فأسأل نفسي: مَن مِنَّا الممسوس والواهم أو الهازئ؟ وأصدقك القول أن حرفك وتلك النقوش البديعة جعلت ذهني يزيح كل تشوهات توحي بها رسائلك.. وأسأل نفسي على الدوام: أيعقل أن تكون تلك الروح التي تسكنه نقيض جمالٍ ما يصنعه يراعه؟ مَن يمتلك تلك القدرة المدهشة حد السحر لا يمكن أن يسكنه القبح.. أُمنّي نفسي بتأمّل عينيك الغائرتين.. أمد يدي لأزيل كتل الشعر حتى أكتشف وجهك.. وأنك ليس وَهْمَاً.. ومع كل تلك المشاعر التي أحاول جمعها وترتيبها. أتصورك كيف ستنظر إليَّ حين تراني غير شوذبك؟ في الوقت الذي أتمنى أن تكون هازئاً حتى تتقبل متناقضات الحياة.

وعليَّ إخبارك أني بحثتُ عمن تبحث عنها بين جواري القصر فلم أجد أحداً يوازي يقينك.. حتى شككتني في نفسي.. ماذا لو كانت مَن تبحث عنها هي أنا كما تدعيه؟!

أن تراني هي! وأنت تعرف بأن كل جارية في حمى الملكة يتم تغيير اسمها.. وتدريسها بما يجب عليها فعله حتى تنسلخ من أمسها.. وكل ما يتعلق بها مهما كان صغيراً.. لتنتمي كلياً إلى حياة جديدة محورها الملكة.. لقد كنتَ صادقاً وأنت تعدد تلك الأسماء.. فبعض الجواري ينسين أسماءهن لكثرة تغييرها.. البعض تتجاوز أسماؤها العشرين.. بل إَّن بعض الأسماء تتغير في ظرف أسبوع تبعاً للمهمة.

قد تستغرب مِن ذلك.. لكنها إرادة الملكة التي ما إن تكلف جارية بمهمة كخادمة لقائد أو سلطان خارج القصر حتى تحمل اسماً جديداً يدون في سجل الجواري.. وإذا عادت يكون لها اسمٌ آخر.. وإذا حُوّلتْ مِن جماعة إلى أخرى داخل القصر أيضا يُغيَّر اسمُها. قد تتعجب.. لكن هذا النظام سارٍ ويزيد تعقيداً يوماً بعد يوم.

قد لا يهم كل ما ذكرتُ لك.. حتى أنا قد لا يعنيني كلما يدور عدا ما هو موكل إليَّ.. فالقصر جماعات وأقسام.. كل قسم له اختصاصه وله ما يقوم به.. ولذلك لا نعرف ما يدور إلّا عن طريق الهمس ومعظم الهمس وشاية.. أما ما يدور خارج القصر فلا نعرفه.. إلا المختصات. لمَّحتُ لك بعض الإشارات حتى تدرك أنّ كل شيء يسير بقدر وحكمة.. وكُلٌّ يسير لما سُخِّرَ له.. أنا أكثر شوقاً.. أتركك في عناية ورعاية العلي القدير ".

-١٩-

رسالتها تلك شغلت تفكيري.. في الوقت الذي كنت قد بدأت أروض نفسي لعدم الاهتمام برسائلها.. لتعيدني لفهم المزيد من حياتها.. لم أقترب من اللفافة لأيام.. متسائلاً: هل الحقيقة غائبة في هذا المكان؟

كتبتُ إليها بعد التردد:

قلبي يكاد يذوي بين أضلعي.. ووساوسي تزيدني إيلاماً.. كلماتك تلك التي أشعرتني بأني ذو شخصيتين تدفعني للجنون.. لم يتشظَّ تفكيري يوماً مثلما هو الآن.. ولم تداخلني الشكوك مثلما أشعر بها اليوم.. كثيراً ما شغلتني ديانةُ أمي ودين معلمي سنين

ومازلتُ.. لكنَّ عقلي لم يتُهْ مثلما هو معك.. وأسألك حول ما تدينه الملكة الحرة.. أفكر في إيمانها وإنْ تجلّتْ عقيدةُ الفرد مِن خلال أعماله وتعامله.. لكنها مِن الغرابة بمكان.. ولذلك أخاف فقدان صوابي وأنا أقرأ ما يدور خلف جدران القصر.. أن أجد نفسي يوماً أسرح في الشوارع كالسوائب دون هدى.

الجميع لا يشك في جوهر الملكة إلا أنا.. ما تذكرينه في رسائلك يدفعني إلى ما وراء تلك الأحداث وما يُسيِّرها مِن معتقد.. أعرف لكل ظاهر باطن.. ولكل باطن تأويله.

أكتب إليكِ وأخاف استمرار بذر حكايات تلك الجدران في رسائلكِ.. أخشى على عقلي من الجنون.. أنتظرها بشوق وأخافها.. وأنتظر يوم أن ننطلق معاً بعيداً عن ذي جبلة ورعبها.. أنتظر.

اكتفيتُ بما كتبتُ إليها.

في ذلك الصباح كان صوتَه ميتاً.. فتح الباب ولم يدعُني للجلوس إليه..اتكأت على قائم الباب دون أن أنبس بكلمة.. مَدَّ لي مشرب اليراع.. وكأنه لم يأتِ إلا لكي يمد بيراعه إليَّ.. نظرتُ إليه لأجده ينظر إليَّ دون أن ينزل عينيه مِن عيني.. هزَّ رأسه كأنه يواسيني حرمان الصباحات الماضية.. ثم وقف فارداً ذراعية..نهضت لمنظره.. احتضنني.

- جئتُ أودعك.

كان صوتُهُ صادقاً وحزينا.

لم أستوعب ما يرمي إليه.

- تودعني؟!

- سأغيب.

- لماذا.. إلى أين ؟

- لا يهم إلى أين ؟ فقط أريد المسامحة عن حزن الأيام الماضية؟

- الحزن له أحكامه.

- رؤياك قتلت مولانا المكرم!

- أنت الذي حمَّلتَها موته.

- من لحظة سماعي لك.. لا أعرف لماذا؟ ومِن لحظتها لم أعد أطيق رؤية وجهك أو سماع صوتك.. بدوتَ لي شخصاً مُخيفاً!

- الأمر ليس بيدي

- لكنها روحك!

- تحملني ما لا يحتمل.. لكن قل لي أين ستذهب؟

- ليس مهماً.

شعرتُ بوطأة تلك الكلمات المثقلة بيأسٍ وإحباطٍ ظاهر.. تتساقط كلماته ناظراً البعيد.. على غير عادته حين يحدثني.. كما لوكان في صلاة.. وقد تسرَّبَ الشكُّ إلى نفسي أنَّ في الأمر شيئاً.. انشغلَ بدخان يراعه.. ثم عاد صوتُه يشابه مواء الهررة.. التفتُّ لأرى وجهه وقد زاد تغضناً.. حدثني بحزنٍ عن سنوات عمره التي قضاها في ظل مولانا الملك وأنه يشعر الآن باليُتم.. لم أكن أعيَ عمق ذلك الحزن.. أخذتُ أستنفر حواسي لأسمع أنَّاته كمَن يحدث نفسه: أريد أن أحدثك بصدق قبل أن أودعك.. أن أحدثك حديث أب لابنه أو صاحب لصاحبه.. وأستمع إلى أسئلتك.. فكثيراً ما سألتني ولم أجبك.

عادَ ينظرُ بعيداً كمَن يستجمع نثار صوته.. لكنه تغير حين ظهر شابٌّ مُتجهاً نحونا.. ما لبث أن نهض كالمذعور.. وقفَ الشاب جامد الملامح مادَّاً يده باتجاه ذي الساق:

- المفاتيح.

أشار ذو الساق إلى الباب ثم سار يسحب ساقه دون أن يعيرني اهتماماً.. مُخلِّفاً نظراتٍ حائرة.. تعجبتُ مما يدور.. سريعاً ما لانَتْ ملامحُ الشاب بابتسامةٍ عذبةٍ وهو يحدثني:

- مُرسَلٌ إليك لأقوم بخدمتك!

- لم أفهم!

- لا عليك ياسيدي.. هذا الباب لن يقفل عليك بعد الآن.. وأنا خادمك المطيع!

-أنا حر؟

- هذا فضل مولاتي عليك.

مذهولاً مما يدور وأسمع.. استأذنني بالدخول يجول في أرجاء الدار.. يرتب هذا ويزيل غبار ذاك.. مَنْظَرُ ذي الساق وهو يمضي مبتعداً دون أن يلتفت حيّرني.. كلامه الذي بدأه ولم ينهِهِ.. ماذا كان يود قوله؟ سطوة هذا الغلام الخفية وجرأته. بدوري نهضتُ غير مستوعبٍ هذا التغيُّر الكبير.. سارعت بإحكام إغلاق غرفة شوذب.

مضى ذلك النهار وقد أمسى البابُ مُشرَعاً.. قال لي : مولاتي أمرتْ بعدم إغلاقه إلا متى تشاء!

طوال الليل أراجع مايدور.. ماذا كان سيقول لي؟ لماذا كان يائساً وهرماً أكثر من ذِي قبل؟! وفجأة حرية وخادم؟!

بعد أيام سألتُ ذلك الشاب عن ذي الساق.. وأني أريد رؤيته.. فصدمني بخبر موته.. سألته:

- كيف مات ؟

- سمعتُ أنهم وجدوه ميتاً..ولا أعرف كيف؟!

صدمتني كلماته ولفَّني حزنٌ شديد.. حاولتُ أنْ أعرف المزيد.. نفى أن يكون لديه تفاصيل. مكثتُ للحظات حائراً.. متذكراً كلمات ذلك الصباح.. ترى ما كان سيحدثني به؟ أو أنه ذهب ضحيةً لمَا كان سيبوح به.

أحسستُ أنّ في الأمر شيئاً.. كانت أفكاري تذهب وتعود وقد نسيتُ ما حولي متوجساً مِن خادمي وحريتي المفاجئة.. أخرج أسير تحت أشعة الشمس.. عبرت الساحة لأرى ما حولي غريباً.. كل شيء جامداً.. مختلفاً عنه من ليلة وصولنا.

خصصتُ غرفةً لخادمي الذي يُظهرُ سذاجةً فجَّة.. أو أنه يتعمد ذلك.. لم يعد من أحد يغلق عليَّ الباب.. أخرج متى أشاء وأعود حين أشاء.. كأن الدار لم تكن حبساً.. تلك الساحة الأمامية التي كنت أسترق النظر إلى أطرافها أجوسها متى أردتُ.. لم تكن ذي جبلة غير تلك الساحة.. وجدران القصر والمباني الملحقة به وأبراج الحراسة السامقة.. ومسجد منحدر النهر الصغير.. ومباني الأطراف للخيل والعلف.. ومبانٍ لتخزين الغلال على المنحدرات الخلفية للقصر.

انقطعَ هبوط الجواري ولم يعد الباب العلوي يُفتح.. أصبح خادمي يقوم بجلب البريد والطعام وغسل ملابسي.. دائمَ الحركة والنشاط.. لا ينشغل بأي شيء حتى ينجز ما أمرته به.. لكن موت ذي الساق وانقطاع لفافة شوذب كانا مسيطرين على حالتي وتفكيري.. لم أهنأ بحريتي.. فقد ظلَّتِ الأفكار والظنون تتقاذف بي.

مع مرور الوقت كنت أتضايق من ملازمته لي طيلة الوقت.. لتتعاظم مشاعري بأنه أشد وطأة من إغلاق الباب.. وأن خيطاً يتمزق مِن خلال انقطاع رسائل شوذب وموت ذي الساق.

دون أن أسأله أخذ يحدثني عن نفسه.. فهو من بقايا غلمان سيدي الملك الراحل.. الذي كان له عدد كبير من الصغار ضمن حاشيته.. ومتى تجاوز الغلام الخامسة عشرة يصرفه لأعمال أخرى أو يهديه لبعض أمراء الحصون.

حدثني عن ماضيه في صنعاء.. أتأمل جلوسه وحركاته اللينة.. بشرة سمراء ناعمة.. وجهه مُعتنى به جيداً.. يبدو لطيفاً إلا أن شفتيه كانت لافتة لصغرهما.. ما إن ينجز ما طُلِبَ منه حتى ينشغل بنفسه.. عيناه غالباً ما تغرق بالكحل الثقيل.. كثير الاغتسال.. يجيد إعداد الأطباق المتنوعة.. يشغل نفسه دوماً بنظافة وترتيب الدار.

أشك في كل ما ينطق به.. في إحدى المرات قال لي: أنا غلامك وخادمك فأفعل بي ما تريد! صامتاً ينتظر ردة فعلي.. حين يسترسل في حديثه أهز له رأسي مبتسماً.. ليواصل هذيانه دون أن أنطق بحرف.. ودوماً يرسل نظرات غريبة.. مُطعِّماً حديثه بكلماتِ إثارة.. لا يتذمر أو يشكو من شيء.. يسألني عن صمتي

الدائم.. مُعبِّراً عن إحساسه بأني لا أريد سماعه.. وكان محقاً في إحساسه.. يوماً بعد آخر يزيد ضيقي من وجوده.. يقتصر صوتي على توجيهه بعملٍ ما.. أو طبخ كذا. كنتُ أشعر بأنه أكثر دهاء.. مع الأيام أمسى أكثر ابتذالاً.. وإن أظهر تأدباً.. يحكي لي حكايات مدهشة لا أعرف من أين يأتي بها.. يُسَليني بطُرَفٍ مُضحكة.. لكنّي كنت أحاول وأد ضحكاتي.. وتارة يلقي بقصائد عشقٍ تهز القلب.. مُرسِلاً إيحاءات حسية.. وتلك نظراته كثيراً ما توحي بدعوات مغرية.. نظَرات تأتي بما لا تأتي بها أكثر الغانيات.. لم يتعرَّ يوماً أمامي.. فقط يُكثر مِن التمطي حتى لكأنه يقتعد سنام لذة.. يغرقني في أحاسيس لم آلفها من قبل.. فكرتُ بالتخلص منه.

وهكذا كنتُ أعيش الحيرة في دارٍ أشعر فيها بقيودٍ تكبلني رغم الباب المُشرَع.. خيّرتُه أنْ يذهب في إجازة لعدة أيام.. لكنه توسَّل بأدبٍ أنْ يظل بقربي.. تتوارد أفكارٌ كثيرة وأجدني مستسلماً.. حتى ظننته قدري.

إلى ذلك المساء حين جثا دامع العينين جواري.. يتعثر في حديثه الباكي.. جاذباً قلبي إشفاقاً عليه.. وتلك مشاعري لم أجد لها تفسيراً.. قال وأنا أربت على ظهره مواسياً بأنه لم يصادف سيداً في مثل طيبتي.. حزين لمغادرته.. اعترضتُ لما أسمع وقلت مكابراً:

- كيف تغادرني؟ ألستُ أنا سيدك ولا يجوز لك أن تتصرف إلا بإرادتي.. كيف ذلك؟!

- لا أعرف إلا إننا جميعاً موالي مولاتي الحرة وهي صاحبة الأمر.

عند ذلك أدركتُ بأنَّ مخاوفي كانت محقة.. وأننا جميعاً مرتبطون بعناية مَن لها العناية.

تصنّعتُ بعض الحزن على مُحياي.. تركته يترنم بأبيات غزل.. ظننتها في حب الله كما يترنم المتصوفة.. بعد انتهائه يلثم قدميَّ راجياً أن أمنحه ليلة

وداع.. قال لي وقد عاد صوتُه للبكاء: أريد إسعادك.. أشعرني في آخر ليلة بأني قمتُ بما يجب أن يقوم به غلام تجاه سيده!

-٢٠-

كانت أول ليلة لي حر دون رفيق.. تقودني رغبة العودة إلى غرفة شوذب التي حُرمت منها.. جلستُ أمامها دامع العينين أتوسل إليها المغفرة شارحاً سبب غيابي.. هزَّتْ رأسَها إشارةً بغفرانها.. ظللتُ راكعاً مناجياً لها.. صامتة ترمقني.. لكنها لم تنطق بكلمة.

خرجتُ وحيداً.. سرتُ في كل اتجاه.. صوتٌ مِن داخلي يدفعني للهروب بعيداً.. وصوتٌ ينازعني البقاء.

عادتْ(ضلفة) الباب العلوي تتحرك مِن جديد لتهبط جواري البريد.. أسترقُ النظر بمشاعر قلقة.. تبادلنا النظرات دون صوت.. وهكذا لعدة صباحات.. إلى أن خفق قلبي لمرآها.. كدتُ أختنق غبطة.. تمالكتُ نفسي.. متذكراً تحذيراتها.

" أحمدُ مَن يُحيي ويُميت.. مَن يخط أقدارنا.. وأصلي على نور الدنيا والآخرة سيد الثقلين محمد حبيب رب العالمين. عشتُ أياماً مضتْ لصيقة الموت.. لتمنحني أنتَ الحياة.. فسبحان مَن ألهمكَ الثبات.. وحباك هذا القدْر مِن الصبر.. بياض لفافتنا دَحَضَ إدعاء الواشية.. فحين سعتْ إحدى الجواري لتضع اللفافة بين يدي الملكة.. كانتْ ناصعة البياض.. لا تحمل أي دليل مما قالته.. ليبحثن بين بقية اللفائف عمَّا أدعته.. فلم يجدن ما يدل على إدعائها.. لتأمر بإرسال مَن يعود بدليل إدانتنا منك.. وكان أن أمرت بمَن يجلب غلاماً فطناً ليأتي بالخبر اليقين.

ولشهور انتظرتْ مولاتي ما يمكن أن يؤكد أو ينفي.. لا أعرف ما كان يدور بينكما.. لكن الأمر انتهى دون دليل. كانت أياماً يمضغ الموت أوقاتي.

ممتنة لك.. وعليك أن تعرف بأنك منقذي ومنقذ نفسك.. تلك الدسيسة جعلتني متهمة.. لتبرأني أنت بصبرك وجلدك.. تكلفني مساعدة الملكة بيلسان بأعمال كثيرة ولم أخفق يوماً.. وأعتقد أن ذلك ما جعلها تتأكد قبل معاقبتي.. فعادةً ما تُنزِل العقابَ سريعاً لوشايةٍ عارضة.. أو مجرد شك.

قد تستغرب مما أكرر ذكره.. فمصير الجواري بسيط.. ذلك ما كان سبب انقطاعي.. في وقت أكتب إليك ما يمكن أن يريك حياة القصر لتضاعف حذرك.. فحين تأمرني مولاتي بمهمة خارج القصر أكون بعيدةً عن البريد فلا أستطيع استقبال وإرسال لفافتي إليك.. اليوم أنا مطمئنة إليك.. ولذلك لا أرى ضيراً في الحديث بين رسالة وأخرى ببعض ما لا يجب الحديث حوله.

أريد أن أحدثك عن الملكة الحرة سيدة فهي لا تخرج قط من بين جدران قصرها إلا فيما ندر.. ولا يعلم أحد عن خروجها.. لها سراديب إلى حصن التعكر وإلى مسجد منحدر النهر لتؤدي بعض صلواتها الخاصة.. وتخفيّها لم يكن لرغبة منها بل تنفيذاً لإحدى الوصايا: "لا تكثري مِن الظهور لعوام القوم فاحتجابك أفضل حتى تسكني عقولهم فالرؤية تقلل المكانة ". وهكذا هي حبيسة قصرها.

أستودعك ملك الملوك.. أدعو لك دوماً بالسلامة.. فادعُ لي".

-٢١-

سعادتي لا توصف بعودة لفافتها.. وتأكيد صدق شكوكي حول ذلك الغلام.. وما أوضحتْ في رسالتها.. وكنت أتمنى لو أنها تحدثتْ حول موت ذي الساق.. ظللتُ أرقبُ الفجر لأكتب لها سعادتي بما أعيشه مِن حياة جديدة:

عودة لفافتكِ منحتني شعوراً جديداً.. في كل مرة يتأخر وصولها تهوجس مخاوفي قلقاً عليكِ.. حتى أنّ ذلك الغلام كان أثقل مما تتخيلين.

يثيرني ما يدور خلف جدران القصر.. وكيف يعيش سكانه؟ لكن ذلك الاهتمام ليس من أجل شيء بقدر ما أود الإحساس بما تعيشينه ومعرفة تفاصيل حياتكِ.. كما أرى لحظة قراءة اللفافة ما تعيشينه.. لتقل ضخامة وقسوة تلك الجدران التي تفصلنا.. أنكبُّ باحثاً عنكِ بين أسطركِ.. لأشعر بأني أجالسكِ.. تلفحني أنفاسُكِ.. تلك هي كلماتكِ التي تشرحين لي فيها الحياة لديكم. وما إن أكمل قراءة رسالتك حتى أشعر بالغصة حين أدركُ بأني أعيش وهْمَاً قاسياً.. ولذلك يروق لي ما تكتبين.. أحياناً أعد أفكاراً لمناقشتك بها وكأني سألتقيك بُعيد لحظات.. وأحياناً أحس بأني تائهٌ أبحث عن حُلمٍ بعيد المنال.. أو وَهْم غير موجود إلَّا في خيالي.. خاصة حين تكتبين بأنكِ لستِ أنتِ.. يحاصرني الضيق بل ويجثم على أنفاسي.. وسؤال يلاحقني: ماذا عليَّ أن أصنع بعد مطاردة كل هذه السنين.. لا شيء؟ ثم أرد على نفسي: ولماذا عليَّ أن أطارد اللا شيء؟ لماذا لا أتخلص من حياتي المملة المتشابهة؟ فأيٌّ مبرّر لوجودي؟ ماذا إنْ كنتِ شوذبَ أو لم تكوني؟ ماذا إنْ كان اسمي صعفان أو جوذرَ.. أو اسماً آخر؟

تتراكم حوارات نفسي لتحملني الذاكرة بعيداً أو أنها بذلك تشفق عليَّ.. إلى أيام في حياة أمي وما جدواها.. حياة المعلم.. وذي الساق.. فلا أجد غير الأمس الذي لا أستطيع الجزم بأني عشته.. لتعاودني فكرة الرحيل عن هذا الوجود.. أن أبدأ بهجر التواصل بكِ وعدم متابعتكِ.. أنْ أعيشَ كما أراد لي العدم.. ثم أنخرط في نحيب لا أعرف على ماذا؟ يتحول إلى لذة حتى يحتويني نوم عميقاً.. أجلس كثيراً إلى نفسي متأملاً وشمكِ على كفي.. يتردد صوتُكِ مِن ذلك اليوم بأنه رمز عظيم.. أمرر أصابعي على حوافه متذكراً صوتكِ "في لحظة أحببت أن أرقيك بذلك الرمز.. الذي يحمل أسراراً كثيرة.. يحمل رسائل إلى كائنات نورانية تراك ولا تراها.. تحميك على الدوام.. أن يكون بينك وبينها علاقة وطيدة".

هذا أنا أردد كلماتكِ دوماً.. وأذكر لحظات قضيتِها معي.. حينها أيقنتُ واهماً بأنني لن أفقدكِ.. وأنّنا سنكون معاً.. لكنكِ ذهبتِ ولم تعودي.. لأتوه في دروب حيرتي.. ثم أعاود البحث عنكِ في دروبٍ تتشعب إلى عدة طرق. فماذا يشدني إليك؟

أتذكر ذلك اليوم في حضرة الحرة سيدة.. للحظات رأيتكِ وسط صفوف الجواري.. لفتت انتباهي نظراتُ عينيكِ.. ابتسامتُكِ التي لا تشبه أيَّاً منهن.. ومع ذلك تمعنين النكران.

أنا اليوم حر أسير وقت أشاء.. فهل تستجيبين للخروج من هذه الحياة المملة.. هي فرصة أن تخرجي لنهربَ معاً.. أن نجعل لحياتنا معنى.. لا أريد أن أسألكِ كيف تصلكِ اللفافة.. ولا سر تبخر حروفها.. لا يهمني غيركِ وأنْ نذهب بعيداً بعيداً.. ستقولين كنتَ بالأمس تتمنى عليَّ اللقيا واليوم تردد أن نهرب.. سأقول لك اليوم لم أعد حبيساً.. يمكننا أن نقوم بما لم يكن.. لو عشتِ إحساسي لما انتظرتِ يوماً واحدا.. ولا ظننتِ بي السوءَ و اتهمتِ روحي بالممسوسة.

كرهتُ الانتظار.. وبدأتُ أكره رسائلكِ.. فهل تأتين؟

أرسلتُ ما كتبتُ.. أنتظر عودة لفافتها.. وكأنها تستمرئ الغياب.. يأتي البريد ولا تأتي.. وهكذا أصبحت أنتظر لتكافئني على انتظاري بعد انقطاع بكلمات التبرير.. أخرج شطراً من نهاري أسير متعرفاً على تلك الأنحاء.. أتوقعها وقد وقفتْ في إحدى النوافذ.

وهكذا لا أجد غير شمس ذي جبلة.. وقلة من القاصدين أبواب مولاتي الحرة.. مَن يصطحبون صغيراتهم.. وآخرين يحملون هداياهم مِن البُن أو الحنطة والسمن والعسل.. ينتظرون أمام باب القصر.. ينتهي المشهد بقبول هداياهم.. ليُسمَع بكاء فراق الصغيرات.. يرفع بعض الآباء نظراتهم إلى السماء مبتهجين ماسحين دموعاً تسربتْ ثم يمضون فرادى. أعرف لحظتها أنَّ صغيراتهم قُبِلنَ وأمسينَ ضمن كائنات ماخلف الجدران العالية. وبعضهن لا يقبلن.. فيعُدن ممسكات بأصابع أبائهن وقد هيمن الصمت حولهم.

أتجاوز ذلك وأهبط نحو منحدر الوادي فأصادف مزارعين بمواشيهم وآخرين يصعدون بدوابهم في طرق متعرجة.

وهكذا يوماً بعد يوم تتنفسني أشجار المنحدرات.. حتى ذلك الصباح حين قررت أن أعرج على دار اليامي.. وجدتني أقف أمام بابه.. أسأل مَن أصادف.. أعبر باب بستان مجاور لداره.. أراه تحت عريشه وحيداً.. أقترب شامَّاً شذى دخان افتقدته.. احتضنني طويلاً.. شعرتُ بذلك الدفء الذي تعودته منه في صنعاء.. أجلسني مبتسماً على سجادة زاهية الألوان رغم قصره إلا أنَّ ملامحه تركت في نفسي مهابة.

تبسَّطَ معي كما لم أتوقع.. وأبدى بشاشةً خجلتْ معها معاتبته.. حدثني عن متابعته لأخباري.. مد لي بمشرب دخانه.. ثم ضحك وهو يتابع شراهتي : يبدو أنك "مولعي" لا أعرف كيف انتهى الوقت سريعاً حين نهض يودعني حتى خارج البستان.. مشيراً بكفه أن أعاود زيارته.

كان موقفاً غريباً فطوال وجودي يتحدث ويضحك عالياً دون أن يتيح لي الحديث حول ما كنتُ أود عتابه.. كان بداخلي عتب كبير إذ أنّ حبسي قد طال لسنوات دون سؤاله عني.

ما إن أنوي فتح فمي حتى يسارع ليغمرني بصوته الضاحك متحدثاً في مواضيع لا تهمني.. ظللتُ مذهولاً وأنا أسير منتشياً نحو داري.. أسلوبه الدافئ.. وداعه لي بنفس بشاشة استقباله.. التفتُّ خلفي كمَن تدفعه قوى لا تُرى.. دخلتُ دار النسخ وأنا أمني نفسي بزيارته مرة أخرى ومعاتبته عتاباً شديداً.. لن أتيح له فرصة التحدث.. لن أترك نشوة الدخان تدفعني إلى أنْ لا أميز مرور الوقت وأنا إلى جواره.

-٢٢-

"لا ينبغي زيارة أو مقابلة أيٍّ كان.. أو الجلوس والحديث.. حين تكون في شرف خدمة الملكة الحرة.. عليك إلا تكرر ذلك ألا بأمر مِنَّا.. احتفظْ بهذا ليذكِّرك دوما عدم الزلل".

وجدت تلك الرقاقة صباح اليوم التالي جوار رسائل البريد.. ازدادَ نبضُ قلبي هلعاً وأنا أعيد قراءتها.. كلمات موجَّهة إليَّ ليس بنفس خط رسائل البريد.. ولم تُمهَر باسم أحد.. كنتُ حائراً.. أيُعقل أنها تعني زيارتي لليامي.. أتحذرني؟ كيف وصلها؟ أهو اليامي مَن

أخبرها؟ أم لديها كائنات لا تُرى تراقب كل شيء؟ كررتُ قراءة تلك الكلمات وأنا أتذكر ما قاله ذو الساق يوماً.

أخذتُ أنبشُ ذاكرتي عَلِّي أجد في ركام ثرثراته جوانب أخرى بعد أن كنتُ أعتقد أنَّ كل أحاديثه مختلقة. كنتُ بحاجة إلى زيارة اليامي.. لأسأله عن وعده بإعادة بناء الحانوت.. عن حبسي سنوات.. عن حياتي هنا.. فهو مَن جلبني.

داهمني خوفٌ متخيلاً امرأةً عقابُها الموت.. أأكتب لها مستأذناً؟ كيف أكتب لكائن أسمع به ولا أراه.. أهي موجودة أم أنها مجرد فكرة تسكن عقول الناس؟ تحاملتُ على مخاوفي وكتبت: مولاتي الملكة الحرة لم أزر حضرة مستشارك من باب الترفيه.. بل كانت زيارتي له مذكراً بوعوده قبل جلبي من صنعاء. أعتذر عن زيارتي له دون إذن منك.. وأتوسل السماح بزيارته.. دمتِ منصورة. خادمك الأمين (صعفان).

مرَّتِ الأيام وأنا أنتظر أمر الملكة.. أرى دار اليامي كلما مررتُ ولا أجرؤ الاقتراب. يوماً بعد يوم أكتشف غرابة المكان.. والحياة.. وغرابتي.. وغرابة كل مَن يعيش هنا.. وأسأل نفسي: هل جاء اكتشافي لغرابة الحياة متأخراً؟ تذمُّر يتزايد مِن نفسي.. لم يعد يهمني شيء.. أو أني فقدت معاني أشياء كثيرة.

حين ظهرتْ لفافتها بعد أيام طوال.. لم أشعر نحوها بلهفة كما كنتُ.. كان بداخلي شيء يموت ببطء.. قرأتها وكأنها لا تعنيني:

" بسم خالق ما يُرى وما لا يُرى.. رب السبع الطباق وما فيها.. والصلاة على صفوة النور وآله نور مِن نور.. وحسبي العزيز الرحمن.. أظنكَ في شوقٍ لرسالتي بعد كل هذا الوقت.. كما هو شوقي لجواباتك.. اعلمْ أنك في خاطري على الدوام حتى في لحظات صلاتي.. وما شغلني عن الكتابة إليك إلاَّ قلقي على مولاتي وخوف الجميع بعد خروج ابنها الملك مغادراً ذي جبلة إلى حصن أشيح وصنعاء تلبية لدعوة السلطان سبأ.. لينشغل جميع مَن في القصر بذلك الحدث. مكلفةً مَن يرافقه مِن أخوالها وأوصتهم بألا ينفرد به سلطان حصن أشيح.. وأن لا تزيد مدة الزيارة عن نصف شهر.. لكنه ظل هناك لأكثر من شهر.. وبعد عودته لم يعد يتقيد بتوجيهاتها.. يخرج في رحلات صيد متتالية ليغيب أسابيع.. يصطحب بعض الأمراء والوجهاء لينزلهم في ضيافته.. مع مرور الوقت أصبح يراسل بعض الأمراء دون علمها.

كان وراء كل ذلك السلطان سبأ.. نفكر جميعنا في وسيلة لردع السلطان.. وكانَ أنْ كلفت مستشارها القزم اليامي بالفرار إلى حصن أشيح.. معلناً شق عصى طاعتها.. موالياً للسلطان سبأ.. ثم يشجعه على محاربة نجاحي زبيد.. وضم تلك البلاد إلى ما تحت يده.. وكان لها ما أرادتْ.. فسريعاً ما استجاب السلطان سبأ لنصيحة القزم اليامي وسارع إلى حشد قبائله هابطاً من الجبال العالية متوغلاً بالنهب والسلب حتى أبواب زبيد.. لكن النتائج جاءت كما أرادتها الملكة الحرة.. إذ سريعاً ما ترددت أخبار هزيمة السلطان رغم كثرة قبائله.. بل وكاد أن يُقتل لكنه لاذ بالفرار مخلفاً جثث كثيرة بينها المستشار اليامي.

بعد عودته إلى حصن أشيح اكتشفَ بأن الملكة هي مَن خططت لتلك الهزيمة.. فيرسل إلى ابنها الملك موضحاً مكيدة والدته.. ليتصاعد الخلاف بينها وبين ابنها الذي هدد بالخروج عن طاعتها.. محاولةً إقناعه بأن سبأ يتربص بهم الدوائر لكنها أخفقت في إقناعه.

لم يكُنِ الأمرُ بسيطاً.. ولأول مرة تسقط الملكة أرضاً مُغمىً عليها.

ولذلك قررتْ احتجاز الملك في جناحه.. وعدم السماح له بالخروج أو مقابلة أحد.. لتتطور الأحداث ويعلن الابن الثاني عصيانه.. لم يكن لأحد أن يعلم بما يدور في أجنحة القصر عدا كبار الجواري ومَن في خدمتها.

كنتَ أنتَ تشغل ذهني طوال الوقت.. أشعر بقلق تأخري في الكتابة إليك.. عدم قدرتي على أن نلتقي.. كنتُ أعوِّل على لقيانا أن أحدثك وقد أُقنعك بأشياء لم أفصح لك عنها في رسائلي.. أن أعيد لك صوابك. وكم يسعدني أن تفكر بي ككائن يودك.. فهل تحاول التفكير بكل الاحتمالات حتى إذا ما فشلنا في اللقيا.. فلا يوجد ما أفكر به إلا أنت؟".

بعد قراءة أسطرها القليلة تلك.. لم تعد لي رغبة في الكتابة.. قد أجد نفسي أغرد بعيداً عما كنته بالأمس.. حتى أن رسائلها أصبحت جافة خالية من الروح. ولذلك كتبتُ إليها كلمات قليلة وكنتُ صادقاً: لم أعد أرى في استمرار انتظاري لرسائلكِ أيّ معنى.. ولا بالكتابة إليكِ.. حتى اللقيا التي تعلقينها في عوالم الغيب لم تعد تهمني.. لستُ حزيناً منكِ.. ولا نادماً على أمسي.. فقط أتوق إلى الإنعتاق إلى حيث لا تصل أيدي وعيون الملكة.. كوني مَن تريدين وكما تودين.. فلستُ نادماً على أحدٍ ولا على بلادٍ ألفتها.. ولذلك أتركك لتتماهي في حياة سيدتك.. فانسي ما كان بيننا.. أنا لم أخلق لذلك.

لا أعرف هل أصبتُ بما كتبتُ لها؟ وهل تلك الكلمات هي ما كنتُ أريد أن أقول لها؟ لكني كنت أشعر أنّ الأمر وصلَ منتهاه.. وأنَّ عليَّ بداية حياة مُجرَّداً مِن المشاعر.. ثم في لحظةٍ قررتُ ألّا أبعثَ بتلك اللفافة.. وأنَّ خيرَ وسيلةٍ لقطع المراسلات هي الاحتفاظ بها. خلال تلك الأيام لم تتغير حياتي في شيء.. ولم تنتهِ انتظاراتي.. لا أعلم ما أنتظر.. أحسستُ بأنَّ مشاعري أُصيبتْ بالقِدم.

سيـــــدة

٥١٠ هـ

-١-

خفَتَ تفكيري بشوذب بعد قطع الرسائل.. وأمسى طيفُها يزورني لِماماً.. لكن قلبي يتوعك حين أطيل التفكير في أيامها.

لا أعرف لماذا كان ذلك المساءُ ضاجّاً بالنحيب والتراتيل الحزينة؟ ثم يعم الصمت.. وكان الأمر غريباً.. فلم يكن واضحاً هل زار عزرائيل ذي جبلة؟ وإن لم يزرها فلِمَ نحيب ذلك المساء؟

مضت أيام وأيام من تلك الليلة.. ليُفتح الباب العلوي بعد أشهر.. وتهبط على محبسي ثلة من الجواري تتقدمهن "فارعة" التي أربكتْ سكينتي: مولاتي تبلغكم السلام.. وكلفتنا بمرافقتكم إلى الأعلى! سألتْ عيناي مَن حولها مِن الجواري فلم تتلقَّ غير نظراتٍ باهته.

تبعتهن دون أن أنبسَّ بكلمة.. تجاوزن بي سلالم تخترق أدوارَ القصرِ حتى سطحٍ واسع.. وقفتُ مبهوراً لاتساع ذلك الفضاء.. أتأملُ سماءً تتسع لكل شيء.. قرصَ شمسٍ أقرب مما أتخيل.. طيوراً تُحلِّقُ في دِعَةٍ على بساطِ رياحٍ هُلامية.. أسنّةَ جبالٍ تزينُ الأفقَ البعيد.

أشارتْ إلى برج في زاوية ذلك السطح المترامي الأطراف.. سرتُ حتى جوفٍ حجري دائري واسع:

- هل يناسبك هذا المكان؟

نظرتُ إليها متعجباً.. لا أعرفُ بما أجيبها.. أضافتْ: مولاتي أمرتنا بتهيئته

لسكناك.. أو بالأصح لخلوتك.

زادتْ كلماتُها دهشتي.. حُجرة واسعة في بُرج عالٍ.. سطح تملؤه الشمس.. إحساس لم أتبينه وأنا أنتقل مِن الأسفل إلى الأعلى.. كنتُ غارقاً في دهشتي.. أتأمل عينيها بشكٍّ وريبة بينما مَن يرافقنها على مقربةٍ يُتابعن في أدبٍ جم.. ثم قالتْ:

- أمَرَتني مولاتي أن أقف على خدمتك.. وتوفير ما تريده مِن كُتبٍ في خلوتك.. وأنْ ننفذ كلما تطلبه!

صمتتْ لتومئ بإشارة لمن حولها بالانصراف.. انشغلتُ باستراق النظر مضطرباً لإحساسٍ يجتاحني وقد أضحينا دون أحد.. تركتني متوجهةً إلى أعمدة مِن كتب.. انشغَلَتْ بصفِّهن داخل كوات جدار البرج المقوس.

لم تكن هي المرة الأولى التي يرسلون فارعة إليَّ.. وما إنْ أراها حتى أتساءل: لماذا هي دون غيرها؟ ليس تكرار ذلك مصادفة! ولذلك أفكرُ لفهم إرسالها.. فقط تخبرني بأنَّها مُكلَّفة لخدمتي.. ولا أجرؤ في كل مرة سؤالها لماذا هي؟

أرقبُها بحذرٍ وقد انشغلت بترتيب البرج.. ألحظها تسترقُ النظرَ كما لو كانتْ تود قولَ شيئٍ.. منذْ عرفتُها ونظراتُها حيرى.

بعد وقتٍ اقتربَتْ.. ثم جلسَتْ على طرف الدكة.. دفعتْ نظراتُها بذاكرتي لتسافر بعيداً إلى لقاءاتِ السنوات الماضية.. إلى ذلك الصباح حين هبطتْ جاريةٌ بين جوارِي البريد.. كانتْ نظراتُها مختلفة.. في البداية حسبتُها مصابة بنوع مِن الهَبَل.. لأيامٍ ثم انقطع نزولها.

ظننتها لن تعود لكنّها ظهرَتْ بعد أسابيع وسط مجموعة مِن الجواري.. ولليالٍ امتلأ دارُ النَّسْخ بحركةِ وضجيجِ حضورِهنَّ. كُنَّ يساعدننِي على نسخ رسائل عزاء.. في تلك المرة لم تكتَفِ بنظراتِها البلهاء بل زانتها ابتساماتٌ ساحرة. تطيل النظر.. ترقبني.. لتتركَ فيَّ تساؤلاتٍ لا أجد لها أجوبة.

ثم أصبتُ بمرض.. أحسستُ عزرائيل يخابرني.. لتظهر هي.. وتلك المرة الأولى التي تأتي بمفردها.. ممدداً في حالة مزرية حين سمعتُ صوتاً أنثوياً يهبط

مِن الباب العلوي.. للوهلة الأولى خلتُها أوهامي.. ولكن ما لبثَ الصوتُ أن هبط هامساً:

- سلامٌ عليكم.

دُهِشتُ لإطلالةِ وجهها.. خجلتُ مِن حالتي.. تقدمتْ باهتزاز خطوها ووجهها الفياض بابتسامة ساحرة. لا أعرف كيف كانتْ تراني.. لكنّي مازلتُ أتذكر اهتزاز قوامها السامق.. نظراتها الصافية.. غمازَتي خديها.. خَطَتْ تبحث عن مكانٍ تضع ما تحمل.. بينما كنتُ أُجاهدُ أن أستوي.. أن أخفي عجزي.. لا أعرف لماذا كانت تبدو سعيدة.. ولماذا كان مقدمها وحيدة؟! وكأنها عرفتْ ما أفكر به:

- كلفتني الملكة برعايتك.

ثم جلستْ على حواف دكة فراشي.. كنتُ منشغلاً بإخفاء ضعفي.. أحاولُ أن أبدو فتيَّاً.. لكنها رعشات البرد تظهر هشاشتي.. مدَّتْ كفَّها تمسكُ أصابعي: أنت ساخن.

حاولتُ أنْ أُحرِّكَ لساني.. أصابعها تجوس رقبتي وصدري.. وقد تلحَّفَ وجهَها قَلَقٌ طارئ: يبدو أنكَ متعبٌ جداً.

أخرَجَتْ ما حملتُه مِن أطعمة.. تتودد كي أتناول بعضه.. استجبتُ لرغبتها.. ارتشفت.. لم تمر لحظات حتى اضطربتْ أمعائي.. ثم صعدتْ حموضةٌ بغيضة مِن حلقي لأقذف كل ما ألقمتني. غشاني خجلٌ وقد انتشرَ ما أفرغتُ على ملابسي وأغطيتي.

سكنتُ أستردُ أنفاسي لأسمعَ عواءً يعاود بقوة مِن خلف الجدران.. أشرتُ عليها أن ترهفَ السمع.. سادّاً مسامعي. لم تفهم ما عنيتُ.. تنقل عينيها بين وجهي وتلك الجدران.. ثم هزَّتْ رأسَها: أصوات رياح.. لا عليك!

نطقت كلماتها وهي تتابعني راسمة ابتسامة وديعة.. بينما كان جسمي يتفصد عرقاً.. لتعاود حموضة تتصاعد لا أعرف من أين تأتي.. حاولت كتم ما يعتمل بي.. أمعائي قذفت بسوائل لا قبل لي بروائحها ولونها الداكن.. حاولت الاعتذار.. خرجت أحرفي مبتورة.. أصابَ ملامحها ذعرُ.. لا أعلم بعد ذلك كم ظللتُ غائباً عن الوعي.. كما لو أنَّي رأيتُ شخصاً يقلبني عارياً.. يسألني.. أنظر إلى عينيه صامتاً.. لم تكن هي.. ابتعدَ ذلك الشخصُ.. تَبِعَتْه تهزُ رأسَها وهو يحدثها بصوتٍ لا أميزه.

عادتْ راكعة جواري.. نزعتْ بقية ملابس جسمي.. منهمكةً بدباغة بدني بيديها.. تقلبني يمنةً ويسرة.. مِن موقدِ نارٍ مجاورٍ التقَطَتْ أحجاراً ساخنة تمسد بها أسفل بطني.. صدري.. ساقية ظهري.. أغرقُ في خَدَرٍ لذيذ.. لا أعرف هل كنتُ في غيبوبة أم أنَّ ما صنعتْه بي واقع. عاد وعيي لأجدني غارقاً منهكاً بين أغطيتي.. ابتسمتْ باتساعِ فمِها.. داهمني خجلٌ لرؤية نظراتها.. حاولتُ لملمةَ أطرافي.. هزَّتْ رأسَها وقد ضاقتَ عيناها بعطف.. تسألُ بنظراتِ غواية:

- كيف تشعر؟

خرجتْ حروفي ممطوطة:

- أف ض ل.

أمسَكَتْ بكفي تتأمل وشمَي مندهشة.. توقعتُ سؤالها حولها.. لكنها ذهبت بسؤالها : ما هي حكاية مرضك؟

أشرتُ بهز رأسي نافياً معرفتي السبب.. نظرتْ بدلال: لكنَّكَ هذيتَ في منامِكَ كثيراً.

أفزعتني.. ماذا يمكنني قد هذيتُ؟ محاوِلاً أنْ أبدو رابطَ الجأش كما لو كان الأمر لا يهمني.

-٢-

أعادتني من ذكرياتي حين عادتْ تقف مستديرة:

- هل أعجبك المكان؟

- أفضل من حبس دار النسخ.

هذه المرة أجزم أنني لم أترك لها مجالاً رغم سطوة نظراتها.. قلت لها بصوتٍ متماسك:

- أنتِ في حِلٍّ من خدمتي.

ذوتْ ابتسامتُها وقد تسمَّرتْ للحظاتٍ ناظرةً إليَّ بدهشة.. قالت بصوتٍ ذليل:

- مولاتي مَن كلّفتني بخدمتك.. والأَمَةُ لا تملكُ خيارات.

صمتٌ وقد بدأ صدِّي يتراخى تحت وقعِ تذلُّلِها.. فضَّلتُ الهروب.. كانت شمس السطح بهية والأفق نقياً.. ريحٌ تداعب قمم الجبال.. مُنْحَدَرُ النهرِ الصغير يبدو ساكناً.

خرجَتْ تتبعني.. بدَتْ أطول والريحُ تداعب أثوابها.. خطوتُ مبتعداً نحو حوافِّ السطح البعيد.. لا أريد أنْ أفقد حريتي بعد سنوات الحبس الطويلة.. الجميع هنا وشاة.. صوتها كان حزيناً وهي تدندن للريح.

أقاوم بالصمت لعدة أيام.. كنتُ أشعر بحيرتها وقد حافظتْ على مسافة في حديثها.. حريص على ألا تلتقي عيوننا.. سألتها ذات صباح:

- هل المكان يناسبك؟

نظرتْ في عينيَّ نظرة عتاب:

- أتيتُ لأخدمك.. ثم ألم تجد ما تسأل عنه؟

- عَمَّ يمكنني أن أسأل؟

- مثلاً.. هل أنا سعيدة بهذا المكان؟

أوحتْ كلماتُها باستبطانها أمراً.. تأكَّدَ لي أنها تخفي شيئاً.. أضافتْ: حالتك بعد حبس سنوات تستدعي الرعاية.

أحاطني خجلُ ما ترمي إليه.. كانت تود بكلامها أن تدخلني دائرة إعجابي بها.. ولا تعلم أن حبس سنواتٍ مضتْ قد جعل عقلي يرى الأمور بغير ما كان يراها.

فقط تختلس النظر وقد شغلتْ نفسها بترتيب ذلك البرج.

تقف جواري لحظات تناولي الطعام دون أنْ تشاركني.. في الوقت الذي لا أدعوها فتتكوم بعيداً في صمتٍ ولا تكف عن متابعتي كمَن تنتظر شيئاً.. أُخفي سعادتي أنْ يكون بالقرب مني كائن.. في الوقت الذي أحفِّز نفسي الحذر مِن الوقوع.

تنظر في عينيَّ كمن تود اكتشاف ما أفكر به. لأيامٍ كنتُ أفتح باباً للحديث.. أحصر كلماتي فيما أريده مِن طعامٍ وشراب.. أو بما يتعلق بترتيب الحجرة التي حوّلتْ زواياها إلى ما يثير البهجة بأثاثٍ جلبتْه مِن القصر.. قالت لي:

-هل يعجبك ما أصنع؟

-نعم.

- هذا ما أمرتْ به مولاتي.. ودوماً تسألني عن أوضاعك!

- عجباً مِن مولاتي.

- علامَ العجب؟

- إما سجين لسنوات طويلة.. أو ترفعني في برجٍ عالٍ!

- ستعرف يوماً الإجابة على تساؤلاتك!

أصمتُ بينما ملامحها تغرق في حزنٍ مُبْهَمٍ بعيد.. لا أدري ما كان يمنعني من سؤالها؟ دون أنْ أنظر إليها مصغياً تجتهد لفتحِ نوافذ المنادمة.. حين يشرع صوتها أرقب تغيراتها وهي تتحدث إليَّ كمَن لا تنتظر رَدّاً.. أتواطأ بالسماع.. تلتفتُ ناظرةً في عينيَّ بسعادةٍ دون أن يتماهي الحزن مِن عينيها.

أعد نفسي بالاقتراب.. لكنه الخوف يدق أجراسه كلما حضرتْ وشايتُها.. أرتد إلى مسافة لا أسمح تجاوزها.. أكتفي بالرد المقتضب عليها.. لا أسترسل في أي حديث. أظنها تراهن على الوقت واثقةً مِن إغرائي يوماً.. أرقبها متوجساً حتى تحولتْ مقاومتي إلى نفور مِن صبرٍ أحسه فيها.. تتعمد الرقة واللطف. وما كان يحزنني أكثر هو إحساسُ أنَّ صمتي يعذبها.. بل تجاوز الأمر إلى تلذذي بإذلالها.. ليكتنفني نفورٌ حتى مِن نفسي. وفي نوبة حذر صارحتُها بعدم ارتياحي لوجودها.. لترد في دلال بأن وجودها إلى جواري يزيدها سعادة.. صمتُّ لهنيهات.. اقتربتْ مني تقول: أعترف لكَ بأني مَن كنتُ أراسلكَ.. ولستُ وَهْمَكَ الذي خلقتَهُ.. فهل وجدتَني شوذبك؟

شعرتُ بنوع من العمى.. تحاملتُ محتاراً.. خجلاً أن أرفع عيني إلى عينيها.. اجتاحتني نوبة حمق وقد لمحتها تتأملني ليرتفعَ صوتي غاضباً: أنا مَن سيطلب عودتي لمحبسي في دار النسخ إنْ لم تتركيني.. عليكِ بإخبار مولاتي بأنّي لا أريد أحداً في خدمتي.

قلتُ كلماتي وخرجتُ نحو أطراف السطح البعيد. طوال وقتي أستحضر لحظات لقاءاتنا السابقة.. أيعقل؟ أتريد أن تقول لي لا وجود لشوذب إلا في ذهني.!. هل تبخرت شوذب؟ هل أنا مريض؟ أم هي تتلاعب بي؟ غير مصدق ما سمعته.

عدتُ بعيد مغيب الشمس وقد أمسى البرج صامتاً.. كنتُ على ثقة مِن عودتها.. مَرَّ الليلُ ثقيلاً.. نهار اليوم التالي. دَمَعَتْ عيناي لإحساسي بغبن نفسي.. جافاني النوم لعدة ليال.. ولم يعد لشمس النهار مِن معنى.. حتى تلك الثياب التي مُنِحَتْ لي.. وتلك العطور لا تثير فيَّ البهجة.. ولا صفوف الكتب التي مُلِئَتْ بها الجدران.

بعد أيامٍ مددتُ أصابعي إلى أقرب كُوَّة كتب.. التقطتُ كتاباً بعد آخر أقلب عناوينها.. لاحظتُ كُتيباً صغيراً لُفَّ بشريطٍ حريريٍّ لمَّاع في آخر صف تلك الكُوَّة.. بحذرٍ سحبتُ شريطهُ لتسقطَ منه رقاقة.. أخذتُ بقراءتها:

"بسم الرحيم العليم مَن يشفي السقيم ويحرك العواصف والنسيم.. والصلاة والسلام على رسولِ رب العالمين.. مَن أوصانا بالرحمة وحُسْن الخُلق.. وعلى الخمسة أهل الكساء وأئمةَ النور إلى يوم النشور.

أخط إليكَ هذه السطور في عجلةٍ مِن أمري بعد إشهار سيف كرهِكَ في وجهي.. لم أتصور أنْ تطردني وأنا في الوقت أتمسكُ بقربِك.. كنتُ أظنُّ أنَّ بقربي منك سأكتشف روح الفارس التي كنتُ أتوسمها فيكَ.. لكنّكَ خذلتَ ظنوني.. وهذه أنا أفي بوعدي لكَ وألتقيك.. وأكشف لك عمن أكون.. وحين تكتشف زيف يقينك لم تتقبلني لتنهي كل شيء بيننا.. كما أنهيتَ يوماً مراسلاتنا.. ولا أظن أنك تعرف كم كنتُ أبذل مِن جهدٍ حتى ألقاكَ أو أسكن بجوارك لأخدمك.. ليس فقط لأنها رغبتك.. بل لما يعتمِل بي من شوق. ودعني أسألكَ: هل اكتشافك بأنّي لستُ شوذبك في لقاءاتنا السابقة.. ضيق عليكَ الدنيا؟ أم خجلتَ مِن ظنونكَ التي كنتَ تخالُها يقيناً؟! أو أنَّ مَن ذكرتَهُنَّ: فندة.. شوشانا.. شوذب لم تجدهن فيَّ؟ ألم أؤكد لك في رسائلي بأنك تسعى خلف وهم؟ فاعلمْ بأنّك يوم احتفظتُ بلفافتنا لتمنعني مِن الكتابة.. دفعتني لأن أكتبَ لكنّي لم أكن أكتب لنفسي مثلما تفعل أنت.. بل أتحايل على قطيعتك وأكتب إليك.. وستجد ما كتبتُه في الكُتيب الذي يحتضن هذه الرقاقة.. كنت أزاوج بين شوقي إليك وما أعيشه.. كتبتُ ذلك وحلمي أنّنا يوماً سنقرؤه معاً.. أن ألقيه على مسامعكَ.. وهذا أنت تحرمني مِن حلمي.. وهذا أنت تقرؤه وحيداً.. لتعرف مَن كانتْ تكاتبك بعد أن كشفتُ لك عن نفسي.

حين كنتُ ألتقيكَ.. وفي كل لقاءٍ أراكَ عطوفاً.. رقيقاً.. بل ودوداً محباً.. وأجد نفسي غير مخطئة حين عشقتكَ.. ولذلك خشيتُ أنْ أفقدكَ إنْ كشفتُ لك نفسي.. كنتُ أنتظر أن يكتشفني قلبُكَ.. أو أنْ يأتي التعارف بشكلٍ تدريجي.. ظانةً بأنني قادرة على شفائكَ مِن عشقِ كائنٍ وَهْمِي.. كائنٍ خلقَهُ عقلُك.

طيلة سنوات كنتُ أخاف أن يقع ما أكتبه بين يدي إحداهن.. بعد اليوم لم يعد ما أخافه وقد أمسى بين يديك.. لا أعرف ما أقول وأنا أفارق برج السطح.. غير أنّي أعذر من يسعى وراء أوهام".

كالجمر كلماتُ تلك الرقاقة تحرق كبدي.. استبدَّ بي غيظٌ ثقيل.. وضعتُها جانباً في حَنَقٍ غير مصدقٍ أنّي ارتكبتُ تلك الرعونة.. وأنَّ كاتبة الرسائل ليستْ شوذب كما كان إيماني؟ لكن لماذا.. هل حقاً شوذب وهم؟

تبخرَّ يقينٌ يسكنني منذ سنوات وسنوات.. لماذا كان عليها أن تكابد كل ذلك العناء في مودتي؟ أيُعقل أنْ يعشق الكائن دون دوافع؟ كيف تحملتْ كل تلك اللقاءات؟ أم أنَّ النساء كائنات غريبة الأطوار؟

-٣-

فتحتُ كُتيّبها بأصابع مُرتجِفَة.. أُقلِّبُ صفحاتِه برهبةٍ وخوفٍ ممّا يحتويه.. أسأل نفسي: هل حبي لشوذب فاضَ ليشملها؟ أم أني لا أحب إلا نفسي؟ ولذلك تجاوبتُ مع أول نظرة صادفتُها؟ أم هي الوحدة؟ وجدتني لا أحب أحداً حتى نفسي! عند ذلك هدأتُ قليلاً وأدركتُ أنَّ في أعماقي كائناً متقلباً. تمنيتُ لو أني لم أكن قاسياً عليها..لكن لماذا لم تصرخْ معلنةً عن بقائها؟ هي تعلم أنَّ لها حقَّاً عليَّ لو أنَّها رفضتْ تركي.. ماذا كنتُ سأفعل؟ هل

سأجبرها؟ أم سأتركها تبقى؟ سأسألها المزيد مِن حكاياتِها عن نفسها.. نعم عنها هي.. وعن اليامي.. وذي الساق؟ أم أنَّ اللقاء سيتفاعل ليسير كُلٌّ مِنَّا في نفس الطريق الذي حدثَ بيننا؟

انكفأتُ أُقلِّبُ صفحات كتيبها.. كنتُ متلهفاً ومرعوباً عَليَّ أجد نفسي التي أبحثُ عنها منذُ وعيتُ:

"عظمة رب الأكوان تتجلى في سرائر خلقه.. وتزهو ببهاء باطنه وظاهره.. فسبحان مَن له الشأن في جميع خلائقه.. الرحيم بعباده. الخالق لِمَا نرى وما لا نرى في أكوانه.. فالق الصبح مِن الظلامِ وخالقِ كل شيءٍ بقَدَرٍ وانتظام. هو الله فيَّ وفيك.. حتى لو أنكرتَهُ.. فهو مَن يجمع ويفرق.. وهو باذر الود في القلوب.. مَن علَّق قلبي وجعلكَ تُذِلُّه.

هل كنت تحسب بإبقائكَ لتلك اللفافة قتلَ أشواقي إليكَ؟ أم قتلَ شوقٍ كنتُ أظنه فيك.. لكن لماذا؟ ذلك السؤال الذي وددتُ معرفة الإجابة عنه.. لماذا احتفظتْ بلفافة كانت ساقية الحياة بيننا؟

في الأيام الأولى لتوقفكَ عن الرد ظللتُ أنتظر.. ثم مرّت الأيامُ والشهور.. وأكملتَ سنة على انقطاعك.. بعدها أدخلْتَني في حيرة.. أردد: لم يتوفاه الله.. ولم يهرب من ذي جبلة! فماذا يشغله؟ كيف يقضي وحدته؟ أم وجد شوذبه واستغنى عني؟ لكن كيف؟ ليلهبني الشوق وتحاصرني الظنون.

ويالدهشتي حين كان حضورُكَ يزداد كلما أمعنتَ الغياب.. كنتَ بداخلي كما تشعر الأم بجنين أحشائها.. أشتم رائحةً آمنتُ بأنَّها لك.. هكذا تخيلتُ لكَ رائحة.

وكثيراً ما يحضرني تذمرك المُثْقَل بجواباتك.. وتلك العاطفة والشوق ما لبثتْ أن كوَّنتْ فيَّ روحاً هي روحك.. لذلك حين كانتْ تعصف بي المُلِماتُ أُحسُّكَ جِواري.. وفي لحظات وحدتي أشعر بكَ تجالسني.. حتى كلماتي أضحتْ شبيهة بكلماتك.. فهل يا ترى هل ما أكتب هي كلماتك أم كلماتي؟

سارت الأيام وأنا أبحث عن فرصة أفي بوعد لقياكَ.. تتابعتِ الشهورُ لأدركَ بأنكَ كنتَ جاداً في قطيعتك.. ستقول بأنّي مَن بدأ حين كانت رسائلي إليك تنقطع لفترات.. لأكتب بعدها مبرراتٍ بعد كل غياب.. وعشمي أنك تعرف وتقدِّر حياة جواري ذي جبلة.. فقد شرحتُ لكَ مراراً أنَّ الموتَ ملتصقٌ بشهيق وزفير كل جارية.

تركتَني غير مُصدقةٍ أتساءل: هل نضبَ شوقُكَ الذي كنتَ تردده عليَّ؟ أم أنك شُفيتَ مِن وَهْمِكَ؟ وإنْ شُفيتَ لماذا لم تُعلمني كيف أشفى؟ لكن حتى لو علّمتني فلا أستطيعُ طمسَ كلماتِ شوقِكَ مِن كياني؟ قد تكون نسيتني.. مع ذلك فقلبي عامرٌ بكَ وحدك.

تلك اللفافة كانت تعاني من انتظارها بعد أن أبقيتَها لديكَ.. انقلب الوضع وأصبحتُ أنا مِن المنتظرات.. حينها شعرتُ قدر معاناة انتظاراتك. وأتذكر آخر رسالة.. كان ذلك منذ سنوات وسنوات شكوتَ فيها وحدتك طالباً هروبنا معاً.. كتبتُ إليكَ ولم ترد قط.. لأدرك بأنَّ طريقاً جديدة تسلكها روحك.. في الوقت الذي أخذَ قلبي يُتابع أخبارك وكثيراً ما تساءلتُ: أيُعقَل

أنْ يعشقَ المرءُ كائناً دون أنْ يجالسه.. لأعيشَ معكَ رغم قطيعتك.. إلا أنَّ رغبتي في لُقياك ظلّتْ تُلح.

وها أنا أعود بك إلى أول مرة رأيتُكَ فيها.. كنتَ في حضرة الملكة سيدة.. في قصر ذي جبلة.. لا زلت أتذكر هندامك.. هيئتك الغريبة لِرَجُلٍ يُغطي ملامحَه شَعْرٌ كثيف.. كما لو كانت الآن.. وأسمعُ صوتَ الملكة يؤنبك.. يُريكَ ما عليكَ صنعه.. يختار لكَ اسماً جديداً (صعفان).. يطلب منكَ طمس ذاتك.. أن تنسى ماضيك.

أثناء تلك اللحظات كنتُ أتأمل ارتباكك.. أصابعك المرتجفة.. نظراتك.. لم تتكلم ولم نتعرف إلى صوتك.. حتى ملامح وجهك ظلت لغزاً. انتهت المقابلة وقد ظننت بأنك عابر.. بل وللحظات حسبتها شفقة مني.. لكنه الليل مرجل الأحاسيس.. أمست هيئتك حاضرة.. سألت في اليوم التالي عنك.. لأجد أن أكثر من جارية تتحدث عن ذلك الكائن الغريب.. وبعضهن لولا الخوف لسألن عنك ووصلن إليك.

عرفتُ بعد ذلك بأنك جُلبت من صنعاء.. بعد أن أهدى مستشار مولاتي كتاباً في الحب إلى إحدى جواريها المقربات لعرضه على الملكة التي سحرها جمال صنعتك.. فأشارتْ على المستشار بجلبك واستخدامك كناسخ لرسائلها.

من أعمالي استلام وإرسال البريد.. ومن أول رسالة نسختَها أنت سحرني رسمك لحروف الكلمات.. ونقش الحواشي وتلوينها.. لا أعرف بعد ذلك إلا أنَّ شيئاً ما دفعني للكتابة إليك.. لينفخ رَدُّكَ فيَّ روحاً جديدة.. تكتب بقلبٍ مُحْرَق.

كنتُ سعيدةً رغم أنك تكتب لغيري.. ظننتُ في بادئ الأمر أنها لي وأنك تغالط لتجد لذلك النوح والشكوى صدىً ومستقراً في نفسي.. كان يعجبني أن أتوهم أنها إليَّ رغم إصرارك.. ورسالة بعد أخرى تحولت المشاعر إلى ود وحلم بك.. وفجأة تنقطع رسائلك.. لكنها ألطاف الأقدار تخبئ لنا ما يسرنا".

أحسست بمُضغة ألم تستقر بداخلي كلما توغلتُ بصفحات كتيبها.. لم أستطع مواصلة القراءة.. تملكتني رغبة للبكاء.. عقدتُ الشريط الحريري.

-٤-

كُتيبها يغرقني في مزيد من الألم.. أهرب من برجي لأتأمل ذلك الفضاء الأزرق.. أشعره يمتص عذاباتي. أتخيل عيني فارعة تتأملانه.. أم أنَّ شوذبَ وَهْمٌ؟ نعم هي وَهْم! جبال بسكونها.. وديان غارقة بخضرتها.. أم أنها تتواطأ مع قتامة ما بداخلي. أطوف أركان السطح الواسع أرى ما يحيط به.. يدعوني كتيبها.. أعود بشوق للألم.. ألتقطه في وجل ساحباً شريطه:

" وأتردد في كل لقاء أن أكشف نفسي خوفاً أن أصدمك.. وأؤجل سؤالي عن اللفافة على أمل أن نسكن إلى بعضنا.. وأتذكر أول لقاءاتنا كان لحَدَثٍ لم أتمنَّ حدوثَهُ إذْ أعلَنَ قصرُ

ذي جبلة وفاة الابن الصغر بشكلٍ مفاجئ.. ولمْ تقام مظاهر عزاء.. ولا ملامح حزن.. اختفى الابن الثاني بعد أن أظهر مقاومة منع والدته لأخيه الخروج.. مهددا لها بالحجر عليها.. مطالبا منح الملك صلاحيته وإنهاء وصايتها عليه.. رأت فيه خطرا قادم.

اعتكفت الملكة بعد رحيله أياماً حُزْناً عليه.. خلالها فاجأتْني "بيلسان" إحدى جواريها المقربات بالسماح لي بالهبوط ضمن جوارِي البريد.. واجهتكَ وجهاً لوجه.. فرحتُ بأول لقاء رسمتْه الأقدارُ لنا.. وتأملتُكَ.. وسمعت صوتك.. وفي كل مرة كنتُ أغالب نفسي التواقة لأنْ تخبرك مَن أكون.. لكني فضلتُ ألا أُفصِحَ خوفاً على يقينٍ يسكنك.. أو ربما إشفاقاً بك!

لحظة هبوطنا أخذتُ أكتشفُ زوايا داركَ.. تلك النافذة التي كتبت في جواباتك عنها. ذلك المكان الواسع.. في البدء لم أستوعب أنكَ لستَ مَن يراسلني.. كانتْ عيناك كل شيء.. أحسستُ بقلبي يسقط لحظة أن التقت عيوننا.. لأتماسك خشية مما يتفاعل بداخلي.. وكي لا يلحَظ أحدٌ دوار نشوتي.

مكثتُ أتأمَّل هيئتكَ التي رأيتُها أكثر من مرة.. شككت في عينيك حين لحظتُ نظراتها باردة.

وصباحاً بعد صباح أسمع صوتك حتى أيقنتُ بأنكَ أنت.. لتستقر في ذهني إنساناً جديداً بروح لا تفارقني.. وهكذا لأيام أعيش تلك اللحظات.. نجحت خلالها بكبت ما عليَّ من وَلَه.. وإن كانت نظراتي تفضحني.. ظننت في بداية الأمر بأنك تَعرَّفتَ عليَّ حين بدأت عيناك تلاحقني.. مفضلاً الاكتفاء بنظراتك الحيرى.

عادت الملكة من اعتكافها لأعود كما كنتُ للبريد.. أتوقع بأن تفاجئَني بعودة تلك اللفافة.. لكنكَ خيبت ظني وأدركتُ بأن نظراتك التي كانت تلاحقني إنما كانت تلاحق جارية ابتسمتْ لك ليسَ إلا. ثم فكّرتُ أن أكتب لك قُصاصة أعترف لك.. أسألك أن تعود للكتابة إليَّ.. لكنِّي خفت واكتفيتُ باستحضارك في حروف ما تنسخه.. يعاودني أمل رؤيتك.

وسبحان الله الشفيق بقلوب عباده.. سبحان مُجري الدماء في العروق وعالم بسرائر خلقه مَن لا يستقر على حال.. إذْ أنَّ طامة كبرى قد برزتْ مِن جديد.. وكأنَّ القدر يُحدِثُ حَدَثاً كبيراً ليكون سبباً في تجدد رؤيتك.. فبعد أشهر مِن رحيل الابن الأصغر للملكة تطور عصيان ابنها الملك وخرج من جناحه.. ليلاحق أمه ويهددها.. وكانت شديدة الحرص على ألَّا يتسرب ما يدور داخل القصر. استدعتْ بيلسان وحدَّثتها عن صدق شكوكها حول السلطان سبأ حين اكتشفَتْ بأنه وراء عصيان أولادها.. وأنّ تلك المصائب تحركها مجموعة مِن جواري أهداهُن إليه سبأ.. وأنَّ أخبثهن استمرّت في تحريض الملك على فرض سلطانه.

وقالت الملكة تحدث بيلسان: جلستُ إليه محاولة إقناعه بالتريث بعض الوقت.. وفي كل مرة كان يظهر الطاعة.. ثم يأتي بما لا يسرني.. وقبل أيام تحدثتُ إليه:

- أنت الملك ولا ينازعك على سلطانك أحد.. فقط هي سنة أو اثنتان يشتد فيها عودك.. لكنه قاطعني على غير عادته صارخاً:

- لا.. لن أنتظر سنوات.. ولا أشهر.. هي أيام تعلنين بعدها للجميع بأني قد خرجتُ أُمارِس سُلطاني.. وأنَّ وصايتك انتهت.. أيام ولا أكثر من أيام قليلة.

وقالت بأنها حاولت تهدئته.. وأخبرته بأنها لا تريد له إلا أن يكون عظيماً.. لكنه عاود مقاطعتها مرةً أُخرى رافضاً استمرار سماعها.. متوعداً بالخروج عنها.. مُردِّدةً : لم يكن ذلك هو ابني الذي ربيته على السمع والطاعة.

وقالت أن تلك الجارية المكلفة من السلطان وراء كل ذلك الخراب.. بل وأنها تسعى لإقناعه بأنني مَن تخلّصتُ مِن شقيقه الصغير بعد أن أعلن عصيانه.. وأنّه التالي إنْ لم يبادر.. وأخذتْ تلك الملعونة تهامسه:

- هو الموت.. ألم تسأل نفسك كيف مات شقيقك محمد فجأة؟! والسبب الوحيد أنه واجهها لأجلك بعد أن قيدت تحركاتك.. الكل يعرف أنها لا تخشاك.. كما هو أخاك.. نعم محمد الذي يقول الجميع بأنه يشبه أباك.. وأنه لو كان في مكانك لما قبل بوصاية أُمِّك يوماً واحداً.

-........!

- الجميع يعرف بأنه لم يكن مريضاً.. ألم تسأل نفسك كيف؟

- لكنها أمي.

- الملكة لا ترى في مجدها لا ابناً ولا زوجاً إلا أن تكون ملكة.

صمتَ لكلامها.. أدركتْ بأنها استطاعت التشكيك في عاطفة أمومتي.. وأنَّ الخوف قد تسرَّبَ إلى أعماقه.. أردفتْ مستغلةً انكساره: أنت تعيش ياسيدي في جناحك ولا تعرف ما يدور في القصر الكبير.. بل وتنتظر حتفك.. إنْ لم تسارع إلى التخلص منها ستلحق أنت بمَن سبقوك.

صمتت الملكة تتأمل وجه بيلسان.. كمن تريد جس رد فعلها. وكعادتها ظلت صامتة.. عاودت حديثها بصوت متهدج: أنتِ بمقامي.. وقد خَبَرتُ إخلاصكِ.. تركتُ الأمر لكِ.. فقط أريد كل شيء بعيداً عني!

كان صوتُها بارداً وحزيناً.. وقد تحوّلتْ شقرة وجهها إلى صفرة باهتة.. كما لو أن الدم تسرب خارج بدنها منذ حين.. أضحتْ عيناها تنظر خلف الأشياء. غشتني رعشة وأنا أتساءل ماذا عَنَتْ بكلامها؟

ضمتني بيلسان إلى مساعداتِها.. لم أكن سعيدة لذلك.. عبرتُ ومجموعة من الجواري خلفها أروقة القصر بصمتٍ حزين. أمرتنا بسرعة إفراغ جناح الملك من الجواري.. لم نجد مَن تقاوم أو تتمنع.. حتى هو بدا محتاراً لما نقوم به.. خرج صوتُه ناعماً: ويحكن ماذا تصنعن؟ ألا تخشين عقاب الملكة! كان يكرر ذلك بصوتٍ مُرتبكٍ.. وحين طلبتْ منه

بيلسان مرافقتنا سار طائعاً كمَن يُزفُّ وسط حاشيته.. أنزلناه عبر سلالم الطوابق السفلية حتى شونة الغلال المنشأة حديثا خلف القصر.. وما إن هبطنا السلالم حتى انهار.. ليُحمل على سواعدنا حتى قاعة داخلية حيث جُمِعَتْ فيها جواريه المتواطئات. لتصعد أرواحهن مرافقات لروحه إلى سموات العدم.

وللمرة الثانية تلتقي عيوننا.. وأظنك تتذكر تلك الليالي القليلة التي كنت أتنفس نفس الهواء الذي تتنفسه.. أرسلتني بيلسان ومجموعة من الجواري لمساعدتك على انجاز رسائل العزاء.. تمنيت لو أن تلك الأيام طالت.. كانت فيهما عيناك مَن تتبعاني.. لكنها أيام قليلة ثم افترقنا.. انفضَّ ذلك الجمع.. لأعود إلى سابق مجالسة الملكة التي أظهرتْ جَلَدَها هذه المرة.. ولم تعتكف حُزناً أو تنزوي كما فعلتْ مع رحيل ابنها الأصغر محمد.

عشتُ أستحضرك لأيام طويلة.. هذه المرة كنت أشعر بأني قد تشربتك.. فلم تكن لحظات عابرة.. بل امتدتْ أياماً متواصلة. بعد ذلك هيامك بشوذبك كما كنت تكتب في رسائلك.. وبدأتْ قناعة تحتلني أنّ الرجُلَ كائنٌ يلهث وراء غرائزه.. وأشك أن له أكثر مِن قلبٍ كاذب.. أم أنك تلعب لعبة لا أعرفها؟ وتعرف بأن كاتبة الرسائل ليستْ شوذب.. أو أن تكون ابتكرتَها مِن أجل إثارة غيرتي؟ وتعرف بأني الكاتبة ومع ذلك استمررت تلعب لعبتك المملة. كنت مشتتة الأفكار.

ظللتُ أحلم بأنه سيأتي يوم أضع بين يديك تلك التساؤلات.. وأسمعك تحدثني.. عندها سأكتشف جميع حيلك ومتاهاتك.. وربما نضحك كثيراً.. وقد نحزن أيضا.

في تلك الأيام حدثت أحداث قد تعرف بعضها لكنك تجهل أكثرها.. ومنها أن الملكة دعت مستشاريها ودعاة المذهب بعد رحيل ابنها الملك الشاب بأيام حتى تطلب منهم نشر إعلان كفالتها لجميع المؤمنين وكان ذلك منها لقطع الطريق على السلطان سبأ الذي ظلت متوجسةً منه شراً.

وما لا تعرفه أنها جمعت جواريها في ليلة مقمرة.. صَلَّتْ بهنَّ حتى الفجر.. حدثتهن بأنّ مملكة جزيرة اليمن لهن وحدهن دون شركاء أو أوصياء.. وأنها الملكة الحرة التي لا تعتمد على جيش يتبعها من العسكر.. وأنها لا تعتمد إلا عليهن.. ولم تسع ولن تفعل على امتلاك عسكر في عنابر قصرها. ثم أخذتْ تتحدث إليهن: جميعكن شريكاتي في مملكة تخصنا. شارحةً أهم المخاطر وطرق مواجهتها. متوقعةً تكرار مطالبة السلطان سبأ الصليحي بالمُلك.. كما عدّدَتْ احتمالات مساندة بعض أمراء القلاع والحصون له.. وخطر تحرك النجاحيين من زبيد لاستغلال الخلاف والصعود لضم الجبال العالية إلى إمارتهم.. ولم تستبعد أن يستغل دعاة المذهب الزيدي في صعدة لينشروا دعوتهم ضد وجود مملكة نساء في جزيرة اليمن.

معلنةً بوضوح: اليوم هو يوم فاصل وعلينا حماية جزيرة اليمن.. وألا نسمح بإعادتنا إلى كائنات مستلبة.. إلا إذا سكن الفشل أعماقنا.. مستشهدةً بقول الله في كتابه العزيز: "إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين مَن آمن بالله واليوم الآخر وعملَ صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون".. وأنتن المعنيات بخطاب رب

الأرباب.. وليس المعني بذلك الرجال دون النساء.. ومَن تستبطن تأويل قوله عز في علاه: "ألا إنّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون" تدرك من قول الله عز وجل بأنّ المعني بذلك ليس الرجل.. إنما الإنسان.. وعلينا أنْ نمضي على طاعته.. ولا نعطي أولئك المتسلطين فرصة كي يعيثوا بنا فساداً.

ها قد مضى على حكمنا أكثر من عشرين سنة.. بداية بمولاتي الملكة أسماء أجل الله منزلتها مع الصالحات.. التي كان سلطانها مستتراً تحت ولاية سيدي الملك علي الصليحي.. ثم سرتُ أنا على نهجها تحت ولاية الملك المكرم.. بعد ذلك كوصية على ابني علي.. خلال تلك السنون كنا نسافر لهذا اليوم.. وها نحن نصل إليه.. أنْ تحكمن دون شريك.. عماد حكمكن العدل.. واليوم حقاً عليكن أنْ تستمررن لتثبتنَ أنّكُنّ قادرات على المُضي بجزيرة اليمن كواحة آمنة يُعلى فيها ذكر الله.

-٥-

صدقتْ مخاوف الملكة.. إذْ لم تمضِ أيامٌ حتى وصلت طلائع قبائل السلطان محاصرة ذي جبلة.. مطالبة بتنفيذ وصية الملك المكرم. لنفاجأ بعد أيام مِن الحصار بانسحابها.. ظنَّ الجميع بأنه اقتنع بعدم أحقيته.. لكن المفاجأة كانت قاسية على الملكة حين وصل رسُل مولانا أمير المؤمنين المستنصر بالله برسالة جاء فيها:

"وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُهُ أمراً أنْ يكونَ لهم الخيَرةُ مِن أمرهم ومَنْ يعصِ اللهَ ورسولَهُ فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً" وقد زوجناكِ مِن الداعي الأوحد المنصور المظفر عمدة الخلافة أمير الأمراء أبي حمير سبأ بن أحمد بن مظفر الصليحي على ما حضر مِن المال وهو مائة ألف دينار ذهباً عيناً.. وخمسون ألفاً أصنافاً مِن تُحف ولطائف وطيب وكساوى".

لترفع كفيها عالياً لمَن حضروا مجلسها: "أمَّا كتاب مولانا فأقول إني أُلقِيَ إليَّ كتابٌ كريم إنه من مولاي أمير المؤمنين.. وإنه باسم الله الرحمن الرحيم.. ولا أقول في أمر مولانا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعةً أمراً حتى تشهدون.. فصبرٌ جميل.. والله المستعان على ما تصفون".

ليتبين أنّ السلطان سبأ كان قد أرسلَ سِرّاً رسولاً طالباً مِن أمير المؤمنين تزويجه بالملكة حتى لا يكون هناك صراع.. بينما ظلّتْ مظاهر الحصار لذر الرماد على العيون.

رضختِ الملكةُ بعدها وأفسحتْ للسلطان أحد الدور الكبيرة.. لتُزفَّ عروسُه إليه.

أسرد عليك حكايات لا تعرف بواطنها.. ظل الحنين إلى لقاء لا فراق بعده يراودني".

زادتْ كلماتُها مِن تعنيف نفسي.. معاهداً إنْ عادتْ لن أتركها.. غافراً وشاياتها.

لففتُ شريط كتيبها وتمددتُ منهكَ الروح لا أدري كيف أهرب من تفكيري بذاتي وذاتها.. محبطاً سحبتُ كتاباً آخر.. أقلب صفحاته.. أقرأ فلا أفهم.. ألتقط عنواناً ثان فلا يروق لي شيء.. وقد ذهبتْ بي بعيداً.. باحثاً عن ذاتي القديمة.

وهكذا أقلب وقتي بين قراءتها وكتيب شريط الحرير الذي تشقيني حكاياته.. تحيلني شخصاً لا أعرفه.. أرى قلبها يتنفس بين صفحاته.

أفكر في حياتي الماضية إلى يوم هروبي.. فلا شيء غير الذكرى تشغل أوقاتي هنا.. أتذكر أنها تركتني مريضا منهكاً كما لو أنها جاءت من أجل هذياني.. أمسى ما حولي موحِشاً.. جدرانٌ ضاقت بي.. قررتُ الهرب.. خرجتُ مع أذان الفجر أحمل بقايا مرضي.. أسير مبتعداً.

لم تكن لي من طريق غير سفوح الجبال الجنوبية.. لحظتها رأيتُ الريح تداعب أشجارها.. أتجنب المزارعين وعابري السبيل.. ابتعدتُ حتى اختفتْ ذي جبلة وتلك الجبال المحيطة بها.. بدتْ قُرىً جبلية أخرى لم أرها مِن قبل. سرتُ حتى وصلتُ محجَّة العابرين.. مشيتُ بها حتى وصلتُ مدينة الجَنَد.. دخلتُ جامعها الكبير.. ولأيامٍ كثيرة شاركت حلقات دراويشه وصلواتهم.. ظننتُ بأني في المكان الذي لن يتعرَّف عليَّ فيهِ أحد.. وأني سأظل إلى ما شئتُ.. لكنهم تتبعوا وجهاً دون ملامح يغطيه الشعر.

أعادني عسكر حصن التعكَر إلى ذي جبلة.. فضلتُ الصمت على أسئلتهم.. وأتذكر بأنّي وقفتُ في حضرة الملكة.. بمشاعر عارية.. عيون صفوف الجواري تبحث عن صوتي.. لم أرفع وجهي. همسات الجواري فقط تصل حواسي.. ليعلو صوتٌ يُبشِّر بحضورها.. انكَسَرَ صخبي:

- ظننتُ حين أبلغوني بغيابكَ أنّ يكون مرضكَ قد تاه بكَ.. لكنْ أنْ تصل إلى جامع الجند فهذا أمرٌ مُريب.. وأسألكَ ماذا كنتَ تنوي؟ ومَن دفعكَ إلى ذلك؟ أسمعُكَ.

أحسستُ بترقُّبِ كل مَن في القاعة لصوتي.. تعالى وجيبُ قلبي.. تشجعتُ:

- عطف الملكة في أنْ تسمعني دون أحد.

- فَلْيكُنْ؟

وسريعاً ما ارتفع كفاها بتصفيقتين.. لتفرغ القاعة.. عدا اثنتين.

- أتسمحين لي أن أبدأ مِن أول الحكاية؟

- أسمعك.

- جلبني إليكِ مستشارُكِ الراحل.. كان قد أوحى لي بأني سأكون أميراً ووعدني بضبط مَن هدموا حانوت معلمي بصنعاء.. لكنه رحل دون أن يفي.

- أمْرُ ذلك يسير.. وماذا بعد؟

- لم أتصور أن تكون ذي جبلة حبسي.. ولم آتِ طمعاً في شيء.. بل رفضت مرافقته لكنه اقتادني عنوة.. ضاق بي الحال.. أعيش دون أمل.. فما يبقيني في ذي جبلة ولم يعد لحياتي أي معنى؟ وهاهي الحياة والموت يتساويان.. وها أنا بين يديك اصنعي بي ما تريدين.. فلا يهمني إلا رضاكِ.

- ولماذا أحدثتَ ذلك النقب؟

لحظتها أدركتُ بأني في مأزق.. وأنّ فارعة قد وشتْ بهذياني.. خفضتُ صوتي أتوسل:

- أعترف في أن ظاهر ما قمت به خيانة.. لكني لم أكن أبطن شيئاً غير معرفة مصدر الصوت الذي جعلني لا أنام.. وثقي بأني لم أفكر يوماً بخيانتك.. هو الخوف ما دفعني لحفر ذلك النقب.. لم أكن أتصور أن يكون للريح صوت مرعب.. حتى فتحت ذلك النقب.. ولم أتوقع أن يقودني ذلك إلى عفنٍ كاد يقضي عليَّ.

- وماذا تنتظر مِنَّا؟

- صفحَكِ وعفوَكِ.

صمتتْ.. وبعد حين رفعتْ كفيها.. لتتدفق جموعُ الجواري وتعود إلى القاعة ويعاود الهمس.. ليعلو صوتُها مِن جديد:

- هذه المرة سنغفر لك زلتكَ.. وإياكَ وتكرارها.

كنتُ أتوقع ذلك.. فقد شعرتُ بأنها أحسَّتْ بما يعتمِل بي. عدتُ دارَ النسخ لأزيل عذاب أيام.. نمت كثيراً.

بترت ذكريات الأمس.. حين شعرت بحنين لمواصلة قراءتها.. أحل الشريط الحريري.. مواصلا البحث عن إيمان تاه.

-٦-

" تعودنا بين وقت وآخر أن ترسل الملكة هداياها إلى أمراء الحصون والقلاع.. لكنها اليوم تأمرنا بإلباس بيلسان من أفخر ثيابها وأجمل حليها بعد أن فتحت صناديقها.. لتُزَفَّ مِن قصر العز إلى دار ضيافة السلطان سبأ.. وسط حشد كبير من الأمراء ووجهاء البلاد على خيلٍ مُعنّقَة.. تحفها عشرات الخيّالات.. بُسُطٌ فُرِشَتْ بها الساحةُ.. تسابقها حاملات المباخر والرايات البيض.. صفوف الحناجر الصادحة والقدود الراقصة.. حين أنزلناها.. رشَشنا بين قدميها قوارير ماء ورد وعطر هندي فواح.. ونُثرتْ الزهور بين قدميها.. وصُفت صفوف البيض لتخطو عليهن.. صعدنا بها درجات أفضت إلى حجرة مضاءة بالمشاعل والمباخر.. فرشت بالطنافس وقد انتصفها سماط عامر بالأطعمة والفواكه المتنوعة.

بدا السلطان بشفته المشرومة كائناً جلفاً.. ينظر إلينا بعينين جاحظتين. هامستني بيلسان وهي ترتجف: أرجوكِ البقاء.. أفزعني صوتها المتضرع. تركناها بين يديه.. وبقيتُ في حيرة من توسلها.. لكني انتظرتُ في حجرة مجاورة طوال الليل.. ولم يأتِ الفجر حتى سمعت صوتها.. كانت مبتسمة.. رافقتُها إلى حجرة الاغتسال.. بينما كان السلطان يصلي صلاة الفجر لاهجاً بالشكر والثناء على ما وهبه الله من نِعَم.. ودعته بيلسان وقد تعالت أصوات الطبول وزوامل رجاله إيذاناً بالرحيل. لنعود بها في زفة أخرى إلى القصر مع بزوغ الشمس. مِن لحظتها أخبرتني بأنها استأذنتْ مِن الملكة أنْ أكونَ إلى جوارها حتى يقضي اللهُ أمْرَاً.

لم ينتهِ الأمر عند ذلك.. فكلما غادر السلطان ذي جبلة عادت القصر تنتظره حتى عودته.. فما إن تُسمع الطبول وزوامل رجال جبال الشمال قادمون حتى نلبسها زينتها ثم نزفها في أبهى حلة.

كانت هي الملكة في حضوره.. ألحظها تائهة كما لو كان هَمٌّ ثقيلٌ يجثم بداخلها.. ألتقي حزن ناظريها.. ودوماً تقول لي: أشعر بشقاءٍ لم أشعر به منذ زمن.

لم تكن بيلسان تشبه أحداً بين الجواري.. فهي نادراً ما تُفصِح عمَّا بخلدها.. حين أتابع نظراتها كمَن تعيش في عوالم لا نراها.

-٧-

مضتْ خمس سنوات منذ زُفت إلى السلطان سبأ.. تودعه لتعود القصر جارية.. وحين يعود ذي جبلة تزف ملكة إلى دار ضيافته.. لتُعد الولائم وتوزع الصدقات. تقضي ليلتها بين ذراعيه وعند الفجر يتجه شمالاً تسبقه طبول الفجر.

إلى صباح ذلك اليوم.. حين اقتربتْ بعد وداعه ترتجف.. وقد بدتْ شفتاها جافة.. احتضنتُها ظانَّةً بأنّ حُمّى أصابتها.. سألتها.. فهمستْ بصوتٍ مُنكسِر: السلطان يعرف منذ أول ليلة بأنَّي لستُ إلا جارية! كاتماً ذلك حتى لا يُشاع بخديعته. وما حيَّرني أنه ظل يعاملني كملكة.

ثم تهدّجَ صوتُها: ما أقساه على نفسه! سنوات يتحمل ذلك.. متفنِّناً في تبجيلي. لحظة بوحه أحسستُ بخجلٍ يسحقني.. زلزلَ كياني.. متذكرةً عجرفتي في معاملته.. كما لو كان مجرد رجل عادي وأنا سيدته. كنتُ أفتعل الغضب.. بل وكثيراً ما تلفظتُ بكلماتٍ جارحة.. يقابل ذلك بمزيد من التودد.. يصفني بمليكته. حاولتُ بعد أن كشف سره أنْ أعتذر له.. انتحبتُ بين يديه.

قالت بأنه لم يغير مِن معاملته وأنه طلب منها كتم ذلك السر.. ثم حدثها عن رغبته في حكم جزيرة اليمن.. مبرراً أن ذلك حقه تبعاً لوصية الملك المكرم.. وأنها ستكون زوجة الملك بل وستكون في مقام ملكة إذا ما ساعدته.. كما أخذ يعِدُها بحياة رغيدة وهانئة.. وبدورها أظهرت سعادتها البالغة.. لتتطور رغبته ويوحي بضرورة التخلص مِن الملكة..

واضعاً لها خطة لتنفيذ ذلك أثناء غيابه. ولم يكن ليشك بأنها تُخبِر الملكة بكل ما يدور.. لتوجهها الملكة بأنْ تتودد إليه طالبة اصطحابها إلى صنعاء قبل تنفيذها للأمر.. شارطة عليه السرية وعدم البوح بأنَّ الملكة غادرتْ ذي جبلة.

دُقّتْ طبول الرحيل.. نُفختِ الأبواق وسط عتمة فجر ذي جبلة.. بزغت الشمس مِن على جبل بعدان وكنا نعبر خضرة وديان السحول.. ليهرع لسماع صدى الطبول أمراء تلك القلاع والحصون للسلام على السلطان.. مع صعود الشمس عرشها كنا نرتقي سفوح نقيل صيد.. وكلما مررنا ببلاد يستقبلنا أمراء آخرون مطلقين عليه صفة الملك.. والبعض يصفه بملك ملوك جزيرة اليمن.

تحدثني دوماً ما يُردِّد على مسامعها: أنتِ ملكتي وزوجتي. لتقارن بين عدة حيوات مفترضة: أن تكون زوجة ملك.. أو أن تعيش تحت أقدام سيدتها. كانت تلك الحيوات تتنازعها.. تستعرضها.. ولأول مرة تشعر بأنها تستطيع أن تصنع قدرها.. لتفضّل أن تبقى تحت قدمي الملكة.. وهي الأقرب إلى نفسها. تهمس جازمة بأنَّ الملكة تعرف ما يدور بعيداً عنها.. بل وترى ما نصنع. ولذلك تشعر بالخوف من أي زلة حتى في تفكيرها.. ظانة أنَّ لها جِناً مسخرين.. يتابعون جواريها أينما ذهبن.. وأنَّ ما يصلها يفوق رسائل جواريها مِن أصقاع وأطراف البلاد.

قضينا وبيلسان ثلاثة أشهر في صنعاء.. إلى ذلك المساء حين هامستني: استعدي وبقية الجواري فقد حدثني عن نيته العودة إلى ذي جبلة بعد أيام.. علينا إنجاز المهمة والرحيل غداً الجمعة.. خرجتُ مع الجواري نسبقها إلى السوق لنبتاعَ خيولاً وكسوة فرسان.

مع صلاة الجمعة لحقتْ بنا بيلسان مضطربة.. تستحثنا الإسراع بالخروج مِن صنعاء. سألتُها مستفسرة: كيف كان صباح مولاي السلطان؟ اكتفتْ بنظراتٍ بلهاء.. وصلنا أطراف صنعاء يحفنا الصمت.. كنتُ أحاول إغوائها بالكلام.. دون جدوى.. سرنا في أرضٍ منبسطة.. نسرع الفِكاك مِن أي تعقب.. بينما ظلتْ متشرنقة بحُزنٍ خيّمَ علينا.. حاولنا مساعدتها.. اتفقتُ وبقية الجواري على الاستمرار في معاملتها كملكة.. أنْ نطلق حكايات نسليها حتى تتجاوز صمتها.. لكن صمتها كان أقوى.. بين فينةٍ وأخرى ألمح عينين دامعتين.. عبرنا طريقاً مختلفة عن الطريق المألوفة.. ولم تنطق حتى اليوم الثالث ونحن على مشارف ذي جبلة!

- ولِمَ الدموع؟

- لا أعرف.. لكن كل شيء انتهى كما أرادته الملكة!

- كيف؟

- تعود أن يقضي وقتاً في حوض الاغتسال قبل خروجه لصلاة الجمعة.. يغمره الماء الدافئ.. مرتشفاً أثناء ذلك جرعات مِن نقيع العنب. ما إن دخلَ الحوض حتى دعاني كأنه يشعر بدنو أجله.. كنا معاً وسط الماء.. هي المرة الأولى التي يطلب دلك جسمه وسط الماء.. أخذ بمداعبتي وكان اللقاء الأخير.. شرب ما أعددتُه له. لم يخرج بعدها.. راقبته

وقد بدأتْ أطرافه تغوص.. لم يطفُ جسمُه. حاولتُ إيقاظه.. جحظتْ عيناه على اتساعهما.. قبَّلتُه على جبهته باكية.. ثم خرجتُ محاولةً إخفاء خوفي.. نبهتُ العسكر وحراس البوابة أن يستعدوا فالسلطان على وشك الخروج للصلاة.. تاركةً الجميع يستعد لمرافقته كعادته تسبقه الطبول وإنشاد زوامل الحرب.. بينما كنتُ هاربة من نفسي إليكن.

لأيام لم تجلس بيلسان عند قدمي الملكة.. وحين دعتها التزمتْ الصمت.. وقد تحدثتْ إليها: نحن في الحياة رُسُل عابرون ليس إلّا.. فلا تشغلكِ إحدى محطاتها.. انظري دوماً إلى الأمام.. واجعلي الغد شاغلكِ.. ولا تغرقكِ غرائزكِ لما دون ذلك.

ظلّتْ ملتحفةً صمتَها تنظر إلى الأرض.. تعاود الملكة حديثها ضاحكة: بعض النساء كأنثى العنكبوت تلتهم زوجها بعد ليلة غرامٍ ثم تحزن ما تبقى مِن الوقت".

أغلقتُ صفحات الكتيب.. سارحاً في تلك الأحداث البعيدة.. تشدني كلمات فارعة عن بيلسان.. كما لو كانت تحكي عن نفسها.. أم أنها هي؟ خرجتُ مِن بُرجي أزيل هَمّاً تراكم بي.. لأقضي ليلي أنتظر قدوم نُجيماتي الخجلى.

تغمرني ظلمة الصمت.. تحلق بذاكرتي بعيداً بعيداً إلى سنواتٍ خَلَتْ.. إلى ذلك الصباح حين سمعت طرقاً على الباب.. سارعتُ لفتحه.. للحظات وقفتُ متخشباً وأنا أرى ذا الساق أمامي واقفاً.. في البدء ظننتُه وَهْمَاً أو أنْ يكون شبحاً.. تأمّلتُه كان ممسكاً يراع تنباكه كما عرفتُه.. لم أكن أتصور أنْ يعود الموتى.. لم أجرؤ على التقدم نحوه.. ابتسمَ مندهشاً.. ثم سمعت صوتَهُ عالياً:

- هيا احتضني؟

ظل فارداً ذراعيه بغبطة: ألا تريد حتى مصافحتي.. ألم تشتق لي؟!

كان صوته الذي لا أخطئه.. أيُعقل أن يتكلم الأموات؟ أحسست بالأرض تميد تحت قدمي.. ركعت متشبثاً به.. لم أعد أميز ماحولي.. أفقتُ لأتيقن بأنه هو نفسه.. هلعاً مما حل بي.. كما لو كان يبحث عما يزيل شكي.. أتفرس ملامحه المتجعدة وشعلة بياض شعره.. أن أستوعب وقد لف ذراعيه حولي ثم وقف يهز رأسي ناظراً في عينيَّ:

- لقد عدت.. وأتيت لأراك.. هل أنت بخير؟

- أنا بخير لكن رؤيتي لك آخر ما فكرتُ فيها.

- تبدو بحالة متعبة.

- لأني سمعت بأنك مُتَّ.

التفتَ مندهشاً.

- ممن سمعت.. لاحول ولا قوة إلا بالله؟
- من ذلك الغلام الذي حضر ليخدمني.

- وماذا قال لك.. هل قال لك بأنه ابني؟!
- ابنك.. كيف؟
- حكاية أحتفظ بها لنفسي.
- لم تخبرني أنَّ لك ابناً.
- هو ليس ابني.. زلة شيطان!
- لا بد من أنك تبالغ.
- دعنا منه..اشتقتُ لمنادمتك..ألم تشتق إليَّ؟
- بلا... لكني غير مصدق!
- سأحدثك عن غيابي.. وأُسمعك ما لديَّ.
ما إنْ جلستُ جواره حتى تبسمتْ تجاعيدُه: صحيح أني فقدتُ الرغبة بالحياة بعد رحيل سيدي المكرم.
- أحكِ لي أين كنت؟
- كنت في حصن التعكر.
-ولماذا حصن التعكر؟
- إرادة الملكة أن يكون به من يحرسه ويهتم به.. اسمعْ مني الأهم.. لقد قابلت المكرم.
-ألمكرم!
- في البداية اغتظتُ لأمرها بصعودي.. كانت مهمتي مراقبة مَن هناك وإبلاغ الملكة بمَ يدور.. لأكتشف بعد أيام أن الحصن لا يزال مسكوناً.. وقد رأيتُ ساكنيه!
- من رأيت؟
- رأيت مولاي المكرم!
- المكرم؟
- نعم رأيته.
- تهيؤات.
- في البداية ظننتها كذلك.. كنتُ أسمع أصوات خافتة.. شبيهة بهديل الحمام.. ثم ما لبثتْ أن ارتفعتْ لتردد صداها جدران الممرات وسقوف القاعات.. ولأن زوايا الحصن مليئة بأعشاش الحمام والعصافير فقد ظننتُها أصواتها.
من فجرٍ لآخر اتضحتْ تلك الأصوات.. إنها ترانيم جماعية.. ظللتُ أتتبعها حتى سمعتُ كلماتٍ شبيهة بأصوات مصلين.
وهكذا لأشهر أستمع أصواتهم ولا أرى أحداً.. حتى ذلك الفجر حين رأيتُ أشكالاً دخانية تتحرك هنا وهناك.. تقف صفوفاً في إحدى القاعات.. ومرة بعد أخرى بدأتْ تلك الأشكال تزداد وضوحاً حتى ظهرت بهيئات آدمية.. صفوف يصلون خلف رجل.. يركع فيركعون.. يطيل السجود.. ينهض.. وهكذا حتى إذا ما اقترب ضوء الشمس تلاشى كل شيء.
لم يعد لي من عمل غير مراقبة ما يدور.. إلى ذلك الفجر كنت أقف مترقباً جوار أحد الأعمدة.. خيل لي بأني رأيت شبيه وجه مولاي المكرم.. لم أصدق ما أرى.. كان كما عرفته في شرخ شبابه.. ذلك الوجه وقد رافقته سنوات.. ظللت أراقبه لليالٍ طويلة في خوف ورهبة.. متعوداً تلك الأصوات وتلك الهيئات التي تسكن قاعات الحصنٍ وممراته.. لم أجرؤ على الاقتراب.. إلى أن حانت منه التفاتة.. لحظات لم أتوقعها.. لمحني.. رفع كفه

كمن يمسح دمعة.. ثم ابتسم مشيراً أنْ أتقدّمَ نحوه.. وجدتُ قدميَّ تقودانني لأركع جواره.. لم يحدثني أو يلتفتْ إليَّ.. ظل مواصلاً صلواته حتى تلاشى مع بزوغ الشمس.. وقبيل نهوضي رأيتُ كأساً في موطن صلواته.. لا أعرف من أين ظهرتْ.. كانت مليئة برائحة عطنة لم أجرؤ تذوقها.. حملتُ تلك الكأس معي.

- كأس؟

- نعم كأس.. والغريب أنّي لمحتُ شكل كفك على قاعدته!

أشرت إلى كفي:

-هذا الوشم!

- نعم.

- وهل مازالتْ معك؟

- نعم أحتفظ بها.

- ثم ماذا؟

- لأرى مَن في الصفوف المستشار القزم.. أبناء المكرم محمد وعلي. وهكذا فجراً بعد آخر ينظم آخرون بعضهم أعرفهم والبعض أراهم لأول مرة. أَلِفْتُ تلك الحياة.. بل وسعدتُ بها.

بعد تلاشيهم أقف وحيداً.. تمنيتُ أنْ أظل هناك إلى آخر يوم في عمري.. لكنها إرادة الملكة والأمر بتسليم الحصن ونزولنا منه.

- هل تريني الكأس؟

- لماذا؟

- لأصدق ما تقول.. إذ كيف تكون كأسا حقيقة لرجل رحل عن دنيانا؟

- لا عليك. لا تهتم.. اعتبرني أهذي!

تركني ذلك الصباح منشرح الصدر.. وأضحتْ أوقاتي متوازنة بعض الشيء بعد عودة ذي الساق وجلساته.. يستعرض لي حكايات أيامه التي قضاها في الحصن.. وأتذكر بأني ظللتُ لصباحاتٍ غير مستوعبٍ أنّهُ حي.

أعاود النظر إلى وجهه.. أعاود سؤاله عن ذلك الغلام.. أذكّره بما كان يريد البوح به.. يذهب بي بعيداً بحكاياته.. يقول بأنه يأتي إليَّ دون أمر من أحد.. فلا أصدقه رغم أنه لم يعد سجاني.. فقد أصبح يقرع الباب لأفتحه أنا من الداخل.. يجالسني فأشاركه دخانه حتى شعوري بالوجد.. أنصتُ دوماً حتى تصعد الشمس وتتعالى.. حينها يستأذنني ساحباً ساقه.. يبتعد مختفياً عند المنعطف القريب.

أسأله أن أرافقه كي نسير في جولة؟ فيشير بيراعه أنْ لا. أكرر عليه أنْ يفي بوعده.. أنْ يحكي لي عمّا كان ينوي حكيه في ذلك الصباح.. ينظر في عينيَّ مبتسماً في وداعة:

- حتماً سأحكي يوماً فلا تستعجل.

في صوته شيء من الصدق.. وإن ظننتها شراك ينصبها للإيقاع بي؟ وأعرف بأن الجميع هنا وشاة. تمنيت عليه مرة أخرى أن يحدثني عن ذلك الغلام الذي يقول عنه زلة شيطان.. هربَ مِن إلحاحي ليحدثني عن تلك العلاقة التي كانت تربط السلطان سبأ بالملك المكرم..

وأنه كان يعرف أسرار المكرم وزوجته الملكة.. وخاصة سر العلاقة التي ربطتها بمستشارها الشاعر القزم.

-٨-

يدعوني كتيب الشريط الحريري.. يشدني لحمله والخروج لوداع الشمس.. أسحب شريطه متلهفاً.. ناظراً إلى تلك الجبال الخضراء والوديان الداكنة.. نسيم الأصيل يدغدغ جسمي متكئاً على جدار شفةِ السطح المطلة على أخدود الوادي.. أقلب صفحاته:

" بعد مُضيِّ أشهُرٍ على وفاة السلطان سبأ أفادتْ المراسلات بسقوط قلاع وحصون إمارته في يد المتغلب حاتم بن الغشم الهمداني الذي لم يكتفِ بذلك بل أخذ يحشد قبائله لحصار صنعاء.. حتى اجتاحها لتعمل فيها قبائله النهب والسلب والحرق لأيام.. مُعلِنَاً نفسَه أميراً على صنعاء وأعمالها.. رافضاً ولاءه للملكة سيدة.. ولم يبقَ لابن السلطان (الأمير علي بن سبأ) غير حصن قيضان المُطِل على جِبال صَيْد.

ليعلن أمير قيضان بتر طاعته للملكة.. ثم ما لِبثَ أنْ أعلنَ حربَهُ على ذي جبلة.. لتجمعَ الملكة جواريها ذاتَ مساءٍ تدعوهن الاستعداد للدفاع عن أنفسهن.. موجِّهة كلامها إلى بيلسان: لم أعد أرى فيكِ الجارية التي عرفتُكِ منذ حين.. بل أراكِ وزيرتي المخلصة.. ليُهلِّل الحضور لتلك المفاجأة.. بينما بيلسان ظلت قلقة.. لا أدري لماذا كنتُ وغيري لا نرى فيها الجارية.. فهي دائمة الابتسامة.. لا تتحدث إلا بقدر.. كثيرة الحركة.. لا نجدها إلا مشغولة بمَن حولها.. تنفذ ما تشير عليها الملكة بتفانٍ وإخلاص.. ودوماً ما تشعر بمَن يعمل حولها وتقدرهم.

أردفَتْ الملكة كمَن تحدث صديقة وليس جارية: ترين عصيان بعض أمراء القلاع لا يتوقف.. فصنعاء وأعمالها انسلختْ مِن تحت أيدينا.

والمفضل بعد أنْ ولّيناهُ أميراً على حصن التعكر يعزِّز موقعه ولم يعد يعمل لذي جبلة اعتباراً.. بل ويُظهِر الهيمنة والتسلّط.. وواليِنا على عدن يماطل في إيصال العوائد السنوية.. وصاحب حصن قيضان تجرَّأ ليُعلِن العصيان.. والنجاحي يتمدد شمالاً وجنوباً في التهائم غير قانعٍ بمَ تحت يده.. يتربّصُ مستغلِّاً أيَّ ضعفٍ يطرأ لضم الجبال العالية إلى سلطانه.

كُنا نتابع حديثها وهي ممسكة بمعصم بيلسان ناظرةً في عينيها: أنتِ دوماً في موقع ثقتي.. لا أُكلّفكِ بشيءٍ إلّا وأنجزتِهِ.. مِن اليوم لا أريدكِ أنْ تفارقيني.. فأنتِ المشرفة على الجواري.. المسئولة عن رئيسات الجماعات وعن المراسلات.

ثم أشارتْ إلى مَن حولها وقالت: هي مولاتكن مِن الليلة وهي المسئولة أمامي عن نشاطكن جميعاً.. تساعدها رئيسات الجماعات.. ولها أنْ تنتخب مَن تعاونها مِن بينكن.. وهي المخوَّلة بعقابِ المُخطئات ومكافأة المحسنات. المهمة صعبة وعليكن بطاعتها. ثم أشارتْ إلى بيلسان: لا تخيبي ظني يوماً. منذ ذلك اليوم زادَ صمتُها.. وزاد هدوءها..

تقتنص لحظات السكون لتهامسني بمخاوفها: كثيراً ما أنهض مِن نومي مختنقةَ الأنفاس.. وقد غرق بدني بعرقٍ غزير.. تلاحقني صدى كلمات الملكة "لا تخيبي ظني يوماً". تلك الكلمات التي استقرّتْ في أعماقي تُرعبني.. تُذكرني بَمن اختفينَ بعد أنْ رأتْ بأنّهُنَّ خيبنَ ظنَّها.. أخاف أنْ تُصدِّق يوماً همسةً مسمومة.. أو وشاية سوداء.

حين يخلوا بنا الليل تُمسِكُ بيلسان بيدي كالمستنجدة:

- تلك العبارة تلاحقني في صحوي ومنامي "لا تخيبي ظني يوما". أشعر بقيدٍ غير منظور يغلني.. يزداد بعدها قلقي وإحساسي بمحاسبة نفسي عن كل تصرفاتي.

- خففي عليكِ.. ولا تخيفيني منكِ.. أنتِ لن تخيّبي ظنّها فالكل معكِ.

- لن أقول لكِ بأنك أختي.. بل أكثر مِن ذلك.. وأراكِ أقربَ الجواري إليَّ.. أستنجدُ بكِ.. فهل تكوني صادقة معي؟

- سأكون.

بدأ قلقُ بيلسان يخيفني.. وأخاف مِن نفسي حين أفكر فيكَ.. ذلك التفكير الذي أخشى أنْ يجرّني إلى ارتكابِ حماقةٍ تفضحني وبذلك تكون نهايتي ونهايتك!

-٩-

وكان أن زوَّدتِ بيلسانَ بالوصايا السرِّيَّة.. لتلجأَ إليها إذا ما سُدَّتِ الطرُقُ أو تَعقَّدَتِ الأمور.. وكانتْ تعمل على إيجاد حلٍّ لتطالَ أميرَ حصن قيضان.. مستعينةً بتلك الوصايا التي سريعاً ما وجَدَتْ فيها ضالّتها: "خير وسيلة لإدارة البلاد معرفة ما يدور في كل حصن وقلعة.. وكذلك قدرات كل أمير وبمّ يفكر.. وعدم تجاهل التفاصيل مهما كانت صغيرة".

ولذلك أمرتنا مولاتي بيلسان بجمع ما يصلنا من رسائل وتحليل ما يأتي فيها. في تلك الليالي ظلت ورئيسات الجماعات في لقاءات متواصلة. بعد أن وزعتْهن إلى فرق صغيرة لمزيد مِن العمل.. وخلال سبعة أيام كان جميعُهنَّ في حضرة الملكة يعرضنَ ما توصلنَ إليه وما يُفكِرنَ بعمله.. بدايةً بتحديدِ الأُمراء الأكثر عصياناً ونهايةً بخطوة تحديد من نبدأ به. أبدتِ استحسانَها للأمر.

في تلك الأيامِ حمدتُ احتجازكَ لفافتي.. خشيتُ لو أنّنا ظللنا نكتبُ لبعضنا لانكشفنا وحَلَّ بِنا العقاب.. وأنَّ تلك اللفافة ستغرينى أو تغريكَ بارتكابِ حماقاتٍ قد لا تأتي على البال.

تدمع عيناي لخيالاتٍ تجتاحني.. ويهامسني الأمل: ستعيشين يوماً معه.. ومعه ستكون نهايةُ المطاف.. ومِن أجل ذلك الأمل كنتُ أبحث عن وسيلةٍ لإرسال ما أكتبُه إليكَ.. وكنتُ أخاف أنْ يقعَ بين يدي إحداهن.. ولذلك أحاول إخفاءَه.

يوماً بعد يوم لاحظتُ مقدار التغيرات التي أحدثتْها الوصايا السرية على نفسية مولاتي بيلسان.. زادتْ مِن ثقتها بنفسها ولم تعد كما كانتْ تشكو.. لتدورَ عجلةُ انشغالاتها بداية بتقييمِ وضعِ كُلٍّ مِن أميرِ حصنِ قيضان الأميرِ علي بن سبأ.. وأميرِ حصن التعكر المفضل بن أبي البركات.

وهكذا بقية أمراء الحصون والقلاعِ البعيدة.. وأمستْ نواحي البلاد أمامنا مكشوفة بفضل تلك المراسلات.. لتردِّد سؤالاً مُحدَّداً على نفسها: بمَن نبدأ؟ هل بمَن يناصب الملكة العِداء؟ أم بمَن ينتظر الفرصة للانقضاض كأمير التعكر المفضل صاحب النفوذ الأكبر؟أم بأمير عدن.. أم النجاحي الذي يتطلع لضم الجبال العالية إلى إمارته؟

وعلى ضوء إحدى الوصايا: "لإضعاف ذوي الأطماع مِن أمراء البلاد.. ومَن يمثلون تهديداً مباشراً.. عليكِ بدفعهم وإغرائهم بشنِّ حروبٍ على بعضهم حتى الإنهاك والسقوط".

اتخذتْ قرارَ البدايةِ بأمير حصن التعكر الذي يرى نفسَهُ مَلِكاً فوق الجميع.. وأمير قلعة قيضان علي بن سبأ وذلك بدفعهما لمحاربة بعض.

دعتِ الملكةُ ألأمير المفضل لحشد قبائله مِن أجل ضم حصن قيضان وما إليه مِن بلاد إلى إمارتهِ.. وكان المفضل يتطلع لتلك الدعوة.. لذلك سارعَ لمراسلة قادة

إماراته لحشد قبائلهم.. وفي الجهة الأخرى أوعزتْ لجواري الملكة في حصن قيضان تشجيع الأمير علي مواجهته للوصولِ إلى ذي جبلة. ولم تمضِ أسابيع حتى كانت قبائل التعكر وقيضان تزحف مِن الجهتين.. لتصطدم في منحدرات جبل بعدان.

في بداية الحرب كانت الأخبار تفيد بأنَّ أميرَ قيضان يُحقِّق انتصاراتٍ في الدفاع عن حصونه.. لتنقلب الآية بتوارد الأخبار عن هروبه وسقوط حصن قيضان.. وتتوالى الرسائل بسقوط بقية حصون علي بن سبأ وقلاعه تباعاً تحت قبضة المفضل.. وفرَّاره مستنجداً بأمراء الجبال المتاخمة لتهامة غرباً.

كان الأمرُ غريباً بعض الشيء. بدا الأمرُ دونَ تفسيرٍ لتلك الهزيمة السريعة.. حتى وصلتنا رسائل تبرر ذلك الانهيار بعد إصابة الأمير علي بن سبأ بطعنةِ رُمْحٍ كادتْ تنهي حياته.. ليفر وتتفرق قبائله منهزمة.

وبتلك النتيجة تخلصتْ ذي جبلة مِن تهور الأمير علي.. ليتعاظم بالمقابل نفوذ أمير التعكر.. وأصبح يمثل خطراً وشيكاً على ذي جبلة.. لكنّها الأيام لا تستقر على حال.. فهذه الأخبار تفيد بعد انقضاء ثلاثة أشهر أنَّ الأمير علي يعود على رأس جيش مِن قبائل الجبال الغربية ويستعيد قلاعه وحصونه في أيام معدودة.. ليتحصن المفضل في التعكر يلعق جراحه. ولم تمر أشهُر حتى أعلنَ أميرُ قيضان استعداده للزحف جنوباً.

جمعتنا مولاتي لتدارس الأمر.. في الوقت الذي رفض المفضل الاستجابة لرسائل قصر ذي جبلة معاودة حرب ابن سبأ.. بمبرر انشغاله بتحصين التعكر.

لتلجأ الملكة إلى إرسال جاريتين مِمَن يُجِدنَ التطبيب كمداوياتٍ إلى حريم حصن قيضان.. بعد أن أفادت العيون بأن الأمير لا يزال يعاني من آلام تلك الطعنة.. وبدورهن عرضن حكمتهن على حريم الأمير.. شارحاتٍ قُدُرَاتِهِنَّ على مداواته.. عارضاتٍ عقاقيرَهُن.. لكنهن فشلن في الوصول للأمير الجريح.

كان الوقت يمر والقبائل تتجمع استعداداً للزحف جنوباً.. في الوقت الذي استطعن شراء مَن تقوم بالمهمة.. ومِن ثم غادرنَ الحصن.. ولم تمر أيام حتى شاعتْ أخبارُ نعي الأمير علي.. لينـهضَ المُفضَّل مستغلاً تلك الظروف ويزحف

بقبائله ضامَّاً حصن قيضان الذي سقط سريعاً.. ثم تتالتْ بقية الحصون وقلاع

تلك الجبال.. ليمتد سلطانُه شمالاً حتى تخوم صنعاء.. وبذلك اتسع نفوذه وتضاعف خطره.. وأمستْ ذي جبلة تنتظر هجومَه في أيِّ لحظة".

أغلقتُ كُتيِّبَها مُفكِّرَاً في تلك الأيام وكيف كنتُ أقضيها.. مُتلحِّفاً بالوحدة.. ظللتُ في سفرٍ طويلٍ إلى أيام الأمس حتى أيقظتْني لفحةُ ليلٍ باردة طردتني لأحتمي بالبرج.

فارعة تحكي طوال الصفحات ما يدور خلف الجدران.. تفاصيلاً مثيرة لا أعرفها.. أخذتُ بِلَفِّ الشريطِ الحريري حول الكُتيِّب.. تدثرتُ بأغطيتي مفكراً في وحدتي مع تلك الكُتب التي تقبع على كُوَّاتِ الجُدران.. وبمَ حولي مِن طيور وقد سكنتْ إلى أوكارِها.. سائلاً نفسي إلى متى سيظل أمري هكذا؟

-١٠-

مع الفجر وجدت أمامي تلك الغربان التي تخرج راجلةً تتقافز.. وكأنَّها نسيَتْ وظيفةَ أجنحتِها..أسيرُ في ذلك السطح مترامي الأطراف.. وإن أحسست بضيقه يوماً بعد يوم.. وذلك الأفق المتكرر لقاؤنا صباحاً.. ولشَدَّ ما تُدهشني طيورٌ أخرى تُحلِّق دون حركة.

أقضي أوقاتاً في مراقبتِها.. أو أنَّها تسكن الريح لتراقبني.. أمتلئُ بأُفُقٍ أعشقُه. أُغمِضُ عينيَّ إجلالاً لفضاءٍ يمخر بي.. تحملني الذاكرةُ بعيداً بعيداً إلى تلك الأيام التي وفدَ على ذي جبلة الأميرُ منصور بن فاتك النجاحي.. مستغيثاً مِن ظلم عمه عبد الواحد.. وقد استجار بالملكة.. طالباً نصرتَها لاستعادةِ إمارته.

أسألُ ذا الساق حين يأتي طارِقاً بابي في موعدِه عن رغبتي بالتعرف على الأمير النجاحي فينصحني ألّا أفعل.. أسأله: ألا يشدك صخبُ لياليهم المليئة بالرقص والغناء؟ ينظر إليَّ بنظراتٍ عجلى ثم يهز رأسه بالنفي متعجباً.

في البداية تقيّدتُ بنصيحةِ ذي الساق.. فلم أجرؤ الاقتراب مِن ساحة النجاحي.. رغم نداء تلك الطبول التي تدوي أصواتُها طيلة الليل.. ويوماً بعد يوم كان نداؤها يُحرّكُ قلبي.. حتى وجدتُ قدميَّ تقودانني نحوه.

مقامُ الأميرِ ابنِ فاتك دارٌ مِن عدة طوابق والكثير مِن القاعات الواسعة.. إلا أنّه اتخذَ بستانَها مكاناً لقضاء لياليه بعد أنْ نصبَ خيمةً كبيرة فُرِشَتْ حتى أطرافها.. تتوسطه مائدة مُلئتْ بأطعمة وفواكه متنوعة.. كان الأميرُ ثمِلاً على الدوام.. والمتاح مِن دخان ذي جبلة ينشر الوجد والنشوة.

الأمير منصور ابن فاتك ذو سحنةٍ هندية.. جُلُّ عبيدِه وجواريه مِن البيض. يُحيون الليالي بالغناء والرقص. وكُلّما حللتُ على لياليه يعاملُني كما لو كنتُ أميراً.. تتصاعد سُحُبُ الدخانِ.. يدخل الجميعُ في نشوة.. يرقصون حتى الفجر.. ليالٍ مِن الأنس والنشوة خِلتُها لن تنتهي. لم تعشْ ذي جبلة ليلةً مِن تلك الليالي منذُ تأسَّسَتْ.. فكنتُ أسعدُ بحضوري تلك الليالي.. وسعيداً بمعاملته لي كصديق.. على نقيض اليامي الذي كانتْ صداقتُهُ فَخّاً أوقعني فيه.

-١١-

ومع مرافقتي للنجاحي لليالي طويلة تسرح ذاكرتي إلى ما عشتُه في سنوات بعيدة.. وأتذكر أنه بعد عودتي من هروبي الفاشل بأسابيع هبطتْ فارعة مع مجموعة من الجواري:

- أتيناكَ بأمر الملكة لتعليمنا النقش ورسم الحرف. كانتْ وشايتُها تحضرُ دوماً مقابل محاولات نظراتها الباسمة وعذوبة كلماتها.. ولذلك كنتُ في صراعٍ مع نفسي.. وأصبحَ لديَّ قناعةٌ أنَّ كل مَن في قصر ذي جبلة جيشٌ مِن الجواسيس. مَدَّتْ فارعةُ رقاقةً فيها ما عليَّ فعلُه.. كانت عيناي معلقتين على وجهها وقد تقدمتْ دونهن لمخاطبتي.. كُنَّ أربعاً وهي الخامسة.. استنتجتُ أنَّ الملكة تعني بتعليمهن أنْ يكون لديها البديل إذا ما فكرتُ بالفرار مرةً أخرى.. وفي أول درس وجدتهن جميعهن يكتبنَ بشكل جيد.. مشيراً إليها:

- لكنكن تُجِدن الكتابة!

- نود أنْ تعلمنا سِحرَك!

- أيَّ سِحرٍ؟

- أنتَ تعلم!

لم تفارق عينيها البسمةُ طوال اليوم الأول.. تختلس النظراتِ بين فينةٍ وأخرى.. تكتفي بإرسال ابتساماتٍ غامضة.. بينما كان يعتمِل عتبٌ كبيرٌ بداخلي. ولأيامٍ تُرسِل لغةَ عينيها:

- كلنا للملكة.

كان ذلك رَدُّها على عتبي.. حين استغللتُ تأخُّرَها عن زميلاتها لحظات صعودهن:

- لكنكِ كدتِ تقضي عليَّ.

رَدّتْ بخفر:

- لو تعلم لغفرتَ لي!

تلك الكلمات كان لها وقعٌ غريب.. كيف تشي بي ثم توحي بالمودة.. زادتْ لهفتي إليها.. وطوال الدرسِ أنظر متابعاً.. متأمّلاً وجهَها.. أصابعَها الشمعية معانقةً يراعها.. عينيها تمارس لغةً تتذوقها عيناي لتمسَّ شِغافَ قلبي حتى يشعر بمَ يحرقه.. ليحتدمَ حوارٌ مع نفسي.

كنتُ أود أنْ أقتصَ مِن أيام مرضي حين اكتفيتُ بخيالاتي.. يتأججُ خوفٌ أنْ يلحظن ما بيننا.. كمَن تشعر بمَ يقلقني تكتفي بابتساماتٍ خاطفة تزيل تجهمي.. ولحظات تطيل النظر لكأنَّها تلهو بخوفي.

تراوح بأسئلتها حول الدروس.. تأتيني برقوقها.. أختلس متأمِّلاً أطراف ذراعيها كما لو كنتُ أراها لأول مرة.. تشيرُ إلى أحرُفٍ رسمتْها بأساليب متداخلة.. تطالبني بالكشف عن المزيد مِن أسرار الخطوط واللون.. كثيراً ما تُخيفني مِن أنَّها تخفي شيئاً.. ودوماً تُطِلُّ شوذبُ مِن عينيها؟ تضطرم بداخلي أسئلةٌ لا أجد لها تفسيراً كُلَّما التقتْ عيوننا.

- لماذا وشيتِ بهذياني؟

يتورَّدُ وجهُها.. وتصطخب نظراتُها.. لا أصدق ما يحدث وأنا أرقبُ فمَها.. وقد باعدتْ بين شفتيها لتنطق حروفَ كلماتِها في وَلَهٍ:

- ما تسميه وشاية هي طاعة.. ثم ما يدريكَ بِمَ هذيتَ؟

أردد: طاعة.. طاعة! لقد صدقَ حدسي وعليَّ أنْ أتعايش مع وضعٍ مقلوب.. تبدو الملكة في مقام الرب لتلك الكائنات.. والجميع يتقرب لإرضائها بكل شيء.

كنتُ أُجالسُ نفسي طوال الوقت.. أستحضرها.. ماذا أريده مِن جاريةٍ بائسة؟ بل ماذا تريده هي مني؟ هل أبحث عن شوذب فيها.. أم ما أقوم به خيانةٌ لها؟

أتعرَّى في خلوتي.. تنقشُ السنواتُ على بدني تقادمَها.. أسأل ذاتي: كم تبقى مِن العمر وقد غزا البياض شعري؟!

وأتذكر بأنّي كنتُ أَهِمُّ أنْ أُحدِّثَ ذا الساق بهمومي.. أنْ أستغل تكرار سؤاله عن حالي.. شرودي أثناء مجالسته.. عزوفي عن الحديث.. ثم ألوذ بالصمت.. ليقوم بدور مَن يُوحي بأنَّهُ يَعرفُ كُلَّ شيء.

في نهاية الأمر يتركني ويذهب بعيداً بحكاياته عن نساء جميلات.. نساء مختلفات لا يشبهن نساء هذه الأيام. حكايات مؤثرة لعلاقات عابرة.. لتأتي إحداهن بعد حين وتضع أمام باب قصر المُكرَّم جنيناً مُدعيةً أنَّهُ ابنه.. هو كان يعرف في قرارةِ نفسه أنّه ابنه.. لكنّهُ لا يعترف بذلك.. يضمُّها المكرمُ إلى جواري القصر.. يشبُّ ذلك الطفل حاقداً على رَجُلٍ أنكرَ أبوَّته.. فأُدرِكُ حينها سبب حقد ذلك الغلام.

قد يكون ما حكاه حقيقة.. وقد يكون ضمن سيل حكاياته الزائفة.. أطالبه الحديث عن حياته القديمة.. يبتسم وقد أدرك لُعبتي: أنتَ تريدني السير بعيداً أليس كذلك؟ هززتُ رأسي.. ثم أغمضتُ عينيَّ خجلاً.. ليسرح مُتحدثاً تحت سطوة نشوته المعتادة.. أُحلق مع تحليقه في حكاياتِ عشقٍ مثيرة.. لينهض فجأة: سأكمل لك حكاياتي غداً.. أَزِفَ الوقتُ.

أُسرِعُ بدوري وقد ملأني الدخانُ غِبطةً إلى غرفة شوذب.. أحملُ ألواني.. أرفع يراعَ نقشي.. أدورُ راقصاً مُتخيّلاً وقد احتضنتْني عيناها.. أكتم دهشتي وأنا أراها تمد كفها.. تدور بي تحت ظلال ضحكاتها.. ألتقطُ أطولَ ريشةٍ لديَّ ثمَّ أعودُ للرقص.. أُحاوِلُ تقليدَها.. أنْ أنقش زخارفي على الهواء وأنا أدور.. لكنها تُغيِّر مِن دورانها ضاحكة بصخب جنوني.. تدور وتدور صاعدة.

أراها تتكئُ على غمامةٍ نقَشتها ذاتَ بهاءٍ رافعةً ساقيها.. تستدير بخصرها نصف استدارة.. تبرز ردفيها كراقصةٍ تبتكر ألاعيب إغوائها.. تمط أسفلَها.. تبرز صدراً نقشته ذاتَ حلم رجراجاً.. يلهث قلبي لفتنتها.. أو هكذا كنتُ أراها.. توقفتُ عن الرقص وفضلتُ متابعتها بتركيز.. تنظر مُبتسِمَة.. تهبط مِن غيمتها تطوق رقبتي وأخرى بخاصرتي.. نشوتي لم تدُم.. وجدتُ نفسي أضحكُ عالياً وأنا أقف أمام جدران شوذب.. أهامسها فلا تجيب. لا أعلم لماذا تنتقل ذاكرتي إلى أحد أيام دروسي.. أنْ تعمَّدتْ فارعةُ التأخير.. سألتني:

- ماذا تصنع بنفسكَ..أرى في عينيك ذبولاً؟

- عاودني مرضٌ.. بحاجة إلى مَن يشي بهذياني.

تبتسم ماطة كلماتها:

- كنتُ بصحبتكَ أيَّاماً فماذا صنعتَ؟

- لكنَّكِ كنتِ في مهمة وشاية.
- دوماً تُردِّد أوهاماً.

لتسحب كفَّها مِن بين يديَّ مُغاضِبة.. فأعود لوحدتي أجالس فضاء نافذتي متسائلاً: لا زال غموضها يحيرني.. تارة أشعر بها حبيبة.. وأخرى خطراً داهماً. لماذا تأتي بها الذاكرة كلما كنت مع شوذب.

-١٢-

وأيضاً يحضر طيف شوذب كلما حضرتْ فارعة.. لأسأل نفسي: هل أنا خائن! لكنها مشاعر مختلفة.. أبدو غريباً إلى نفسي حين يزورني طيفُها.. أم أنّ ما يجتاحني إزاء تلك الجارية مُجرّد عشقٍ عابرٍ لا يشبه حُبَّ شوذب.. أم أني أُخادِعُ نفسي؟ هل هناك نساء للعاطفة النقية.. ونساء للروح؟ لكن ما الفرق؟ ويظل السؤال: لماذا تحضر رائحةُ شوذب كلما وقفتُ أمام تلك الجارية؟

كمَن يصعد مِن بئر النوم أسمعُ طرقاتِ ذي الساق على الباب.. يسألني عمَّا حلَّ بي بعد أن ظل يقرع دون أنْ أفتح.. مادَّاً مشربَ يراعِه.. ما دفعني أنْ أحكي له حلمي.. نعم حلم.. كنتُ برفقة فتاة ليلة البارحة.. فجأة نهض غاضباً: لا أريد أحلامك.. أنت تعرف بأنّي أكرهها.. بل وأكرهُك.. مضى مبتعداً يجرجر قدمَه الخشبية بنزقٍ.

ذكرى تلك الأيام تُشعرني بالزهو بعد أنْ وَهَنَ جسمي.. كما الإحساس بأنّي أستعيد أجملَ سنيِّ عُمري من ماضيها.. أستمد مِن أمسي حرارةً أفتقدها.. ومِن انشغالي بقراءة تلك الكُتب.. كما أدرّبُ عقلي على حياةٍ أخرى.. ولذلك يدعوني كُتيبها بشوقٍ.. أفكُّ أربطة الحرير.. أتمدد:

"في تلك الأيام كنتُ أرافق بيلسان إلى اجتماعاتها برئيسات الجماعات.. وكان أشد ما تواجهه ذي جبلة خطر المفضل الذي تعاظمتْ إمارتُهُ بعد ضم قلاع علي ابن سبأ لتمتد جنوباً إلى أطراف المخلاف وشمالاً لتحاذي أعمال صنعاء.. وما كانت تأتي به رسائل الجواري مِن خفايا ما يخطط فعله ينذر بخطر مُحدِق.

ظلتْ مولاتي بيلسان لياليَ تبحث عن مَخْرَجٍ في الوصايا: "يُصاب الأميرُ المنتصِر بطمعٍ وشره يُغريهِ دوماً للتوسع.. ولذلك يستجيبُ لنداء الحرب.. ويصبح قابلاً للتورط في حروب متتالية قد تستهلك ما لديه مِن قوة".

ومِن فورها جمعتْ رئيسات الجماعات وتوجهن إلى مجلس الملكة الحرة.. تحدثْنَ وكُلٌ أدلَتْ بدلوِها.. والملكة تستمع دون تعليق.. لتشير على بيلسان بالحديث: وهذا الأمير النجاحي منصور بن فاتك منذ أشهر يستجدي نصرتكِ على عمه عبد الواحد! فهلَّا سمحتِ لنا باستخدامه؟ قوة المفضل يمكنكِ توجيهَها لمحاربة زبيد.

ابتسمَتْ الملكةُ وقالتْ: عليكِن بتنفيذِ ما تفكرنَ به.

خرجنا مِن حضرة الملكة.. لتُرسِل مولاتي رسائل سرية إلى مَن يدفعنَ المُفضَّل لإعلان الحرب على زبيد.. وأوصتهن بتعظيم وتهويل قوته أمام ضعف زبيد المنقسمة.. ودفعه لمزيد مِن التوسُّع.

ثمَّ وجّهتْ باسم الملكة رسالةً للمفضَّل تكلفه حشد قبائله لمحاربة نجاحي زبيد. ولم يكن مِن وقت حتى باشر بإشعال النيران في أعالي الجبال دعوةً لتتجمّع قبائله.. ثم وجَّهَ دعواتِه لحلفائه بالانضمام إليه.

ومرةً أخرى أراكَ حين دعتِ الملكةُ الأميرَ منصورَ إلى مجلسها.. لتستمعَ إليه قبل مغادرته.. حضرتَ بصفتكَ كاتبها.. في قاعةٍ لم تطأها مِن قبل.. هي قاعة كبار زوارها.. كُنَّا صفوفاً مِن الجواري وقد تزينَّا بأروع ثيابِنا وتحلّينا بمَ يليق بالمقام.. وأجزم بأنّكَ كنتَ مبهوراً فقد رأيتُكَ ترفع ناظريكَ في بدايَة ظهوركَ ثم أنختَ عيونَكَ لترى خطواتِ مَن يرافقن الأمير النجاحي.

وكما هي الملكة مُرحِّبةً بالأمير الذي حَمِدَ موقفَها وأثنى على كرم ضيافتها متعهداً بدفعِ رُبعِ خراجِ إمارة زبيد إذا ما عاد أميراً عليها.. وأنْ يوالي مَن والاها ويعادي مَن عاداها. داعيةً له بالسداد والتوفيق.

كنتُ أتمنى أنْ ترفع وجهكَ لتراني في أجمل حُلَلِي.. لكنَّكَ لم تفعل.

نهضتَ تسير خلف النجاحي.. هي الأقدارُ ما تجعلنا دوماً لُعبةً لها.. أو أنّها تُخبِّئُ لنا الكثير مِن النعيم".

ما إنْ أرى صفحاتِ كُتيبّها تَقِلُّ بعد كل قراءة حتى يمسني شيءٌ مِن الجزع.. كنتُ بقراءتِهِ أقرأُ نفسي.. وأرى حاضري في أمسي.

كما أتذكر آخر لقاءٍ بذي الساق.. لم أكن أعرف بأنّي لن أراه بعد ذلك اللقاء.. وأنه سيختفي إلى الأبد.. ولم أكن أتصور أنه سيفي بمَ ظل يوعدني به. حين جاء تركته يهذر.. وحين كنت أهم بمقاطعته وتنبيهه إلى أني سمعت تلك الحكايات.. يضع سبابته على شفتيه وكأنه يستبق نوايا محتملة.. فأستجيب بمواصلة صمتي.. يكرر لي حكايات سمعتها منه.. يذكر أنَّ سبأ كان بئرَ أسرارِ الملك المكرم.

أتركه يحكي غارقاً في نشوة تنباكه.. عن حكاية تحريم سيّدة لزوجها المكرم سنوات.. أهز رأسي علامة المتابعة محاولاً أنْ أجد فسحةً كي أسأله.. لكنه يتوغل في هذره.. أو أنّ دخانه جعلني أتصور ما ليس موجوداً.. ينتشي هو الأخر ماطاً صوته.. يزيد من هز جسمه وهو يحكي ما يعتبره أسراراً لا يجوز البوح بها.. أنصتُ إليه وقد غرقتُ أكثر في نشوةٍ عطَّلتْ حواسي.. ولم أعد أميز مِن حديثِهِ سوى طنينٍ مُضحِك.. أرى ملامحه وقد تغيّرتْ كثيراً.

تمنيتُ لو أنّي لم أشاركه دخان ذلك الصباح.. وأظنني كنتُ أسمعه وهو يحكي مردداً أسماء: شوذب.. سيدة.. المكرم.. اليامي.. الكأس. وأسماء أخرى لم أعد أتذكرها. لا أعرف لماذا كانت تلك الأسماء تثير ضحكي.. ولماذا كنت أشعر بأنفاسه تلهث..وعيناه تجحظان.. ومع قرب أذان الظهيرة نهض يحتضنني بقوة وهو يردد: لقد وفيتُ بوعدي.

يهزني وهو يهذر.. ناظراً في عينيَّ كثيراً.. مُختتماً: هل سمعتني؟ هذا أنا حكيتُ لك ما كان يجب أنْ تعرفه.. أستودعك ربنا الذي لا تضيع ودائعه.

صحوتُ مِن نشوتي بعد حينٍ أُحاول تذكر ما دار.. خرجتُ أهيم على وجهي باحثاً عنه في كل اتجاه لكي أتأكد مما ظننتُه قد تحدثَ به.. أسألُ العابرين.. الجميع يحركون رؤوسهم.. ثم يشير كُلٌّ بالنفي.

يتكرر في أعماقي سؤال: هل حقاً وفى بوعده وحكى ما كانَ عليه أنْ يحكيه منذ سنين؟ أم أنّهُ تعمَّدَ إغراقي بنشوة دخانه ليوهمني بوفائه؟ ظننتُها لعبةً مِن ألاعيبه.

لأيامٍ لم يعد ممتطياً صباحاتها.. أخرجُ نهاراً أبحثُ عَلّي أراه.. أحدهم أشار عليَّ أنْ أهبط شلال النهر الصغير حيث رآه مع الفجر يغتسل.. وآخر بأنه رآه عند أطرف الغابة.. وثالث

قال أنه لمحه يصعد باتجاه التعكر.. وهكذا وجدتُ الجميع يؤكدون وجوده. صعدتُ الجبل.. دخلتُ الأحراش.. هبطتُ شلال الوادي.. لكنّي لم أجد له أثراً.

-١٣-

لم تمضِ أيامٌ حتى قُرِعَتْ طبولُ الحرب.. تجمعتْ قبائلُ المُفضَّل وما وصلتْ مِن قبائل عدن بقيادة واليها زُريع بن العباس وعمه مسعود بن الكرم.. وكذلك قبائل المخلاف والمعافر وقبائل قيضان والشعر. لتنسال من وادي ذي جبلة تردد الجبال صدى طبولها وصرخاتها.. ويُنفَخ نفيرُ السيْرِ غرباً.. لتصل الأخبار أنَّ المفضل وصل بزحفه سهول تهامة ليُعمِل النار في القرى والمزارع.. يُدمِّر كُلَّ ما يصادفه لإرهاب القبائل المناصرة للنجاحي.. يردم الآبار.. ينهب المواشي والممتلكات.. حتى وصل أسوار زبيد.. ليُطلق الناس عليه أبا النار.

في آخر مساء للأمير النجاحي.. ذهبتُ لمسامرته.. كان مساءً مُتخماً بالغناء والرقص والنشوة.. ودعني باسماً:

- سأنتظركَ لنرحل معاً؟

- سيكون ذلك.

لا أعلم لِمَ نطقت تلك الكلمات؟ لم أكن أعني.. ولم أنم ليلتها.. أرقب وهج الفجر.. روح تقودني لأتسلل خلسة.. كما لو كان حلماً أسير تحت غلالة الفجر.. التحقت بهم.. اتجهَ بنا الركب نحو سفوح الشمال الغربي لجبال وراف.. ثم أخذ الدليل يقودنا هبوطاً نحو قفارٍ تمتد حتى سلاسل جبال متراصة كأسنة الرماح غرباً.. قطعنا بطول ذلك النهار ودياناً موحشة حيث تغزل الزوابعُ خيوطَها لتصلها بالسماء.. ومع غروب الشمس أنخنا على سفح أحد الجبال.. وحينها التقيت بالنجاحي الذي بدا مندهشاً من تلك الطبيعة.

عند الفجر توغلنا بين جبال صخرية ترتفع بنا عالياً.. لم نصادف قي طريقنا بشراً.. تسابق قطعان (الرباح) أصواتها ثم تختفي لنسمع صدى (قويعها) ترددها جروف الجبال الملساء.. تهزنا الريحُ على رفوفٍ صخريةٍ ضيقة.. نُشرِفُ على أعماقٍ من أطراف أخدود صخري ينتهي بنهر أسود عميق.. وجذور أشجار معلقة على الجروف.. فوق رؤوسنا يبدو شريط أزرق لا يشبه أيَّ سماء.. تستمرُّ خُطانا على تلك الرفوف.. وصدى أصواتنا يتردد.

طريق يتخلل جبالاً سُكَّانُها عراة.. يظهرون مِن فوهات مغاراتٍ بجماعات ثم يتوارون.. جبال نقشتها أبواب كهوف سوداء.. رياحٌ سريعة تُصدِرُ صفيراً مدوياً.. يضيق الأخدود ويكاد ينطبق.. تتحرك جدائل الجذور المُدلَّاة على واجهتَي الجروف لتياراتِ الريح.

قضينا ليلتنا في مغارة.. كانتْ تُفضي إلى متاهةٍ واسعةٍ في قلب الجبل.. تتسع سقوفُها عالياً.. شلالاتٍ تتدفق في أغوارها لتنسال مياهُها بين أخاديد هابطة.. نُنيخُ دوابَنا ونُشعِلُ

ناراً عالية.. ليرقص البعض رغم إرهاق الطريق.. كان صدى طبولنا قد أيقظ أعداداً مِن عرايا المغارات.. عشرات الرؤوس القاحلة.. عيون بيضاء جاحظة.. وأذرع طويلة..مع بطن متكورة.. وسيقان قصيرة.. قال دليلنا بأنّهمَ مسالمون.. ويتحاشون الغرباء.. ولذلك يظهرون في حذر.. وسريعاً ما يتوارون.. يعيشون على الصيد وجمع بذور وأغصان الأشجار.. تمنيتُ أنْ أبقى بينهم.

خرجنا مِن تلك المتاهة لنرى سُحبَ أسرابِ الطيور تصعد بفجرٍ جديد.. أخذتِ الطريقُ تنحدرُ بنا في أخاديد وعرة مُخلّفين قممَ الجبالِ.. مجاري سيول وغدران.. مخترقين غوييات تتمدد غرباً.. حتى انفرجَ الأفق على سهول تهامة بحرارتها التي تزداد كلما هبطنا.. ننيخ الركب مع نهاية النهار متنسمين أنفاس الليل.. نشعل الحطب.. ينتصب عمود الرقص أمام الأمير منصور.. تقترب السماء بعناقيد نجومها المدلاة.. لمعتْ على خدِّ الأمير منصور لامعة.. أمسكتُ بكتفه:

- ما الخطب؟

- رائحة الديار تُشجيني.

مشيراً باتجاه الغرب.. هازاً سيفه في سماء العتمة.

سرنا على ضفاف وادٍ عريض حتى غابت الجبال.. ظل الأمير يهزج بأشعاره ونحن نردد خلفه.

قُبيل غروب الشمس.. بددنا ليلنا بإذكاء لهب النيران.

و قبيل فجر اليوم التالي واصلت القبائلُ مهاجمة أسوار زبيد.

مع مساء ذلك النهار عرفنا بأنَّ والي عدن زريع وعمه مسعود قد قُتِلا دون أسوار زبيد.. وعلى مدى أيام كان المدافعون يفتكون بمَن خارج أسوارهم.. ليتراجع المفضل مِن الهجوم إلى فرض حصاره.. مَرَّ ما يزيد على الشهرين دون أن تظهر آثار ذلك الحصار.. ليفكر المفضل بالعودة مِن حيث أتى.. سارع الأمير منصور بإرسال من يشتري حراس إحدى القلاع.. ومع لحظات انبلاج فجر يوم صيفي كانت قبائل المفضل قد أخذت بالتسرب داخل زبيد.. حتى إذا ما أشرقت الشمس دبت الفوضى بين المدافعين.. لتعيث القبائلُ قتلاً وتخريباً بين سكان المدينة.

فَرَّ الأميرُ عبد الواحد النجاحي باتجاه البحر تاركاً المدينة تواجه مصيرها.. وأعلن المفضل إباحة المدينة لأربعة أيام مكافأةً لقبائله المنتصرة.. نُهِبَتْ أسواقُها وسُلِبَتْ دُورُها وأُحرِقَتْ دُورُ مَن قاوموا.. وسُبِيَتْ الكثير مِن نسائهم.. ليدخلها المفضل بن أبي البركات في خامس يوم منتشياً بنصره.. تهرس حوافر خيله رؤوس الأسرى التي رُصَّتْ على أرضية شارعِها الكبير.. تحفُّهُ أعمدةُ الدخان وصراخ الثكالى.

كنتُ والأمير منصور بعد دخول المفضل في مجلسه يبارك له الانتصار ويطالبه بتسليمه إمارته.. لينهض المُفَضَّلُ غاضباً: ماجئنا إلا لننقذ زبيد من دنس العبيد. آمِرَاً عساكره باقتياد النجاحي ومَن معه.. ليودعونا حبس قلعة زبيد.

لم يدم الأمرُ أسابيع ثلاثة حتى فُتحتْ أبوابُ السجن وحُمِلَ الأميرُ منصور على الأعناق.. وابتهجت المدنيةُ وهبَّتْ تبايعه والياً مِن قِبَلِ الملكة الحرة.

-١٤-

طابَ لي المُقام.. وأضحتْ لي دار وخَدَم يقومون على خدمتي.. وما كان يخفف الغربة هو حضوري مجلس الأمير حيث يتنوع السمَرُ مِن شعر وغناء ورقص.. يسألني عن شواغلي فأذهب بالحديث بعيداً.. أحدثه عن سنوات عمري في قصر ذي جبلة وعن الحياة فيه.. أكملت سنتي الأولى كاتباً للأمير النجاحي.. ليفاجأني بكلامٍ غريب:

- أخذتُ منها وعداً ألا تؤذيك.

شعرت بصقيع غريب يتسرَّبَ إلى قلبي.. مُركِّزاً على عينيه:

- مَن تعني؟

- الملكة الحرة أرسلت في طلبك.

-....!

- ستغادرنا إلى ذي جبلة.

- أتعرف ما يعني ذلك؟

- لا تخشَ شيئاً فقد وعدَتْني.

- اتركْني أفر.

- أين تفر؟ لا خيار لك!

- إذا أنت من تريد أنْ تعيدني إليها.

- لم أخبرك لأشهر وهي تراسلني في طلبك.. عرضتُ عليها أنْ أفتديك.. لكنَّها أرسلتْ في عتابي وتتهمني بالمماطلة..هي ليست رغبتي.. بل مجبراً.

صمتٌ وقد غمَرَني ذهولٌ.. أبحثُ عن خيانةٍ تظن الملكة بأنِّي ارتكبتُها.

غادروا بي عبر سهولٍ واسعةٍ جنوباً.. تمنيتُ لو أنّهم عبروا بي طريق تلك الجبال التي عبرناها عند قدومنا.. رُبَّما استطعتُ إقناعهم تركي لأعيش بين المغارات.

لم تمضِ ليالٍ حتى كنتُ في حضرة الملكة الحرة.. ذليلاً بين صفوف وجوه متجهمة.. عيون جامدة.. ارتفعَ صوتُها بارداً:

- كل ثرثراتكَ.. وما كُنتَه لدينا!

هالني برد القاعة. أردَفَتْ: لن أذكِّركَ ماضي أخطائك.. وهذا أنت تكرر معاصيكَ.. وكنتُ أجزمُ بأنّكَ تُفشي أسرار ذي جبلة.. ولا تعلم بأنّكَ الجاهلُ بمَ حولكَ.

واصَلَتُ صمتي.. أمرتْني بالحديث.. لم أجد ما أقوله.. ليرتفع صوتُها: هيا قُدنْهُ بعيداً.

ارتجفتُ رُعباً وجدران القاعة تردد "ب ع ع عي ي يد د دا ا اا" هبطنَ بي وسط صمتٍ

أنتظر عقابي في كل زاوية.. دُهشتُ لهبوطهن سلالم أعرفها.. وما زادَ دهشتي أن أعدنني إلى دار النسخ.. لحظة إغلاقهن عليَّ الباب العلوي رحتُ أسال نفسي وأنا أتلمس جدرانه غير مستوعب: كيف يعدنَنِي إلى داري؟ أم أنَّ عقابي سيحل فيه؟

لم أهدأ وأنا أحاول أنْ أتخيّل شكل عزرائيل.. لحظات فصل الروح عن الجسد.. أحوم دون هدف.. فجأة تذكرتُ تلك النافذة وقضيبها المفلوت.. خطوت.. تشبثتُ بها.. أهزها.. أبتسمُ هامساً: أستطيع الهروب الآن.. النجاة مِن موتها.. أمسكتُ به محاولاً تحريكه لم يستجب.. حاولتُ مع بقية القضبان باحثاً عن مُنقذي.. أهزُّها بجنون.. فاجأنِي ثباتُه.. كرّرتُ المحاولة.. شككتُ فيما أصنع.. جرّبتُها قضيباً قضيباً دون فائدة.. هرولتُ نحو الباب بدوره رفضت مغاليقه الحركة.

عدتُ مُستنجِداً بالنافذة.. هل حقاً كان أحد قضبانها يتحرك في تلك الليالي؟ أيُّهُ مِنهُنَّ إذاً؟ أم أنَّ حركته كانتْ تحت عنايتها؟ أسألُ نفسي مُرتجِفاً: كيف الخلاص؟!

تذكرتُ روائح ومناظر أسراب الجرذان الجائعة.. خارتْ قُوايَ.. دنوتُ أرضاً أتقيأ دموعي.. أُتمتمُ: هل ستكون نهايتي هناك؟! أرى الريح تتخلّل وحلي الرطب وأكوام عظامي.. سافرَتْ ذاكرتي إلى ذلك النهار حين سمعتُ عواءً حزيناً من خلف الجدران.. ما لبثَ أنْ تحوَّلَ إلى نحيبٍ مُخيف.. لأيامٍ أُحاولُ معرفةَ اتجاهه.. أجوسُ بمسامعي جدران الدار.. ثم فكّرتُ أنْ أحفر الجدار لأتبين ماهيَّتَه.. وليتني لم أفعل.. للحظةٍ اندفعَتْ رياحٌ باردةٌ ذاتُ رائحة غريبة مِن ثقبِ الجدار.. صفيرٌ يعلو وينخفض مِن أعماقِ معتمةٍ مُخيفة.. استمررتُ في توسعته.. أطللتُ على عتمةٍ ما لبثَ ضوءٌ مِن بعيدٍ يتلمَّسُ طريقَه.. أدخلتُ رأسي.. ألحقتُه صدري.. ثم بقية جسمي.. وقفتُ أُطيلُ النظر.. ضوءاً مبعثراً بالكاد أُمّيزُ أعمدةً وجُدراناً حجرية سوداء.. أرضاً تلمعُ بسوادِ رطوبتِها.. زادتِ الرياحُ عفونة.. صفوف عقود عالية.. وَحْلٌ على وجه أحجار زَلِقَة.. أسراب جرذان حول أكوامٍ متفرقة.

اقتربتُ مِن كومة إحداها.. ردّدتِ الجدرانُ صرخاتي.. ضجّتْ خفافيشُ السقوف وجلة.. بينما صفيرُ الريحِ العفن يعلو وينخفضُ ليصمتَ حتى ظننتُه توقَّف.. ليعود أكثرَ حِدَّة.. اتضحَتْ لي بأنّها بقايا عِظام.. جرذان ضخمة تخرج من كل اتجاه.. زواحف وحشرات.. مُرتجِفاً لا أقوى على الحركة.. تتقدم تلك المخلوقات في طوق محكم.. اصطدمت قدمي بعظام منثورة.. مرعوباً أحاول التراجع.. زادت الريح حِدَّة.. انبعثت فيَّ طاقة.. هرولت

وقد تشبثت بعضها بأطرافي.. وثبت.. أدخلت رأسي أُحاول النفاذ وكأنَّ النقبَ ضاق.. أو أنّ صدري تضخّم.. لاهثاً خِلتُ الوقت يتمدد.. وأظافرها وأسنانها تعمل بسيقاني.. أرفس بيأس محاولا دفع جسمي عبر النقب.. بعد معاناة نجحت العبور.. عدتُ متكوما أمام النقبِ مُنهَكاً.. وقد تجرحتْ أقدامي وفخذي..نهضت مذعورا من تصور أن يلحقن بي.. محاولاً إيقاف تلك الروائح.. أعدتُ أحجاره. سددتُ تلك الثقوب حتى لا يتسرب شيءٌ مِن الداخل.. لكنَّها كانتْ قد سكنتْني.. أصابتني نوبةُ تقيئ حادة.. محاولاً إخراج تلك الرائحة مِن رئتي.. أحسستُ بدوار.. عاودني التقيء كما لم أتقيأ في حياتي.. برودة ورعشة تنخر مفاصلي.. تسحّبتُ إلى فراشي.. العفنُ يلاحقني.. يحتل أغطيتي.. جدران الدار تتنفس تلك الرائحة.. لم يعد لي رغبة في طعام أو شراب.

بين فينة وأُخرى يعاودني التقيء.. صباح اليوم التالي هالَ جواري البريد ما أنا فيه.. زارني حكيم الملكة الحرة.. طرحَ عليَّ أسئلته.. لم يكن لي قدرة على الكلام.. فضلت ألّا أبوح بمَ صنعتُ.. تركتُه ينظر في عينيَّ.. يُقلّبُ لساني.. يضغط على سقف بطني متعجباً.. خبأتُ كُلَّ سيقاني؟ وحين حضرَتْ فارعة لم أتفوَّه.. لكنَّها حدّثتني عن جروح تملأ سيقاني.. عن هذيانٍ أصابَني.

-١٥-

أُعاودُ مُحاوِلاً تحريك القضبان.. أنظرُ ثقوبَ السماء المضيئة.. يُومِضُ أحدها بقوة.. يُذكِّرُني بإيماءات نظرات فارعة.

يسرح عقلي مستعرضاً سنوات حياتي.. أياماً وأحداثاً وأُناساً عرفتُهم.

كثيرة هي الذكريات.. وكثيرة هي الأسئلة التي تمنيتُ لو عرفتُ لها إجابات: هل كان اليامي يعي بأنه يقودني إلى فخ وهو يقودني إلى هذا المصير؟

ذو الساق هل تحدث إليَّ لحظات وداعه بمَ كنت أريد معرفته حول شوذب أو الطريق إليها؟ أسئلة تتدفق عليَّ في تلك الليلة وأنا أنتظر الموت.. أسيرُ طوال الوقت ذهاباً وإياباً مِن حجرة إلى أخرى.. وما إنْ أكمل حتى أبدأ مِن جديد.. يفر تفكيري بعيداً.. يستغرق ذلك وقتاً حتى أعود به إلى واقعي وكأني أدور بين أجرام متباعدة.

ألجأُ راكعاً أمام جدار شوذب أناجيها باكياً.. تبدو وجوهها في حالة وجوم موحدة.. نظرات جامدة محيرة.. كنتُ بحاجة إلى مواساتها في تلك الليلة.. ناجيتُها كمُخلِصة.. مدَّتْ كفَّها وقد بدت على وجوهها مسحة ابتسامة.. ضمّتْني إلى حضنها.. أغمضتُ عيني وشعورٌ بالأمان يجتاحني.. التصقت بها غير مصدق ما أنا فيه.. مُصيخَاً السمعَ لكل صوتٍ وحركة.. أتوقع دخول ملائكة العقاب في كل وقت.. النافذة.. الجدران.. الشمس لن أراها لاحقاً. أتذكر كلماتها بعد ضرب وشم كفي في ذلك اليوم البعيد "ستنتصر لك قوى الغيب.. تخلّصْ مِن خوفٍ يسكنُك.. الإحساس الذي يجعلُ الإنسانَ كائناً ميتاً.. عليكَ دوماً أنْ تشعر بالقوة مِن قيمةٍ هي أنت".

أهرول باتجاه النافذة.. أنزعُ جرابَ كفي وصوتُها يتردد.. أخرجه من بين القضبان.. أرفعهُ عالياً نحو وجه بدر تلك الليلة.. أنتظرُ تجاوب الأرواح الكونية.. أتمناها تزيل قضبان النافذة.. أمرر إصبعي على الوشم.. تتلبد السحب.. تحجب البدر.. أردد صلوات أمي.. أرفعُ كفي باتجاه السماء.. أتمتم بصلوات المعلم.. أرى بانقشاع السُحُب رويداً رويداً.. يظهر وجه البدر من جديد.. يهبط.. أستسلم لسحر اقترابه.. يلامس دائرة السماء.. تتوهج.. يهبط مقترباً مِن جبال ذي جبلة.. يصبغُ الوجودَ بسناهُ الآسِر.. أتخيلني أقاوم الشعور بالخوف.. أستحضر شجاعة الإحساس بقوةٍ هي أنا.. مشيراً بوشمي مرة أخرى إلى السماء.. شعور ينتظرني لأقترب منه.. أطرد الإحساس بالخوف.. أستحضر قوةً لا أعرف مكنونها.. أسمع صوت شوشانا: "مِن قيمةٍ هي أنتَ" شعور مَن وجَدَ نفسَه.. مَن يكتشفُ سِرّاً عظيماً داخلَه. أغمضت عينيَّ وضجيجُ رياحٍ مِن كل اتجاه.. أيقنتُ الهلاك وقد انتزعتْني تياراتٌ باردة.. أهوي وأهوي في فضاءٍ مُظلِم.. أرتطمُ بأرضٍ لا أراها.. أصحو لأجدني مُمدَّداً بين الأرض والسماء.. أتلمّسُ ما حولي.. أشعر بأنّي أهوي مِن جديد.. لا شيء غير الظلام.. أتحسس وشمَ كفي مرَّات.. أتلمّسُ سياج قضبانِ النافذة..أجدها لا زالتْ ثابتة.. أُخرِجُ كفي مِن بينها.. أوجّهُ الوشم نحو فراغ مُظلِم.. نحو نجومٍ تناثرتْ بعيداً.. لم يَطُلْ بي الوقتُ حتى ظهرَ غسقُ المشرقِ بصُفرَةِ الذهب.. هالة قارصة.. صمتٌ يمهر الأنحاء.. بعد وقتٍ تسلَّلَ وَهَجُ شروقِ الشمس.. أفكر فيما كنتُ فيه وتلك الهالة تملأ الآفاق.. أو أنّي لم أَطِرْ وقد تكون أضغَاثُ أحلام. رويداً رويداً تكاثرَ الضوءُ.. لم أستسلم لإحساس جسمي بالإرهاق.

أهربُ مِن ذكرياتي المُوحِشة.. أعودُ لواقعي.. إلى حياتي الجديدة على سطح القصر.. أعيشُ مع وحدتي وتلك الأفكار التي تتوالد مع قراءتي لتلك الكتب التي أمستْ وجودي.. فلم أعدْ كما كُنتُ باحثاً عن رّبٍّ.. بعد اعتقادي بأنّهُ إنْ كان عليَّ أنْ أؤمن برَبٍّ فالعَدَمُ هو الأجدر بالعبادة.. فقط هو مَن يمكن أنْ يكون رَبّاً أوحداً مُسيطراً.. أقوى مِمَّا ابتكرَهُ البشرُ مِن أرباب.. هو الحقيقةُ المُطلقة والوحيدة.

ألتقطُ كُتيّبَها.. أتمددُ مُلتحِفاً مشاعر مبهمة.. أسحبُ شريطَه الحريري على مَهَل.. أنتظرُ مزيداً مِن الضوء:

" لم يعرف أحدٌ بفرارِكَ مُصاحِباً للنجاحي إلَّا في اليوم الثالث.. فحين لم تجدنَكَ جواري البريد ظنَّ الجميعُ بأنَّكَ خرجتَ باكراً للتنزُّه.. لكن الأمر تكرر صباح اليوم الثاني.. لتأتي الرسائل تؤكد هروبك وتنقل أخبارك.

انشغلَتِ الملكةُ بمجرياتِ حربِ المفضل وانتصاراته هناك.. ولم يعد يهمها

شأنك.. وظلَّتْ ذي جبلة مشغولة بالخطر القادم بانتصارات المفضل. يتوقع الجميع عودته وإعلان نهاية سلطان ذي جبلة.. لتستنبط مولاتي بيلسان حيلةً مِن الوصايا "إنْ أعيتْكِ الحِيَلُ لقهرِ طغيانِ قوةٍ غاشمة فابحثي عن وسيلةِ هزيمته في عقر داره.. مِن حيث لا يتوقع.. فدوماً الإنسانُ عبدُ غرائزِه".

استولت تلك الوصية على تفكير مولاتي.. لتجد ذلك العِداء القديم بين فقهاء أهل السنة والمفضل.. ولذلك أوعزَتْ للفقهاء باقتحامِ حصن التعكَر قبل عودته.

وسريعاً ما استجاب الفقهاءُ وحلفاؤهم مِن قبائل بني الزر الخولانيين لمهاجمة التعكر.. وخلال أيام كانوا قد وثبوا عليه.. وقتلوا مَن قاوم مِن حُرَّاسِه.. كما أجهزوا على نائب

المفضل.. لتصلَ أخبارُ سقوطِهِ إلى مجلسِ المُفضَّل في زبيد.. ليجُنَّ جنونُه.. وعلى الفور تركَ زبيدَ خلفَهُ وعادَ راكِباً نشوة انتصاراته.. حاولَ في البدء اقتحام الحصن دون جدوى.. ثم قرَّرَ ضربَ حصارٍ طويلٍ.. وما هي إلَّا أسابيع حتى تسرَّبَتْ أخبارُ رغبةِ مَن في الحصن بالاستسلام.

تلقَّتْ بيلسانُ ذلك الخبر الصاعق لتشاوِرَ الملكة في الأمر فأشارتْ عليها: "المال.. والخمر.. والنساء.. سِرُّ هزائمِ الرجال". وتَمَّ إرسالُ إحدى الجواري لتبلغ المُحاصَرين وتشجعهم على عدم الاستسلام وإظهار سراري ونساء المفضل على أسطح الحصن متبرجات يرقصن على ضرب الدفوف.

صباح اليوم التالي ظهرتْ نساؤه على أسطح الحصن وقد اكتسينَ عُريَهُنَّ يرقصن على ضرب الدفوف.. لم يستوعبِ المُفضّل ما يرى.. في بادئ الأمر صرخَ فيمَن حوله: العار.. الهجوم.. الهجوم.. لكن صرخاته ذهبَتْ دون صدى.. ليسقطَ مغشيَّاً عليه.. ولم تمضِ سحابةُ ذلك النهار حتى فارق الحياة.

رفعتْ ذي جبلة بيارقَ الحُزنِ ونُفختِ الأبواق وأُشعلتِ النيرانُ في القمم حزناً على رحيل المفضل.. واستقبلَ القصرُ العزاءَ في وفاةِ أميرِ أمرائِها.. لتتنفس ذي جبلة استعادة كامل سلطانها.

بدورها رتّبَتْ مولاتي بيلسانُ تكليفَ وُلاةٍ وأمراء جُدد على قلاع وحصون المفضل. استقرَّ أمْرُ البلاد بعد ذلك. لتعود الملكة تأمر مولاتي بسرعة استعادتك من زبيد.. وبدورها راسلتِ النجاحي.. إلا أنَّه ماطل.. لترسل إليه رسالةً تعاتبه مبطّنةً بالتهديد!

وكم كان حزني وأنا أراكَ تقفُ في حضرةِ الملكة كسيراً.. بينما صوتُها يوبخكَ.. عرفتُ لحظتها بأنَّ نهايتَكَ أزفتْ وأنّكَ لن ترى الشمس بعد اليوم.

-١٦-

في تلك الليلة واصلتُ صَلاتي بعد أنْ أكملنَ صلواتِهن وانصرفنَ.. يائسةً أدعو الله انقاذك.

زارتْني حكاياتُكَ.. رسائلُكَ.. لقاءاتُنا.. عتبُكَ وحنقُكَ الدائم.. اتهامي بالوشايات.. أناجي الله يائسةً.. ليهديني فكرة: لمَ لا ألجأُ لمولاتي بيلسان؟ لم يكنِ الأمرُ هيناً.. مع ذلك ذهبتُ وركعتُ على ركبتي أمامها.. حدّثتُها عن الرحمة.. وعن أمور تهمنا أكبر مِن كاتبٍ بائس.

كانت تستمع إليَّ في صمت كعادتها.. قبّلتُ يديها متضرعةً.. لترفع وجهَها بين كفيها.. وأذهلني رؤيةُ دمعٍ على خدها:

- قُضِيَ الأمرُ!

نطقَتْ تلك الكلمات الحادة ليسقطَ قلبي دون رائحة.. أعدتُ النظر إلى وجهها.. سألتُها في تضرع.

- فارق الحياة؟

- سيرى شروق الشمس!

لحظتها أختلطَ الأمرُ عَليَّ.. وقفتُ مبهوتة:

- كيف؟

لم ترد عليَّ.. لكنّها أشارتْ بأنْ أتركَها. وقفتُ صامتةً ببلاهة.. كرَّرتْ إشارتَها أنْ أتركَها.. لم أنمْ حتى رأيتُ شروقَ الشمس.. تمنيتُ أنْ ترى بدوركَ ذلك الضوء.

مساء اليوم الثاني اكتظَتْ قاعةُ الاجتماعات بصفوف دائرية.. لأراك في حضرتها.. كنت أحلق في سعادة كاد الجميع أن يلحظها. كانت الملكة على غير عادتها تجلس مواجهةً لك.. بينما ركعتَ مُنكِّسَ الرأس وعيناك تحرث الأرض.. تمنيتُ أنْ ترفعها ولو للحظة لترى وجهَ الملكة الحرة.. لكنَّكَ لم تفعل.

أضواء المشاعل تنفذ بصعوبة بين سحب المباخر.. أمسكت مولاتي بكفك وهي تشير إلى وشمك.. دنتِ الملكة تتأمَّلُه.. تلامسُهُ بسبابةِ كفِّها اليمنى.. هللت بصوت مجلجل.. وردَّدتِ القاعةُ ترتيلَه.

أُحرِقَ المزيدُ مِن البخور لتحجبَ سحبُه كُلَّ شيء.. وأضحى مَن في القاعة أشباحاً تترنم.

ظللتَ راكِعاً ليصُبَّ فوق رأسك أبريقُ دم.. وأصواتُ صلواتِ القاعة متواصلة.. غفرَتِ الملكةُ زلتك ووجهت بالمحافظة عليك والعناية بك.

ومنذ تلك الليلة زادتْ مكانة بيلسان لدى الملكة.. لتقول لها الملكة: أنتِ مني بمكانة هارون من أخيه النبي موسى. وهكذا يوماً بعد يوم تترك الملكة لمولاتي حُرِّيَّة التصرُّف.. بينما هي تفرَّغتْ لشؤون الدعوة المستعلية ومتابعة الدعاة في عموم جزيرة اليمن.. منذ تلك الليلة أمستْ بعضُ الجواري يصفن مولاتي بالملكة بيلسان حتى وإنْ زجرتْهن.

أخذتْ مولاتي بيلسان بجلب المزيد من الجواري وتوسعت في تعليمهن فنون التبرج والدلال.. وكذلك متع الفراش. وتعلُّم أساليب جديدة في المراسلات.. وأدخلت تعديلات واسعة على نظام الجواري.. ولم يمضِ وقتٌ حتى كان كل شيء قد تغيَّر.

كما حرصَتْ على إهداء جِوارٍ مدربات ذوات حُسْنٍ وذكاء مِن صغيرات السن إلى مختلف القلاع والحصون.. مخففةً الاعتماد على كبيرات السن.. فلم تكن تغيب عن ذي جبلة وما

يدور في الحصون والقلاع أي شاردة وواردة.. ليؤدي الأمرُ إلى استتباب طاعة جميع الأمراء والسلاطين لذي جبلة.

وإنْ أمسى خطرُ انتشار الدعوة النزارية يطل برأسه على جزيرة اليمن.. في الوقت الذي كانت مولاتي تتحكم بكل السلطان.. لا يعرف مَن خارج القصر إلا أنَّ الملكة الحرة سيدة هي مَن تُسيِّر أمور الدولة.

تذكِّرُني عنايةُ الملكةِ بكَ في محبسك.. بحرصِها على مستشارها اليامي الذي كان الشخص الأثير لديها على مدى سنوات.. ثم ترسله إلى الموت في برود شديد. وكذلك عقابها الذي هبط فجأة على ذي الساق.. بعد أنْ تسرَّبَ إلى مسامعِ الملكة خبر حصوله على كأسٍ تحملُ شكل كفك على قاعدته.. قيل أنَّ هذا الشكل أختصَّهُ أميرُ المؤمنين المعز لدين الله رمزاً له.. واقتداءً به جعله الملك علي الصليحي رمزاً له.. فأُهديَتْ له تلك الكأس.

وقد ظلَّ جميعُ الصليحيون يحافظون ويتبركون بتلك الكأس.. لتأمر بسرعة اقتياد ذلك الهرم بتهمة سرقة الكأس التي اختفتْ مِن أحدِ صناديق حجرتها.

ولا أعرف كيف وصلَ ذو الساق إلى حُجرتِها وهو مَن يُحرَمُ عليه عبور أبواب القصر.. فما بالك بوصوله إلى حجرتها.. بل وأحد صناديقها؟! لحظتها عرفتُ أنَّ الأمرَ يحملُ سِرَّاً.. وتمنيتُ معرفته.

هِمّةُ مولاتي أعادت الاستقرار لذي جبلة.. ولم يعد هناك ما يهددها.. حتى كانت المفاجأة حين أعلنَ أحد موالي الملكة "مفتاح" عصيانه.. وهو من تولّي على التَعكر بعد موت المفضل. وأول ما صنع أرسل رؤوس ثلاث جوار أُرسلن إليه حديثاً.

ظلتْ مولاتي لأيام تحاول إقناعه بطاعة الملكة.. تارةً بالمراسلات وأخرى بإرسال رُسُل.. تلك المحاولات زادتْه عتواً وتجبرا. ولم يكتفِ بذلك بل أخذَ يحرض بعض الأمراء داعياً إلى انتهاج نهجه.. وآخرين يدعوهم إلى التحالف معه.. لتهتدي مولاتي إلى حيلة ناجعة.. موعزة لأمير خَدِد عمران الخولاني بطلب خطبة ابنة مفتاح لأحد أبنائه.. واعدة إياه بعد التخلص منه بضم التعكر إلى إمارته.. وافق مفتاح تزويج ابنته.. ليفتح أبواب الحصن لعدد مِن جواري ذي جبلة ليرافقن العروس.. ولم يدركْ بأنه وقع في فَخٍّ قاتل.. إذْ سريعاً ما طوقتْه الجواري ليُذبح على الفور.. وبذلك تمّت السيطرة على الحصن.

-١٧-

في شتاء إحدى ليالي سنة ٥١٠ فاجأتنا الملكة بحضورها دروس المساء بعد انقطاع طويل. وقفَ الجميعُ في صمتٍ مهيب.. العيونُ تتفرَّسُها بعد احتجابِ سنوات.. بدتْ غريبةً عمَن حولها.. هَرِمَتْ ملامحُها ومالتْ بشرتُها الشقراءُ إلى بياضٍ مشوبٍ بصفرة.

جَلَسَتْ على كرسي الدرس بادئةً حديثَها بذكر الله والصلاة على أطهرِ الخلق.. مثنيةً على الأئمة الأنوار.. ذاكرةً واجب الوفاء والحفاظ على العهود.. موجهةً خطابها إلى مولاتي

بيلسان.. واصفةً إيّاها بالملكة.. لتتجهَ أنظارُ الجميع إلى بيلسان بوجومٍ غريبٍ وقد اكتسى ملامحَها الذهولُ.

في بداية حديث الملكة التبسَ الأمرُ على الجميع.. لتكرِّر بغضبٍ ظاهر: أود سماع صوتَ الملكة بيلسان! لتبدو للناظراتِ صمّاءَ لا تعي ما يدور حولها.

أردفَتِ الملكة: تتذكرنَ بأنّي خلعتُ عليها يوماً صِفة مولاتكن.. وأوصيتُكُنَّ بطاعتها.. بعد أنْ كلَّفتُها الإشراف على شؤونكن.. ولم أعِ أنّها تطمع أنْ تحلَّ محلي.. فهل يحتمل المقعد لاثنتين؟! وها أنا أسارع بالحضور لسماعها وتقديم فروض الطاعة لها.

اتجهَتْ أنظارُهن مرَّةً أُخرى إلى بيلسان التي جثمت عند قدمي الملكة.. يهتزُّ بدنُها منتحبةً.. لكنَّها زجرتْها: لا أريدُ دموعاً.. أنتظرُ أنْ أسمعَكِ ويسمعكِ الجميع.

توقعتُ أنا أنْ تتكلَّم أفواهُ القاعة لتشير إلى أنَّ بيلسان لم تطلبْ يوماً أن يصفْنَها بالملِكة.. ولم تكن لها رغبةٌ في ذلك.. بل إنَّها توعَّدَتْ مَن يتفوَّهْنَ بذلك مراراً. فكَّرتُ أنْ أرفعَ صوتي لأوضح.. لكنَّ خوفي مِن المجهول منعَنِي.

عادَ صوتُ الملكة ليبدِّدَ الترقُّبَ بينما هي استمرَّتْ جاثية: سأتركُكنَّ.. فقط أردتُ بعودتي أنْ أقولَ لكُنَّ أنَّي ما زلتُ الملكة.. وسأرى ما يكون.. وستنال الملكة بيلسان العقاب.. بل سيطالكن جميعاً.. وأقل شيءٍ قطع ألسنتِكن. نهضت تخطو خارج القاعة تتبعها جواريها.. لتمتلئَ القاعة بالهمس.

على مدى أيام أقفلتِ الملكةُ أبواب جناحها رافضةً مقابلة أيٍّ كان.. منكفئةً على نفسها كمَنْ نذرَتْ لله صوماً.. كان الجميعُ في حالةِ ذهولٍ وحيرة مِن تهديدات الملكة.. ظللتُ إلى جوار مولاتي للتخفيف عنها.. ليتسلل صوتُها كسيراً:

- هذا ما كنتُ أخشاه!

استغللتُ خروجَها مِن شرنقة الصمت لأحدثها:

- لكنكِ لم تخطئي.

- ثم ماذا عليَّ فعله؟

- أنْ تحدثيها.

- لكنَّها لا تقبل بوصول أحد.

موجِّهةً القول لي: لا أريدكِ أنْ تتركيني للأفكار القبيحة الضاجّة بداخلي.. ولا للرعب البارد الذي يذبح أوردتي.. لم أعد أخشى العِقاب.. ولا يهمني الموت.. فكلنا طعامه.. لكن ما يعذبني أنْ تظن بي الظنون بعد كل هذه السنين.. وهي تعرف كم أحبها.. لكن من تلك الوشَّاية؟ آه لو أستدل عليها!

أكملت ناظرة إليَّ.. لأشك في نفسي.. عادت تتكئ على صوت دموعها.. ثمَّ أشارتْ عليَّ بالذهاب وألَّا أفارقَ الجواري لمعرفة ما يفكرنَ به. بعد وقت عدت وأخبرتُها بمَ يدور.

لتتوجه إلى لقياهن بعد علمها بمَ أضمرن.. خيّمَ الصمتُ لحضورها.. حتى بدأتْ بالحديث إليهنَّ: لا يجوز لنا التفكير بضررِ مَن لها الحقُّ في معاقبتِنا.. وعلينا أنْ نفكِّر في طرُقٍ لإرضائها.. ردّتْ إحداهن بحدة:

- نود أنْ تكوني معنا فيما فكرنا به.

- معَكُن في كل شيء إلَّا في معاقبة سيدة العقاب.

- علينا أنْ نتخلَّص مِن الملكة قبل أنْ تتخلَّصَ مِنَّا؟

- ومَن ستتولى بعدها؟ كلكن تعلمن أن الأمراء والولاة بل وعامة الناس سيتساءلون إنْ تولّتْ إحدانا: كيف تتولَّى جاريةٌ أمرَنا؟ هل فكرتُنَّ بذلك؟

ارتفعَ صوتٌ آخر:

- إذاً ستموتين معها؟

- أنا منكن وما يهمكُنَّ يهمني.. وإنْ كُنتُنَّ قد قررتُنَّ أمراً ولا تُرِدْنَ مشاركتي فلا بأس.. فقط لا أريدُ خطوةً تندمْنَ عليها.. أعلمُ بأنَّكُنَّ توقِّرْنَ الملكة وتحملنَ تجاهي كل التبجيل.. وما تفكّرنَ به هو بهدف حماية ذي جبلة.. لكن كيف سيكون الأمر إذا عَلِمَ الناس؟

- نعلمُ وفاءَكِ وحبَّكِ لها.. وقد قررنا ما سمعتِه.. ولكِ الخيار في أنْ تكوني معها.. أو تكوني معنا!

- فَصِّلْنَ لي الأمر.

- الملكة تقادم بها العمر وسترحل عاجلاً أم آجلاً.. ولم يعد يهمها أمرنا.. وقد سمعتِها وهي تهدد بإنزال العقاب بالجميع.. ثم إنَّ علينا تدبُّر الأمر.. فهل أنتِ معنا أو علينا؟

- أود مِنكنَّ التفكير فيما قلتُه لَكُنَّ وأنْ نجدَ حَلَّاً يحافظُ على ذي جبلة وسلطانها. صمتَتْ تنتظرُ أصواتهن.. لتلتقطَ لغةَ عيونِهنَّ.. مضيفةً: لا تقتلن الملكة.. ولكن لنعزلْها ونمنعها مِن اتخاذِ أيّ قرار.. وتتولين أنتُنَّ باسمِها سلطانَ ذي جبلة.. وهذا أسلَم لحمايتنا. بقتلِها سينهارُ كُلُّ شيء.. سوف تُستباحُ دماؤنا.

صمتَتْ ليشتعل الهمس بينهن.. ولم يأتِ كلامُها بمَ ترتجيه.. ليرتفع صوت إحداهن:

- أنتِ تحاولين كسب الوقت حتى تدبِّري أمراً.. عليكِ أنْ تختاري إما أنْ تكوني معنا أو ضدنا.. لم تُكمِلْ حتى نهضَتْ أُخرى:

- أنا مع رأي مولاتي فيما قالتْهُ.. نحن لا نريد إلا حماية ذي جبلة بالحفاظ على النظام.

انقسمنَ بعد ذلك.. ليدور نقاشهن في دائرة مغلقة.. إحداهُنَ اتجهتْ نحوي رافعةً يديها مهددةً.. وهي تهذر بكلمات جارحة.

ولم ينقضِ ذلك الاجتماع حتى فاجأتْهُنَّ الملكة بحضورها: لم أتوقع عقوقكن.. ولن أتردد في معاقبتكن.. نسيتُنَّ بأنَّي الملكة.. وقادرة على فعلِ ضعف ما فعلتُه طيلة سنوات عمري.. فإنْ قسوتُ يوماً فإنَّما مِن أجل الحفاظ على سلطانكن.. فهل ترين ما تصنعن بأنفسكن مِن خراب؟ الجميع يتحينون الفرصة للانقضاض على ذي جبلة.. الجميع يريدون استعادتها إلى حظيرتهم.. أنا الملكة ومِن حقي حماية المملكة بعقابٍ أراهُ ناجعاً.

مع غروب شمس ذلك النهار عادتِ الملكةُ إلى جناحِها مصطحبةً بيلسان.. وقد حدثتْني بعد ذلك: جلستِ الملكةُ أمام إحدى النوافذ المُطلة على جبل التعكر.. سكنت دون حركة.. ظلَّتْ تنظرُ إلى ظلام الخارج دون أنْ تلتفتَ إليَّ.. ثم قالتْ:

- كنتُ أظنُّكِ أكثرَ وفاءً.. لكنَّكِ ككل الجواري.

أمسكَتُ بكفِّها ألثمُه باكية:

- أنْ أسمعَ صوتكِ مرة أخرى فهذا النعيم.. لا يهمني إلا رضاكِ.

لترفعَ الملكةُ نبرةَ صوتِها: لا يعني العقاب أنَّكِ قاسيةٌ إذا حدثَ عقابٌ مِن أجل

غايةٍ عظمى. قد يكون الفردُ قاسياً على غيره إذا عاد ذلك بالنفع عليه.. وعليه أن ينتهج القوة والقسوة من أجل الجميع.. والاقتدار في الحفاظ على النظام.. بإظهار الجَلَد.. ألا تعرفين أنَّ الله يحب المؤمن القوي.. وأنتِ لستِ قوية!

كانت كلماتُها مضطربةً.. لم أكُنْ أفهم ما تريد.. عادتْ تشيحُ بوجهها بعيداً وانخفضَ صوتُها كمَن تتحدثُ إلى نفسها: تزورني الأحلامُ كل ليلة وأراكِ دوماً إلى جواري..أرى نفسي على مائدةِ طعامٍ عامرةٍ بمَ لذَّ وطاب.. والمُكرَّم في أفضل حالاته.. التفتُّ إليه لحظتها خائفةً.. لكنه يبتسم يضمني بذراعيه.. تمرُّ لحظات وأنا أتأمله ليدخل علينا أولادي محمد وعلي في أجمل حُلَلِهم.. حينها تسيطرُ عليَّ حيرةٌ متذكِّرةً بأنَّهم قد ماتوا.. أُجادلُ نفسي.. ثم تغشاني السعادةُ وأنا أراهم أمامي أحياء.. يتحركون ببشاشةٍ حولي.. أصحو بعدها لأدرك بأنّي كنتُ في رؤيا.. وهكذا تتكرَّرَ تلك الأحلامُ لأراهم في كل مرَّةٍ مُرحِّبين بي كملكةٍ.. في الوقت الذي أنتُنَّ ترفضنني!

صامتةً أتابعُ صوتَها.. أُواري مدامعي التي فاضتْ بحرارة.. لتتسلَّلَ أصابعُها ماسحةً وجهي.. أُعاودُ تأمُّل ملامحَ وجهِها العنَّابي وقد شاعتِ ابتسامتُها المُحبَّبَة بالرضا.. تحتضنُ رأسي في حين أُجهشُ باكيةً بصوتٍ عالٍ.

لم تسألني عن بكائي.. فقط كانتْ تهدهدُ رأسي على صدرِها.. وتقولُ: سأستمرُ في قسوتي.. لا يهمني دموعُكِ.. سأحافظُ على مملكتي.. وسأعاقِبُ مَن ترفضُ ذلك.. اليوم أدركتُ بأنَّ ذي جبلة في محنةٍ وأنتُنَّ تختلفن.. فكيف سيكون غدُكُنَّ؟ وماذا سأقولُ لسيدتي

أسماء حين تسألني عن مملكتِها التي أودعتْني إيَّاها.. عن وصاياها؟ جزيرة اليمن مملكتنا جميعاً.. وعليَّ حمايتُها.. لن أتَكِلَ على أحد.

ثمَّ زفرتْ بتنهيدةٍ ليعاوِدَ صوتُها الذي عرفتُهُ منذُ وعيتُ: هناك كأس آل الصليحي أسأل نفسي لماذا نحافظ عليه.. لا أود أن يمسه أحد.. لقد استعدتُه مِن ذلك الأعرج.. لكنّي لم أجده في مكانه قبل ليالٍ.. عرفتُ بأنَّ إحداكُنَّ تتآمرُ على آل الصليحي. قال سيدي الملك علي محمد الصليحي يوم نفقده ينتهي كل شيء.. هو ليس كأساً مِن زجاج وإن بدا كذلك.. فقد صنعتْه بروقُ السماء.. حيث أمير المؤمنين المعز قد قَدَّهُ من صاعقةٍ سماوية في ليلةٍ ماطرةٍ ضربَتْ قِمَّةَ إحدى منارات القاهرة. يرى نقش الرمز الأعظم على قاعدته. هو نفس الرمز الذي أريتِني على كَفِّ ذلك الناسخ الحبيس.. لا تنسي أنْ تكلفي الناسخ بنقشه كما أوصيتُكِ على بدني.. وأيضا البحث عن الكأس ووضعه جواري. صمتَتْ.. ثم التفتتْ مشيرةً إليَّ بتركِها وقالتْ: لا تقفلي البابَ.. دَعِي مَن يُردْنَ الدخولَ عليَّ وشأنهن.

خرجتُ يلاحقُني صراخُها.. كان صوتاً لا يشبهُ أيَّ صوت: أنا الملكة وسأعاقبُكُنَّ جميعاً.. كلكن خائنات.. أريد أبنائي وزوجي.. أبكاني كلامُها لأيام.

ظلَّ صَخَبُها يتعالى طيلة عدة ليال.. لتشير مولاتي بيلسان على رئيساتُ المجموعات وكبارُ المُعلِّمات في فجرٍ قاتم أن يتبعنها.. لم يدُرْ نقاشٌ مع الملكة ولم يكن إلا همسا.. كنا جميعاً حولَ فراشِها.. وكانت بيلسان تساعدها على تحرير روحها.. ليصمتَ بعد ذلك كُلُّ شيء.. خرجْنَا مِن جناحِها نائحات.. لتوصي مولاتي بعدم النحيب.. وألا نُظهِرنَ أيَّ مظهرٍ يوحي بما دار.

أشرقتِ الشمسُ وجموعُ الجواري يكتمن نحيبهن في قاعةِ الصلاة. كنتُ بصحبةِ مولاتي بيلسان التي بلَعَتْ لسانَها ولم يعد لها صوت.

وأصدقُكَ القول إنّي لم أستوعبْ ولم أتوقع ذلك منها..أن يجمع الفرد مِنَّا عقلَه ليُفكِّر كيف يُساعد غيرَه على التخلص من خرفه.. مولاتي لم تكن جارية عادية. مولاتي خُلقت لتكون ملكة. لكن كيف إذا افتضح الأمر.. وعرف من خارج القصر بأن الملكة رحلت؟

تغيرت الأوضاع في ذي جبلة.. وفكرت أن أسعى إلى اللقاء بكَ.. أن أخرجك من محبسك.. سنواتٍ مِن الكتابة إليك والإحتفاظ بكل ما كتبت.. أفكر إذا ما التقيتك أن أسألُك وقد كشفت لك عمن أكون: هل وجدتَني شوذبَكَ التي تبحثُ عنها؟ أم أنَّها شخصيةٌ خلقتها أوهامك؟

هل تعلم بأني ظللت ألحُ على مولاتي بأنْ تخرجَكَ مِن محبسِك.. كي يتسنّى لي اللُقاءِ بك لأقرأ عليك ما كتبتُ وأن أخبرك من أكون وأسمعَ مشاعرَكَ نحوي.. حينها سأبثُّ لكَ لواعجَ قلبي وأشكوكَ إلى نفسي.. لن أتركَكَ للحيرةِ أو القلق.. لن أتركَكَ للوحدة.. بل لن أتركَكَ حتى لـ أنتَ يأخذُكَ مني.

وهذه مولاتي وقد أوكلت إلي أن أرافقك من محبسك إلى برجك العالي.. ترتجف أوصالي وهي تقول لي وأكلفك بخدمته وتوفير كل ما يحتاجه.. سنكون في الغد معا.. وسنتحدث في كل شيء.. ولن نلجأ للمداد بعد اليوم".

تلك الأسطر كانت نهاية كتيبها.. لا أعرفُ إَّلا أنَّي شعرتُ بألمٍ شديدٍ.. ألمِ كائنٍ يحتضر.. كان كل ما فيَّ يتعرق بشدة.. وأنا أعيد لَفَّ كتيبها بشريطِهِ الحريري.. أُقلِّبُهُ بين يديَّ وأشعرُ بنبضِهِ وكأنَّ له قلباً.. وحتى آخر كلمة كنتُ أظنُّني قد وجدتُنِي.. لأجدَ الضياع. أُعيدُهُ إلى الرفِّ بوداعةٍ لم أشعرْ بها يوماً.. خرجتُ سطحَ القصر.. تدعوُني الحسرةُ أنْ أقفزَ لأرى السماء.. وتلك الخُضرة المترامية تدور حولي.. اعتليتُ حافة السطح.. نظرتُ تحتي لأرى الجرف السحيق.

أروى

٥٣٢

الأيـام الأخـــيرة:

أكثر من عشرين سنة عشتها في عزلةِ سقفٍ فسيح.. توصَّلتُ خلالها إلى وسيلة التحدث مع الموتى. أنهض بهدوء.. أخطو ببطءٍ خارج برج الصمت.. أصيخ السمع لأنين الليل.. أقتعد حافة الظلمة.. أبدأ حيلتي لاصطياد الأرواح بمضاعفة إظلام عينيَّ.. أصل بأنفاسي إلى أدناها.. مُخضعاً كُلّي للسكون التام.. أُحفِّزُ مسامعي لمتابعة أصواتٍ تأتي مِن بعيد.. من أعماق الكون. أصوات الضوء.. يتزايد سماعُها كلَّما أنصتُ.. أحس بملامسةِ هُلامِ همسِها.. تسرّبها إلى أوردتي.. لهاثها في قلبي.

بعدَ حينٍ يهدأُ كُلُّ شيء.. يتناغم إيقاعُها بمجرى مسامعي.. متكئاً على ظلمة ذاتي.. أفتح عينيَّ ببطءٍ ناظراً إلى فضاءٍ مُثقَلٍ بالوميض.. غارقاً في تأمُّلها.. يهبط المزيد.. تصطف على شرفات السطح.. تومض بصمت وسكون.. أرواح تعرفني. تسافر رغبة صوتي إلى عوالم بعيدة.. يطول بي الحديث إلى شهيقها.. يلتحم ضوءُها بعتمتي.. تتمازج وشوشة شلالات الريح.. أسمع هسيسها في خفة هشاشتي.. ومع نهاية الثلث الأخير من الليل تطفو عالياً.. محلقة إلى حيث أتتْ.. تتركني وحيداً قبل إكمال حكاياتي.. أنهض بخطوات الحبور.. في خطٍّ لولبيٍ أستقبلُ هالةَ فجرِ جبالِ ريمان.. يلفتُ مسامعي أزيزُ زهورِ شُجيرتي.. أقترب.. أداعبُ أغصانها التي غطَّتْ جدرانَ الصمت.

اليـــوم الأول:

يهتز بدني لمضغ السنين.. أقف أمام نفسي فلا أعرفها.. أبحث عن ذاتٍ كنتُها.. أسمع نداءَ صبيٍّ يقبعُ بداخلي.. أدعوه أن يُطِل.. أنتظره.. يخذلني.. ولذلك تعاملُني الجواري كشيخ طاعن.. بل إنَّ بعضهن يتجنبنني.. وأخريات يتأففن من النظر إليَّ.. وقلة يعاملنني كصبيٍّ قديم.. أمقتُ ذوات الملامح المستهلَكة.. ينتظرن معاملتي لهُنَّ كصبايا.. حقيرات مَن يتواطأن مع تصابيّ.. مِن حقهن أنْ أدللهن.. أنْ أناغي صبيانيتهن.. فالمرأةُ عادةً تشيخ مِن الخارج.

كثيراً ما كنتُ أُقارِنُ عُمري بالملكة التي أجزم بأنَّ الموت قد نسيَها أو تواطأ مع رغبتها.. إلى أنْ اكتشفتُ يوماً سرَّ غبائي.

في فجر اليوم الأول من الأيام الأخيرة سمعتُ ضجيجَ عزرائيل.. ظننتُ الوقتَ حان لاصطحابي.. ليتضحَ بأنه في مهمة داخل القصر.. يُعرف حضورُهُ بنواحٍ وترانيمَ تُمجِّدُ

الغيب.. ثم يصعدن لتصطفَّ أصواتُ أبواق وبيارق الفقد بطول أطراف السطح.. ينشدن الحُزن.. حينها يعرف الجميع بحلول عزرائيل.

الجبال المحيطة لا تأبهُ نهاراتُها بما يدور.. هالةُ ضوءٍ خضراء تسترخي على سفوحِها.. الوديان مشغولة بـ(غُمرة) داكنة.. الغابة المجاورة تتماوج ببللِ مطرِ البارحة.. ترسم مشاعر مغايرة لما تعيشه ذي جبلة.

الساحة الأمامية للقصر تصطخب بالجواري.. كنملٍ يملأنَ طُرُقاتِ الجهات.. عُدتُ أتأمَّلُ سقفَ بُرجي الذي يعرفني.. جدران تزداد تجهُّماً.. أداعبُ غرباناً رافقنني منذ سنوات.. صفحات كتب لم تعد تفهمني.

النهار أطول أكثر من نهاراتٍ مَضَتْ.. لكنَّ غرباني ينصرفنَ في موعدِهنَّ.. كل شيء يهتز.. ثلاثُ جوارٍ وقفنَ أمام الباب.. تهيأتُ لسماعهن.. طالتْ نظراتُهنَّ.. ظننتُهُنَّ نَسينَ ما عليهنَّ قولَه.. حتى أنِّي كنتُ أسمع شهيقَهنَّ وزفيرَهُن.

طافتْ بي عدةُ أسئلة لم أبُح بأحَدِها.. تنفّسَ النحيبُ حين نطقتْ أصغرُهن: أرجو سيدي أن تتفضل بالهبوط. كان عليَّ أنْ أتبعَ حفيفَ خطوهِنَّ حتى قاعةٍ تمضغُ ترانيمَ خافتة.. دائرة مجامِر تتنفسُ أعمدةً زرقاء.. وجوهُ جوارٍ اصطففنَ على الجدران.. أوقفتْني إحداهُنَّ أمام تَلِّ ريحان.. لا أعرف ما عليَّ فعله.. فقط أحاول التحكم بأطرافي.. لم أعلم لِمَنْ جثمان الريحان.. لكن إحساسي بانتهاءِ كل شيء كان غالباً عليَّ.

خرجَ صوتُ إحداهن ماسحةً دموعها: الملكة تقرؤك السلام.. وتأمل الدعاء لها - صمتت قليلاً لتُعيدَ لصوتِها تماسكَهُ- وقد أوصتْ بأنْك من تتلو وصاياها.

ركعتْ فاتحةً صندوقاً يتنفسُ عطناً عتيقا.. بدا مليئاً برقوقٍ لُفَّتْ بأشرطةٍ ملوَّنة. التقطتْ أعلاهُنَّ ومدّتْها إليَّ.. أشارتْ.. رافعةً صوتَها لتسترد القاعةُ صمتَها: اقرأْ.

رفعتُ ناظري لأرى كرسيَّ الملكة خالياً مِن كفِّها.. أخذتُ بقراءة الرقاقة: "بسم ذي الجلال والصلاة والسلام على خير الأنام.. والآل والأئمة الأطهار.. اللهم أنت ربي لا اله إلا أنت خلقتني و أنا عبدك و أنا على عهدك و وعدك ما استطعت.. أعوذ بكَ مِن شر ما صنعتُ.. أبوءُ لكَ بنعمتك عليَّ و أبوءُ بذنبي فاغفرْ لي فإنّهُ لا يغفر الذنوب إلا أنت.. الحَمْدُ للهِ الَّذَي لاَ يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ القَائِلُونَ، وَلا يُحْصِي نَعْمَاءَهُ العَادُّونَ، ولاَ يُؤَدِّي حَقَّهُ الُمجْتَهِدُونَ، الَّذِي لاَ يُدْرِكُهُ بُعْدُ الهِمَمِ، وَلاَ يَنَالُهُ غَوْصُ الفِطَنِ، الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ، وَلاَ نَعْتٌ مَوْجُودٌ، وَلا وَقْتٌ مَعْدُودٌ، وَلا أَجَلٌ مَمْدُودٌ.. اللهم تقبلْ أَمَتَكَ بين يديكَ وأغفرْ لها.. اللهم آمين.

هذه وصاياي السبع.. أُولاها أنْ ينقشَ (صعفانُ) الرمزَ الأعظمَ في ثلاثة مواطن من بدني: الظهر.. والصدر.. والوجه. ثانيها وصايا نذري وقد لُفِفْنَ بشريطٍ زعفراني. ثالثها أنْ يُلفَّ بدني بعد النقش بمجموعة رقوق الشريط الأخضر. رابعها أنْ تُسلَّم لـ(صعفان) صفحاتٌ طُوينَ ولُففنَ بشريطٍ أحمر.

خامسها أنْ يسيرَ هو على رأس مَن يحملُني إلى مثواي الأخير. سادسُها أن يؤم المصليات في الصلاة عليَّ. سابعُها أنْ يرافقني ويغلق عليَّ تابوتي.. وأن يضع ذلك الصندوقَ بما احتوى مجاوراً لتابوتي!".

أكملتْ قراءة الصفحة الأولى.. لتمد بلفافة أخرى.. مشيرةً بمواصلة القراءة.

وقد وهبتِ الملكةُ في وصيتها الأولى كل ما تملك مِن حُليٍّ ومُقتنيات قرباناً إلى إمامِها الطيب رجاءً في ثواب الله وأملاً في رضوانه.. ولأنْ تكون يوم الفزع الأكبر مِن الآمنين.. يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا مَن أتى اللهَ بقلبٍ سليم. مُكَلِفةً جواريها بإيصال ما ذكرتْهُ إلى باب الإمامِ الطيب.

وصية أخرى: أوقفتْ صوافي واسعةً مِن أطيانِ ذي جبلة لرعي الماشية.. ومساحاتٍ أخرى خُصِّصَ ريعُها لصيانة مسجد منحدر النهر الصغير.. وسواقي مياه ذي جبلة.. وأخيرة أوصتْ بأنْ تُدفَن في منزلٍ متصلٍ بالمسجد الذي أنشأتْه.

رفعتُ وجهي.. لتشيرَ تلك الجارية باتجاه أعلى تَلِّ الريحان.. لأرى جسماً عارياً ورأساً أقرعَ لوجهٍ منكفئٍ.... بشرتُهُ بيضاء.. غمرَتْني أسئلةُ العَدَم.. ماذا تعني سنواتُ العُمر لهذا الكائن؟! أو سنوات أعمارِنا؟! وإلى أين نحن ماضون؟! تساؤلاتٌ تعبرُني وتمضي لتأتي غيرُها.

جوارِ حاملاتٍ أوانيَ كُحْلٍ وإبَراً وموقدَ جمرِ المباخر.. غرزتُ إبرتي مُحدِّداً مركزَ الوشمِ منتصفَ العمودِ الفقري.. زاويته الأولى أعلى الرقبة.. والثانية طرف لوح الكتف.. ثم مثله على اللوح المقابل.. قطراتُ دم تسيل!

ألتفتُ إلى عيون مَن يقفن حولي مندهشاً.. أومأنَ أنْ أستمر! وهكذا كانتْ رأسُ الزاوية الرابعة بين الإليتين وزاوياته الأخيرتان متوازيتين على الكليتين.. أخذَ مني وقتاً حتى ملأتُ ذلك الشكل بوخزٍ مُتتالٍ خِلتُهُ لن ينتهي.. لوَّنتُهُ بوخزٍ خُلِطَتْ فيه قطراتُ دمِها بكُحلٍ أسود.. لتمتد عدةُ أكُفٍّ تُصلِحُ وضعَ الجثمان بعد إكمالي الظهر.. لأواجه وجهاً مُتجَهِّماً كأنِّي أعرفُه.. يشبهُ كل الأسماء التي قابلتُها في حياتي.. صرختُ وقد لفحَ وجهي مَسٌّ بارد: ياللهول.. شوذب! حاولتُ التماسك لشعوري بتمايل ما حولي.. كل شيء يدور.. ركعتُ أئن: شوذب.. هي شوذب! لأرى أصواتَ القاعةِ تصطدم بالسقف: "هي مولاتنا أروى.. هي الملكة أروى" وأذرعهن تعيدني للوقوف أمام حضورِها.. نعم هو وجهٌ فيه كل الوجوه.. غطَّى أنينُ صلواتِهن جراحَ روحي.. تحاملتُ مواصِلاً نقشَ ما أوصتْ به.. مددتُ أمسحُ بكَفٍّ مُرتعِشٍ سُرَّتَها.. حولَ ثدييها الساكنين.. التقطتُ إبرةً غرزتُها مُحدِّدَاً سنة الكبد.. ثم الزاوية العليا على البلعوم.. والثانية والثالثة خلف ثدييها جهة الإبطين.. والرابعة على العانة.. والأخيرتين تتوازيان على جانبي البطن فوق الكليتين.

انهمكتُ مواصلاً النقش مع تزايدِ ترانيمِ القاعة.. وكلما زادتْ سُحبُ البخور ارتفعتْ أصواتُهنَ لتتماهى الأشكال. أعادتْ تلك الأجواءُ وعيي بما أنا فيه.. وأخذَ النقشُ يشطرُ ثدييها الصغيرين.. منسكباً حتى عانتها بغرزات اللون العنابي.. ولم أنتهِ حتى تخضبتُ بدمٍ قانٍ.

أكملتُ لأحدِّدَ مركزَ الوجهِ بين الحاجبين.. غرزتُ إبرتي لتحديدِ الزاوية العليا منتصف أعلى جبهتها.. ثم الثانية والثالثة على صدغيها.. خُيِّلَ لي رعشاتُ جفنيها.. نظرت إلى من حولي من الجواري.. أومأن أن أستمر! تابعتُ زاويتَي الوشم أسافل وجنتيها.. والسادسة منتصف شفتها السفلى.. ليرسمَ فمُها ابتسامةً رقيقة.. حين غاصتْ الإبرةُ من خلال نقراتها المتواصلة أخذَ وجهُها يتغير بأطوارِ طفولتِها حتى صِباها فلحظتُها.. لم أكن أعرف كم مَن الوقت مضى يوماً أو يومين.. أو أنها لحظات حتى انتهيت. تماهيتُ وسط ذلك الهول من المشاعر.. لأدرك بأني لم أعد أنا.

عدة أكف ترفع بدن أروى.. لففتها بوصايا الشريط الأخضر.. غمرتْني دموعٌ جافة.. كاتماً صمتاً أسودَ.. أصرخَ عالياً بداخلي.. أود أنْ أعاتبَ جثمانَها.

اكتسى وجهُها غرابةً لم أرَها مِن قبل.. بالكاد يشبه وجه امرأة هبطَ قبحُها المحنط.. أنهضنني.. وقفتُ متحامِلاً.. رفعنَ تلَّ الريحان على ترانيمهن.. جرفَنِي طوافُهن.. أفواههن تتعالى بأصوات لولبية.. أدورُ دون وعي.. هابطاتٍ سلالم الساحة المائجة بالوجوه والأنين.. شققنَ طريقَهن حتى مسجد منحدر النهر.. فاضَ صرحُهُ الكبيرُ بِهنَّ.. وقفتُ أمام صفوفٍ لا تنتهي.... ركعتُ.. أطلتُ السجود أحدثُها بما كان بيننا.. عمَّ صمتٌ سجودَهن.. داهمتْني أحاسيسٌ متداخلة. حملْنَ تل الريحان.. شكَّلنَ دائرةً تعجُّ بأغانِ الوداع.. يتمايلنَ منتشياتٍ.. بلغتْ أعينهن أقصى نشوة.. فرشن أغصان الريحان حتى غطى المكان.. تخضبتْ قدماي برائحة الفقد.. ترتفع الأصوات مِن الأعماق.. و لم يبقَ غير سواعدهن.. جاء دوري.. احتضنتها.. كانت بين يدي صبيَّةً ناحلة.. تلمَّستُ وجهَها للحظات.. انكفأتُ أمسح دمعة نزتْ من عينها.. تعمَّدتُ التشبث بها.. تنفَّسَ فمُها ابتسامةً غامضة.. فكرت أن أهرب بها.. التقطتها سواعدهن في صوف طويل حتى بوابة القصر يتبعها صندوقها.. مسبحتَها الطويلة.. حبَّات البخور.. وكثيراً مِن أشيائِها وملابسها الحميمة.. امتلأَ الكون بأغانيهن الحزينة. وجوهُ عجائز غريبة.. أسألُ نفسي: ما يُبقيني بينهن؟! لم يعد لي من مكان أو زمان.. داهمتْني مشاعرٌ طحلبية.. شيئٌ بداخلي يهوي.. لا أعرف كنهَه.. أو أنهَّا ليستْ مشاعري.. وكل ما يحيط بي لا يعنيني.

بحثت عن ذاكرتي.. فلم يعد لي مِن ذاكرة.. فقط شوذب رأيتُها تخترقُ محاريبَ ملونة.. خُطاها تغني بعيداً.. ابتسامتها.. نظراتها.. أسأل نفسي: هل هي تلك التي كانتْهُ؟ أما أنها في سنوات صباها الصنعاني.. المترحِلة باتجاه مكة.. الحاضرة.. أيهن هي؟! أين يكمن وجودها؟! مُتحجِّراً في ذهولٍ تحاصرُني سحائبُ صلواتِهن.. رائحةُ الدمعِ تحرقُ شعْرَ وجهي.. سقطتُ متهاوياً بداخل نفسي لتمتدَّ أذرعُهُنَّ.. تمسَّكتُ.. اتكأتُ على رجفاتِ ساقيَّ.. تهاويتُ مرةً أخرى ولم أعد أُميز أو أسمعُ ما حولي. غاب الوجود من حولي!

اليـوم الثـانـي:

صحوتُ لأرى نفسي أمامَ صمت البرج وحيداً إلَّا مِن ورقٍ كُثرٍ لُففْنَ بشريطٍ أحمر.. لا صوت لريحِ أغصان شُجيرتي المتشبثة بأحجار البرج.. لم تَعد هناك مِن تراتيلِ صلوات..

ولا مِن أصوات تُسمع.. أسأل نفسي:أين ذهبن بها؟ الم يأتِ في وصيتها أن أرافقها إلى تابوتها.. أين ذلك التابوت؟!

قضيتُ أُفكِّرُ في رحيلِها.. أُرهفُ السمعِ.. سكون مريب.. لم يعد مِن نائحات.. لا أصوات.. فقط بئر تتدلَّى داخلي.. نهضتُ حاملاً لفة الأوراق إلى داخل برجي.. سحبتُ شريطَهُنَّ الأحمر.. تناثرنَ بين يديَّ حتى ملأنَ أرضية البرج.. يتنفسنَ رائحة الموت. أحسستُ بجوعٍ يقتات أمعائي.. أنتظرُ صعودَهُنَّ بالطعامِ كما عودنَنِي. مَرَّ الوقتُ دونَ أنْ يصعدَ أحد.. بحثتُ عن بقايا خبزٍ أدخرُه لغرباني.. لكت بعضَ كِسَرِهن.. عدتُ أجمعُ الصفحاتِ حتى آخرِهن.. تأملتُ حروفَ إحداها.. حروفاً أعرفُها.. حاولتُ قراءةَ بعضِها.. لم تكنْ متسلسلةً أو أنَّها تعني مواضيعَ مختلفة.. بحثتُ عن علاقة بين تلك الصفحات.. عن أرقام أو هوامش.. عن تواريخ في متونها.. صلة دالة بين صفحة وأخرى.. بعد جُهدٍ اهتديتُ إلى أول صفحةٍ برسْمِ البسملة أعلاها.. لأقرأ:

"بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة على خير من وطأ البرية وعلى عترته الأطهار.. وعلى الأئمة مِن نوع النبوة. وأعوذُ بالله مِن مكر الشيطان الرجيم.. وأستعينُ برحمنٍ رحيمٍ قويٍّ متين.. وبالرسول الأعظم وسره الأكتم.. وآله أصحاب الدرب الأنسب.

أنا الملكة الحرة أروى.. ملكة ملوك اليمن.. عظيمة المسترشدين.. ذخيرة الدين.. عمدة الإسلام.. كافلة أوليائه الميامين أكتب شذرات من حياتي.. قاصدة بذلك مرضات الله.. والفائدة المرجوَّة لمَن تأتي بعدي على سلطان ذي جبلة.. بعد أنْ نذرتُ حياتي في محبَّةِ الخالقِ ذي الجلال.. ولخير خلق الأنام وآلهِ مِن الأئمة الأنوار.. فحياتنا وما نعيشه لهم وفيهم عسى ربي أن يتقبل ويغفر الزلل.

وما أتمنى أنْ يجدَ مَن يأتي بعدنا ما خطَّتْهُ أقلامُنا ويستنبط ما فيه مِن عِبَرٍ ولو اليسير.. كما اعتبرنا نحن ممَن سبقَنا.. في البدء.. أعود إلى يوم من أيام حياتي من سنة ٥١٠ حين وجدتُ نفسي عاريةً مِن أسمائي كما كانتْ الملكة الحُرة سيدة قدَّسَ اللهُ روحُها مع النبيين والصالحين تريدُ بنا.. وبعد أنْ رحلَتْ عن الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية ظللنا تحت ظلالها.. وإنْ وقفتْ ذي جبلة أمام مفترق طريقين لا ثالث لهما.. ولا أنكر بأنّي كنتُ قد هيَّئتُ نفسي لذلك اليوم.. أنْ أكون سيّدة القصر.. رغم عقيدةٍ استقرَّتْ في نفس الملكة الحرة سيِّدة أنَّها لن تموت!. ولذلك كان عليَّ اختيار أحدِ الطريقين لذي جبلة".

انتهيتُ مِن قراءة تلك الصفحة.. لتشدَّني غرائبيةُ روحٍ كنتُ أظنُّنِي أعرفُها.. أخذتُ بشوقٍ أُحاولُ ترتيبَ تلك الصفحات.. أبحثُ عمَّا يَصِلُ بعضَها ببعض.. تواريخ.. أرقام.. هوامش.. لكنّي عجزتُ لأتركَهُنَّ جانباً.. مُفضِّلاً مجالسةَ الليلِ حتى كساني إعيائي بنومٍ ثقيل.

اليوم الثالث:

مع فجر اليوم الثالث لرحيلها أيقظَني وخزُ جُوعي.. وكِسَرَ الخبزِ التي جمعتُها تتناقص.. والجواري لم يصعدنَ بطعامي.. أخرجُ لأغصان شجيرتي.. غرباني تحجلُ حول ساقي.. أتحايلُ على جوعي بمصاحبتهن.

زادَ خوفي مِن سكونٍ مُطبق.. وكأنَّ مسامعي تعطلتْ.. أو أنَّ الكون أُصيبَ بالخرس. استمرَّ ذلك الإحساسُ الُمحيِّرُ دون أنْ يخدشَه صوت. أتأمَّلُ جبالَ الأفقِ الرابضةَ كعادتِها في دِعةٍ.. سفوح وأودية تتداخل في تآلف باهت.. لا أثرَ للناس أو دواب الأرض.. وكأنَّ الوجودَ هجرتْه الحياة.. أشجارُ غابةِ السفوحِ القريبة هانئة بهجر رياحِ فروعِها.. أطللتُ على الساحات الأمامية.. دون ملامح للأصوات.. وقفتُ محتارا أمام ذلك الصمت.. حتى سكان الأودية والجبال المحيطة لا أثرَ لهم؟ لا أعرفُ ما عليَّ فعله.. يدفعني جوعي للتفكير بالهبوط.. وقفتُ أمام باب السُلَّم.. بخوفٍ وترقُّبٍ تجرأتُ عبورَ أولى درجاته هابطاً.. أنفاسٌ متقطعة تصاحبني.. ممراتُ الدور العلوي يسكنها خواءٌ قلِق.. خطوتُ بحذر.. قاعاته المتجاورة صامتة.. عدا خواء مقيم!

أطللتُ مِن إحدى النوافذ.. هي المناظر نفسها التي تراني في السطح.. مضيتُ هابطاً سلالم أخرى.. تجوَّلتُ وَجِلاً.. لا أحد.. ستائر تداعبها الريحُ.. خواء غريب.. أدخلُ أمكنةً غريبة.. قاعات واسعة.. جدران صلدة.. شبكة ممرات معتمة.. هدوء عطن لا يطاق ذكرَّني براحة نقب سراديب الجرذان.. هبطتُ سُلَّمَاً تعرفُ أحجارَه أقدامي.. الباب العلوي لدار النسخ.. السلم الذي ينتهي بفسحة حجرتي.. نافذته الوحيدة.. جدران ملونة امتلأتْ بوجهٍ مُكرَّر ذي فمٍ شبيهٍ بضربة فأس.. عينان غائرتان.. أنف مجذوم.. دخلتُ غرفة شوذب كل ما كنتُ قد نقشتُه لا يزال عدا تكرار وجهٍ قبيح.. جمجمته الحليقة وفمه الفأسي والأنف المجذوم.. كل الصور دون حركة.. أو أنَّها ماتتْ.

عدت أصرف وقتي في نبش جدار الجرذان.. حتى كوّنتُ ثقباً أطلُّ منه.. لم يعد مِن عواءٍ للريح.. حتى الرائحة الكريهة.. أشعلتُ خرقاً مِمَّا حولي.. قذفتُ بها.. أضاءتْ أرضُها.. انعكسَ الَّلهبُ على الجدران وتلك الأعمدة والأقواس المعلقة.. لا وجود للفئران.. ولا للخفافيش.. أو بقايا عظام.. حتى المياه الزلقة جفَّتْ.

عدتُ لذلك الوجهِ المُكرَّر الذي ملأ الجدران والسقوف.. كل شيء مُوحِش.. حاولتُ فتحَ البابِ السفلي.. أنْ أذهبَ بعيداً.. لكنه أبى.. بحثت علِّي أجد مَخرَجَاً.. دون جدوى.. صعدتُ يحملُني جوعي مُنهَكاً.. ارتميتُ لا أقوى على شيء.. احتواني خَدَرٌ لذيذ.. تمنيتُ لو أنَّهُ أمتدَّ ليلبِسَ ظُلمَةَ حيرتي إلى الأبد.. لكنَّها أصوات وحركةُ غِرباني توقِظُ أنفاسَ الفجرِ.. تواسيني بخفقاتِ أجنحتِها الواهنة.. أزهارُ شجيرتي ساكنة.

حملتُ صفحاتِ أروى.. انشغلتُ باحثاً عن وسيلةٍ لترتيبها.. بعد جُهْدٍ اهتديتُ إلى صفحةٍ تنتهي بشطرٍ مِن جُملةٍ لتأتي بقيتُها مُفتتحَ صفحةٍ تالية.. وهكذا عثرتُ على مفتاحٍ لترتيبَ صفحاتِها.. أقارنُ بين نهايةِ صفحةٍ وبدايةِ أُخرى.. أصفُّها.. يقودني شوقي لقراءة ما صففتُ.. تمددتُ أرتشفُها:

"بعد رحيلها كُنتُ قد أمسيتُ محطَّ أنظارِ الجواري.. ليضعنَني في مكانِها دونَ أنْ أكونَ إلَّا هي.. جميعُهن يدعينني بصفة "مولاتي" تلك التي أطلقتْها هي يوماً عليَّ.. ولم أعدْ أسمعُ أحداً يدعوني بآخرِ أسمائي "بيلسان".. ليُنسى ذلك الاسمُ الذي عايشَ أهمَّ أحداثِ عُمري.

أصبحتْ صفةُ مولاتي تُشعرُني بالسعادة.. لتحتلَّ مع مرورِ الأيامِ موقعَ اسمي.. ولم يكن ذلك ما طرأَ بل إنَّها كانتْ تسكنُ بدني.. لم ترحلْ كما يظن مَن حولي.. أتصرَّفُ كأنّي هي.. وما كان يزيدُ وجودَها تلكَ المراسلاتُ التي أمهرُها باسمِها.. حتى ختمها لم يتغيَّر.

مع مرورِ الوقتِ طرأَ على نفسي فراغٌ مُمِيت.. وبدأتُ أفقدُ بعضَ أحاسيسي.. فلم أعدْ أحس بالحزن أو الفرح.. الحزن الذي كان يجب أنْ يستقر بقلبي وعقلي لفراقها.. ذلك الذي كان يزورني فيما مضى إذا ما اقترفتُ ذنباً.. لم يعدْ بعدَ رحيلِها موجوداً.. فكثيراً ما احتجتُ لدموعي.. أنْ أبكي كما كنتُ أصنعُ حين تضيقُ بي الدنيا.. أنْ أتألَّم.. أنْ يزورني الحزنُ ليهذبني.. لكنه أمسى بعيدَ المنالِ. وكذلك الإحساس بالسعادة هو الآخر لم أعد أحس به.. أنْ أكون ملِكة ولا أفرحُ لحظةً واحدةً بما عملتُ له سنوات مِن عمري.. أمرٌ كان يُحيّرُني.. يفرحُ مَن حولي لحدَثٍ ما.. أدفعُ بنفسي لمشاركتهم.. لكنَّها أحاسيسي تخذُلني لأرى روحي تقفُ على مسافةٍ واحدةٍ بين الحزن والسعادة.

في البدايةِ ظننتُ تلك الأمور طارئةً.. وسأستعيدُ ما فقدتُ.. لكن الأيام تمر بي لأجدَ نفسي في منطقةٍ دون لونٍ ودونِ طعمٍ أو رائحة.. لأدرك بأنّي كائنٌ بلا أحاسيس. بفقدِهما أدركتُ معنى أنْ يموتَ الكائنُ حَيَّاً.. أنْ يراكَ مَن حولكَ ولا ترى أنتَ نفسَك.. تبتسمُ ولا تلامسُ قلبَك.. حتى الدمعة تتحولُ إلى حصى على خَدِّك.. أسألُ نفسي: هل أنا الموتُ الذي أراه ولا يراهُ غيري؟ أم أنَّ ما بي شيءٌ مِن صفاته؟

بدأَ الخوفُ والقلقُ يحتلَّانِ مكانَ السعادةِ والحُزن.. القلقُ الذي يُظهِرُ ضعفي وارتباكي وإنْ حاولتُ أنْ أُظهِرَ تماسُكي.. أرفعُ صوتي على غير ما كنتُ.. ولا أُفصحُ عن مخاوفي أو أظهرُ قلقي.. ويوماً بعد يوم كان ذلك الأمر يستقر في طبعي.. أقاوم القلق بالتجهُّم.. أستبدلُ موتَ الحُزنِ والفرح بنشاطٍ لا يتوقف.. اسم بيلسان مات ونسيَهُ الجميعُ.. ولم تعد مَن تتفوَّه به.. وإنْ تفوَّهتْ إحداهُنَّ يبدو كما لو أنَّه لا يعنيني.. في الوقت الذي كانتْ روحُ الملكةِ تتشبثُ بي.. تُحرّضني على القسوة.. تقودني صامتة.. حتى أمسيتُ غريبةَ على نفسي.

إلى تلك الليلة التي وقفتُ فيها كعادتي في قاعة الدرس.. أتأمل صفوف أعمدة القاعة كأني أراها لأول مرة.. أسأل نفسي: هل الملكة سيدة تتأملها الآن؟ أم هي أنا؟ أقواس عالية تتدلى منها أعمدة رشيقة.. مسارج الضوء تهتز على وجوه الواقفات.. لم أرَ يوماً ملامحَهُنَّ ضاحكةً كما هي اللحظة.. عيونُهن لا تفترُّ عن النظر إليَّ.. عيناي كما لو أنَّهما ليستا عينيَّ.. ارتعشَ جسدي وأنا أسأل نفسي: هل أنا مَن أتحكَّمُ بحواسي؟ تلبَّسَني رُعْبٌ أنْ تكتشفَ الجواري سَكْنَاها لي.

أغمضتُ عينيَّ أستنجدُ جاريتي فارعة: أخرجيني مِن دوامتي.. لم أعدْ أقوى على تحريكِ جفنيَّ! اتكأتُ على كتفِها.. متخيلةً همساتِهنَّ وتشييعَ نظراتِهن.. رجوتُها ألا تتركَني.. ظلَّتْ تُردِّدُ أدعيةً وصلوات.. تسألني عمَّا حَلَّ بي.. أردُّ عليها مغمضةَ العينين:

- أحسُّ روحَها تعبثُ بي!

ضمَّتْ رأسي إلى صدرها وواصلتْ أدعيتَها.. ثم رفعَتْ وجهي:

- سمِّي اللهَ وأغلقي جفنيكِ.

مُتردِّدَةً مع ذاتي كما لو كنتُ أحتضرُ.. نشطتْ أسناني بتمزيقِ شفتيَّ.. شعرتُ بألمٍ في مسامعي.. كنتُ أودُّ الحديثَ إلى مَن تسكنُنِي.. أنْ تتركَني.. تمنحني بعضَ الوقتِ.. تردَّدَتْ.

شعرتُ بإصبعِ فارعة تُلامِسُ شفتي.. ناظرةً بفزَع: كيف حصل هذا؟

خاطبتُها بصوتٍ مُرتجِف.. مُحاوِلةً فتْحَ جفني:

- انظري مَن تُطِلُّ مِن عيني.. سترينَ أنَّها هي؟ لستُ أنا.. لا أريدُ لإحداهنَّ أنْ تعلمَ بمَن يعبثُ بي.

- ولماذا يعلمن؟

صمتُّ قليلاً أفكِّرُ.. سألتُ نفسي: لماذا أخافهن؟ عليَّ بمواجهة الأمر.. ولحظتَها قررتُ العودة.. أشرتُ على فارعة:

- احمليني إلى قاعة الصلاة.. يجب أنْ أواجههن.. وأن أتخلَّصَ مِنها!

- لكنَّكِ مُتعَبة.

- سأتحداها.. هيا امضِي بي.

مُصمِّمَةً على مقاومتِها.. جلستُ على مقعدِ الدرسِ.. خرجَ صوتي.. ولم أتقيدْ بما كنتُ أودُّ إخفاءَه.

- الملكة.. تُبلِّغُكُنَّ السلامَ.. وتقولُ لَكُنَّ هي لم ترحلْ.. هل تشعرنَ بها تسكنُكُنَّ؟. أنا أشعرُ بها.. إنها تراكُنَّ بعيوني!

رفعتُ رأسي لأرى صدى كلماتي أو كلماتِها في عيونهن.. كُنَّ صامتات يتأمَّلْنَني.. صمتُّ بدوري. الكل يبحثُ ملامحي.. أشعرُ بصراع يحتدِمُ بداخلي.. لينتصرَ صوتي بعد صعوبة.. سمعتُهُ يُبسمِلُ ويُصلِّي على الرسول ويثني على الأئمة والآل.

ثم أخذتُ أتأمَّلُ تلك العيون المُشْرَئِبَّة.. صدحَ صوتي مَرَّةً أُخرى مواصلاً: أقفُ بينكُنَّ لتحدثَكُنَّ الملكةُ سيِّدةُ مِن عيوني التي تنظرُ إليكنَّ مِنها فهل ترينَها؟ هي لم ترحلْ عنَّا.. تدعونا أنْ ننشغلَ بالمحافظةِ على مملكتِنا.. ولا نهتمُّ لرحيلِها.. تدعونا إلى أنْ نُفكِّرَ بمواجهةِ المخاطِرِ التي تتهدَّدُ ذي جبلة.

صمتُّ أرقبُهنَّ.. تصاعدَ همسٌ مُتفرِّقٌ.. ما لبِثَ أنْ ارتفعَ.. أردفتُ: لم ترحلْ مليكتُنا.. وكُلٌّ مِنكُنَّ هي الملكة سيدة.. وستظلُّ ملكةَ الإسماعيلية في الدنيا والآخرة.. سنراسلُ الجميعَ باسمِها ونمهرُ رسائلَنا بختمِها.

ارتفعَ صوتٌ خجول: أنتِ مولاتُنا.. ثم ضجَّتِ القاعةُ بالتكبيرِ والتهليل. داهمَني عَرَقٌ غزير.. شعرتُ في تلك اللحظاتِ بأنَّ روحَ الملكةِ تتوارى بداخلي.. ما لبثَ صوتٌ آخر أنْ ارتفعَ مِن وسطِ القاعة: "امضِ بنا أنتِ مَلِكتُنا ولا تبالي!" لا يشبهُ صوتَها.. مرّرتُ ناظري أبحثُ عنه بين وجوههن.. لم أهتدِ لكثرةِ الوجوه المشرئبَّة.. لم أهتدِ لمعرفته.. رُبَّما كان صادراً مِن داخلي. ابتسمتُ موجهةً كلامي إليها دونَ أنْ أُحدِّدَ موقعاً بذاته: أُعاهدُكُنَّ أنْ نحافظَ على مملكتنا.

ذلك اليوم كان يوماً فاصلاً في حياتي.. حضرَني المُعلِّمُ.. سيدتي أسماء.. المستشار اليامي.. السلطان سبأ.. رأيتُهم ترحل أرواحُهم ولا يراها أحد.

لا أعرف كم قضيتُ مِن الوقت أحثهنَّ على كتم أسرارِ ذي جبلة: لا يجب أنْ يعلمَ أحدٌ خارج القصرِ برحيلِها.. ومن تفعلْ فقد قضتْ علينا جميعاً.. ستظلُّ ذي جبلة في حُكْمِ مملكتكن. ضجَّتِ القاعةُ في صخبِ المشاعرِ: "السمْعُ والطاعة...".

سقطتُ أرضاً وصوتُ الملكة أسماء يأتي مِن طفولتي في جبال حراز: "حين تسمعين مَن يُردِّدنَ السمع والطاعة لكِ.. اعلمي بأنكِ وصلتِ".

صحوتُ وسطَ ظلامٍ دامسٍ أفكرُ بمَا دارَ.. لحظتَها قرَّرتُ تحديدَ الطريقَ التي ستمضي فيها ذي جبلة.. كان لصفةِ "حُرَّة" وَقْعٌ في نفسي.. وكأنَّ سيدتي أسماء حين أطلقتْها على مولاتي سيِّدة كانت تقصدني أنا.. ولذلك لم أشعرْ حين أمهرُ الرسائل بـ"الملكة الحُرَّة" إلا أنَّها أنا.. لكن اسم سيِّدة ظلَّ ضرورةً قصوى.

سارتْ ذي جبلة دونَ مُنغِّصَاتٍ لِعدَّةَ أشهُرٍ.. خلالها تركتْني مساعدتي فارعة وحيدة وانزوتْ في دارِ النسخ.. كنتُ بحاجة إلى رأيها حين وصلتْنا رسائلُ تفيد بمقتلِ أميرَي قلعةِ التعزية وصَبِر.. وأنَّ المُتغلِّبين على تلك القلاع والحصون أعلنوا خلعَ طاعتِهم.

كان ذلك أول امتحان.. الجميع ينتظرُ ما سأفعله. وما زادَ قلقي قدومُ أميرِ حصن خَدِد والتعْكَر عمران بن الزر الخولاني.. وفوجئتُ بهمسِهِ مُوحياً معرفتَهُ برحيلِ الملِكة الحُرَّة سَيِّدة.. وأنَّهُ الأولى مِن غيره بذي جبلة.. مُتعهِداً حمايةَ ورعاية جميع جواري القصر.

هزَّني ما سمعتُ وكادَ يُغمى عليَّ.. وحمدتُ العادةَ التي جُبِلَتْ عليها ذي جبلة وهي حَجْبُ وجهِ الملكة.. لأتماسَك محاولةً السيطرةَ على ثباتِ كفِّي وصوتي.. فيما فرائصُ جسدي ظلَّتْ ترتجف.

قرَّرتُ لحظتها أنْ لا أدعه يخرج مِن القصر.. لا أعرفُ هل كان ذلك حُمقاً مني أم حكمة.

أشعنا بأنَّ الأمير سيظلُّ في ضيافة الملكة.. في الوقت الذي أخذنا بالحذر مِن تسرُّبِ أيِّ خبر خوفَ ردودِ أفعالِ إخوتِه وبني عمه.. جازمةً بأنهم لن يجرؤوا على البوح بما يدور.. ولن يتجرَّؤوا بنشر شكوكهم.. خوفاً مِن وصول السر إلى آخرين.

أخذتُ في التقصِّي لأعرف مَن سرَّبَ سِرَّنا.. وسريعاً ما اكتشفنا أنَّها إحدى جواري البريد.. حين باعتْ سِرَّنا إلى جواري حصن التعكر.

ولأولِ مرَّة تشترك أظافرُ وأسنانُ جواري القصرِ بتمزيقِ جسدٍ حَيٍّ حتى لفظتْ أنفاسَها. أدركتُ ذلك اليوم أنَّ ذي جبلة في مأمَن.

وعكس ما توقعتُ فقد أخذَ بنو الزر الخولانيون يخيمون في الوديان المحيطة بذي جبلة دون أن يجرؤوا على الاقتراب. كان همي البحث عن وسيلة للخروج دون خسائر مما نحن فيه.. يلازمني رعبُ المستقبل. استنجدتُ بالوصايا.. كُتُبُ المُعلِّمِ كانتْ كلها صامتة وكأنها تشترك في اختباري.. فلم تهدِني إلى حيلةٍ ناجعة. استنجدتُ بفارعة لكنها رفضت الحضور.

أخذَ مِنَّا التفكيرُ بذلكَ المأزق جُلَّ أوقاتِنا.. كُنَّا في موقفٍ لا يُشجِّعُ على الاستعانة بأي أمير مِن أمراء الحصون حتى لا ينتشر ما نخفيه.. لم أوقف البحث عن حيلة.. ليذهب تفكيري بعيداً بعيداً إلى طريقٍ لم يسبقْ أنْ طُرِقَ.

كلّفتُ رسولاً بحمْلِ رسالةٍ سِرَّاً إلى أمير المؤمنين الآمر بأحكامِ الله في القاهرة.. شرحتُ فيها خطر المناوئين للدعوة المستعلية.. وتطاول بعض الأمراء بإعلانِ إتباعهم الدعوة النزارية.. متوسلةً انتدابَ مستشارٍ لمساعدتِنا على مواجهتهم.. ولم أذكر الحقيقة.أثناء ذلك زادَ عبثُ الخولانيين وأمسى حُصننا التعكر وخدد مأوىً لقُطَّاعِ الطُرُق والعابثين بالرعية وممتلكاتهم.

لم أكن على ثقة من تجاوب أمير المؤمنين.. فكان القلق يحوم حول ذي جبلة ليل نهار.. نفكر فيما علينا فعله إذا ما أخفق رسولنا. ظللتُ أراقبُ تحركات الخولانيين.. ويبدو أنهم كانوا يستعدون للانقضاض.. وقد فرضوا جبايات على قوافل التجارة العابرة من ذي جبلة.

قاربَ صبري على النفاد حين عاد رسولُنا وبمعيته مستشارٌ يُكنَّى بـ "ابن نجيب الدولة" بمائة فارس مِن السودان.. وقد وصفَهُ الوزيرُ الجمالي في خطابه إلينا:

بالأمير المنتجب عز الخلافة الفاطمية.. فخر الدولة العلوية.. الموفق في الدين.. ولي أمير المؤمنين.

فور مثوله في حضرتنا أعلنتُه أميراً للأمراء وأمرتُ أنْ يُضاف فوق ما تحت أمرته أربعمائة فارس من قبيلتَي سنحان وهمدان.

لم يستوعب الخولانيون ما يدور.. في الوقت الذي حشدوا قبائلهم وعملوا على قطع الطرقات وإعمال النهب.. فكانتْ تلك الأفعال أول اختبارٍ يواجه ابن نجيب الدولة.. ليتجه مِن فوره مُحاصراً حصن التعكر في محاولةٍ لاقتحامه..

لم تمضِ أيامٌ حتى فَرَّ مَن فَرَّ مِن الحصن ومَن تبقَّى قُتِلوا.. وما هي إلا أيام حتى عادوا ليتجمَّعوا في حِصنِ خَدِد. ومِن جديد لَحِقَ بهم المصري وعملَ فيهم القتل.. وبذلك طارتْ أخبارُ انتصاراتِ ابنِ نجيبِ الدولة وبسالته في أنحاء جزيرة اليمن.

نَعَتَنِي بعدَها مَن فَرَّ مِن الخولانيين بـ "أروى" تشبيهاً لي بالحيّةِ الملساء. لينتشرَ ذلك النعتُ بين الناس.. وأعترفُ بأنَّ ذلك ضايقني في بداية الأمر وأمسيتُ لا أُعرَفُ إلا به.. ووجدتُ أنَّ عليَّ قبولَه بدلاً أنْ أعيشَ باسمِ الملكة سيّدة.

ولم يمرْ وقتٌ حتى كنتُ قد حذفتُ اسم سيدة ووضعتُ بدلاً عنه أروى.. لأمهرَ الرسائل بـ: الملكة الحُرَّة أروى.. ليظهرَ بعد ذلك على مراسلات ذي جبلة.. وليختفي اسم سيدة مِن الوجود.. لأجد نفسي في أروى.. وبذلك تخلَّصتُ مِن آخرِ خيوطِ ثوبِها. في الوقت الذي لم يهتم أحدٌ بذلك التغيير.

استمرّتْ ذي جبلة مقرّاً لمعسكر ابن نجيب الدولة منذ وصوله ومُنطلَقاً لهجماته. ولم تنقضي سنة ٥١٤ حتى أمسى الجميعُ يخشى ذي جبلة.. خاصة بعد استعادة قلعتَيْ تعز وصبر.. وبذلك عادتِ الأوضاعُ للاستقرار.

أثناء ذلك تفرغتُ لترتيبِ الجواري مِن الداخل.. قرّبتُ رئيساتِ الجماعات والمعلمات مني وكلّفتُ أكبرَهن بالإشراف على أنشطتِهن.. وقلّصتُ عدد الجماعات.

كما أدخلتُ تغييراتٍ على أوقاتِ الدروس الليلية وأنواعها.. وخفضتُ أوقات الصلوات.. وزدتُ مِن أوقاتِ المديح لنستعيدَ بذلك ما فقدناه مِن حماسٍ وترابط.. وألغيتُ دروس النهار.. وأمسى القصرُ يضجُّ بالحياة والنشاط الليلي".

كان الظلامُ قد فردَ كساءَه حين أكملتُ قراءة ما صففتُ.. خرجتُ متكئاً كتفَ الليل.. أرقبُ هبوطَ وميضٍ تعوَّدتُه.. أقضي شطراً كبيراً مِن الليل بصحبته.. أحادثه طويلا وهو يصغي.. ثم دونَ إذنٍ يصعد.. ولا أعرفُ متى رحلةُ الليلِ تنتهي.

يحملُني الصمتُ إلى سنواتي الأولى.. حين كانتْ تستهلُكني قراءةُ الكتب.. وأتذكرُ بداية غربانٍ استأنسَتْني بعد تحايلي بنثرِ فتاتِ الخبزِ على شفةِ جدار السطح.. لتتكاثر مناقيرُها.. وما إنْ ينتهينَ حتى يُحلِّقنَ عاليا.. أبقى على شفة السطح بعد تحليقهن. أرقبُهنَّ بمتعةٍ غامرة.. لأميّزَ كُلاً منهن بحركاتهن.. أضحَتْ لهنَّ مواعيُد مع فُتاتي.. أنثرُ فتات الخبز على السطح.. ازدادَ عددُهن.. بعد أيامٍ أمام باب البرج.. تقترب حذرة.. يوما بعد يوم ألِفَ المكانُ حضورَها.. ثم أخذ بعضُها يتجرأ ليقتربَ مِن عتبات باب البرج.. ومع الصباحات أصحو لأجدهن متجمعاتٍ ينتظرن.

سنة بعد أخرى حتى كان بعضُها ينسلُّ باحثاً داخلَ البُرج عمَّا يلتقطه.. لا أعرف متى لكنَّني مع الأيام وجدتُ بعضَهُنَّ يشاركنَني بُرجي وقد أنشأنَ أعشاشهن في فتحاته الحجرية.. ولم يعد مذ ذاك برجُ الصمتِ صامتاً.

أخرجُ صباحاً ليُحلِّقَ بعضُها دون وَجَل ويحطُّ على أكتافي ورأسي.. لم يكن يزعجني منها إلا مخلَّفاتِها التي تنثرُها كيفما شاءتْ.

وكانَ أنْ ظهرتْ مع هطول الأمطارِ نباتاتٌ في زوايا السطحِ.. ذوَتْ وجفّتْ بعد أسابيع.. إلا إنَّ إحداها قاومتِ الجفاف.. آخذةً بالنمو وحيدة.. تمدُّ مَجسَّاتِها كعمياءٍ باحثةً عمَّا تتكئُ عليه.

سارعتُ بنقلِها إلى وعاءٍ ملأتُهُ تراباً وخليطَ مُخلّفاتِ الطيور.. وضعتُه على يمين باب البرج.. أسقيها بين يومٍ وآخر.. لتتحولَّ مجسَّاتُها إلى ما يُشبِهُ خيوطاً متشبثةً.. تتسلقُ أحجارَ الزاوية.. زادتْ نضارتُها وتفرّعتْ أغصانُها.. ولم تمرْ أشهُر حتى غطَّتْ أحجارَ ركنِ الباب.. بعد فترةٍ بزغَتْ لها زهورٌ صغيرة.. دُهشتُ لألوانها البنفسجية.. لتتحول مع مرور الأيام إلى الغامقة.. لتستقر سوداء لامعة.

وهكذا أصبحَ لي ما أعتني به مِن طيور وشُجيرة.. أوزِّعُ وقتي بين القراءة ومراقبة تلك الكائنات.. وما تبقى لمجالسة وميض الكون. ذلك الوجود الغامض من حولي.. تدعوني الأرواح التي ألفتْني. سارتْ سنوات السطح بعيداً عن معرفة ما يدور في جوف القصر.

اليــوم الرابع:

مع بزوغ فجر يوم جديد.. تنقطع الذكرى.. لأعود لصفحاتها:

"أتذكر لحظة حَلَّ ابنُ نجيبِ الدولةِ في حضرتنا.. سحرَنِي بصوتِه الجهوري.. ولغتِه الجزلة.. انشغلتُ متخيّلَةً هيئتَه.. صوتُهُ مختلفٌ عن كل مَن سمعتُ.. ولذلك أمرتُ بتجهيزِ مكانٍ أراهُ منه حين قدومه.

ولا أنكرُ بأنَّ عيني أنِسَتْ له.. وقد رأيتُهُ ذا طلعةٍ بهية.. لكنَّها الوصايا تأتي زاجرة.. لأعود إلى ما عليَّ أنْ أكون.

وهكذا كلما خفقَ القلبُ تروضه الوصايا.

تزايدَ عسكرُ ابنِ نجيبِ الدولةِ عدداً وعُدَّةً.. وأضحى الأمراءُ يتهافتون لمقابلته.. ليثار قلقي لخطرٍ قادم.. قررتُ أنْ لا أدعه يلتقط أنفاسَه.. زاجَّةً به في حروبٍ متتابعة.. أنقضتْ سنواتُهُ الأولى يغزو هذا ويهاجم ذلك.

جلستُ إلى نفسي وذلك السؤال يحاصرُني: إلى متى ستظلين تبتكرين له حروباً؟ سيأتي يوم يلتفت إلى ذي جبلة! ثم لماذا يجب أنْ يظل في ذي جبلة؟ أما اعتبرتِ مما مضى وتهديد المُفضّل صاحب التعكر؟ وعصيان مفتاح؟ لماذا لا تبعدينهم من القلاعَ والحصونَ المحيطة بذي جبلة؟

ولذلك بدأتُ بالبحث عن بلادٍ تكونُ مَقرَّاً لمعسكرِه.. على ألا تكون بالبعيدةِ فيغيب دورُها في صَدِّ أيِّ عصيانٍ مُحتَمَل.. لأوجهه بالانتقال إلى "الجَنَد".

لم تمضِ أيامٌ حتى نُقِلَ المصريُّ إلى مقرِّهِ الجديد.. لتبدأ المصاعب.. فلم يُكمِلْ سنتَه الأولى حتى أكَّدتْ مراسلاتُنا بأنَّه يتعامل من مقرة في الجند كأميرٍ مُستقِل.. يتواصل بأمراء البلاد

وولاتها بشكلٍ مباشرٍ ويعقدُ اللقاءات دونَ العودةِ إلينا. دعوتُه بالوصول.. وإذا به يدخل ذي جبلة بجُنْدٍ كثر.. وكأنَّهُ يودُّ إخباري بأنَّه الأقوى.. لحظتَها عرفتُ ما عليَّ فعله.. لم أُظهرْ له انزعاجي مما يدور.. بل شكرتُهُ وأشدتُ بجهودِه في مطاردة دعاة النزارية في جزيرة اليمن.

كان ذلك ظاهر الأمر أمَّا باطنه فقد نويتُ كسرَ عنجهيته بإرساله لمحاربة النجاحي الذي أعلنَ خلعَ طاعتِه منذُ سنوات.. شارحةً له أهمية تهامة وخصوبة أرضها السهلية.. إضافة إلى اتصالها بالبحر ما يُقرّبُ المسافةَ بيننا وبين مصر. لم يتأخر في إعلان الاستعداد للحرب. في الوقت الذي بعثتُ إلى النجاحي سِرّاً أنْ يأخذَ حِذرَه.

زحفَ ابنُ نجيبِ الدولة للهجوم على زبيد.. مُعتمِداً على هيبةِ انتصاراتِه السابقةِ التي لم يُهزَمْ فيها قط. وما إنْ وطأتْ قدماهُ أرضَ زبيد حتى انقلبَ عليه جندُهُ مِن السودان ولم يعدْ يُفرّقُ بين عسكرِهِ وعسكرِ النجاحي.. لتدُبَّ الفوضى.. ويفرّ ابنُ نجيب الدولة ويتفرق جندُه.

بعد تلك الهزيمة وقفَ أمراءُ الحصونِ والقلاع مترقبين الثأرِ مِنه.. وكان عليَّ أنْ أحافظَ على التوازن.. سارعتُ إلى دعمِه.. وكلَّفتُ مَن يجمعُ مَن فَرَّ مِن جندِه.. ليستعيدَ بعضَ قوتِه وحتى لا يطمع به الطامعون.

ظننتُ بعد ذلك بأنه قد عادَ إلى رشدِه.. حين أظهرَ طاعتَه.. لكن ما إنْ أستردَّ أنفاسَه حتى انقلبَ على عقبيه.. لتصلَنا المراسلاتُ بأنَّهُ أمسى يتبجحُ في مجالسِه وبين ندمائِه بأنّه تابعٌ لأمير المؤمنين في القاهرة وليس لامرأةٍ لا تمتلكُ مِن أمرِها رشدا.. بل وأخذَ يحطُّ مِن مكانتي.. متفوِّهاً وعدَه بخلعي: "لقد خَرِفَتْ واستحقَّتْ عندي أنْ أحجرَ عليها".. مُحاكياً السلاطين بتعامله ومراسلاته.. ليتضح لي بأنَّ لا جدوى منه.

أضمرتُ إعادتَه مِن حيث أتى.. فأوعزتُ مَن يبعثُ إلى مقامِ مولانا أمير المؤمنين في القاهرة بأنَّ ابنَ نجيب الدولة يدعو للنزارية.. وأنَّه يحاربُ المستعلية.. وفي الوقتِ نفسِه دبَّرتُ حيلةً لاعتقاله.. ثم طلبتُ مِن أمير المؤمنين أنْ يُرسِلَ مَن يقتادُه إليه.

وهكذا غادَرَنا وقد قُيِّدَ بقيودٍ مِن فضة. كان منظراً دامياً لقلبي وقد حَمَلَهُ العبيدُ داخلَ قفصٍ مِن عيدانِ النخيل. سَكبتُ دموعاً حرَّى على فارسٍ قَدِمَ إلينا يملأ الدنيا ضجيجاً".

قرصني جوعي.. وضعتُ صفحاتِها جانباً.. متسائلاً: هل هي بالفعل شوذب؟ تلك الصبية الرقيقة الخجول. انصرفتُ باحثاً عن ما تبقى مِن كِسَرِ خبزِ الغربان.. مضغتُ آخرَ كسرة.. مُنهَكاً قضيتُ ذلك المساء في مناجاة وميض الأرواح.. حتى أستقبلت سكونَ هالةِ ضوءِ فجرٍ جديد.. هربت إلى برجي.. لا أميز ما حولي لعبثُ الجوعِ بي.. كنتُ أحاولُ إغواءَهُ بطوافِ أرجاءِ السطح.. بتمدّدي أحثُّ أشعةَ الشمسِ أنْ تتفضَّلَ بإفنائي.. منظرُ قُرْصِها المعلق جَعَلَني أحلمُ بقضمِه.. شممتُ رائحتَهُ شهيّاً.. حاولتُ الوثوب.. عجزتُ.. مددتُ يدي لغصنٍ غَضٍّ مِن شُجيرتي.. تذوقتُه.. ثم زهرة.. مذاقُ حنظل.. تعقبتُ حشرات.. أحد غرباني استكانَ بين كفيَّ.. ثم وضعتُ تلك الأفكار أرضاً وتركتُها تعيش.. وجدتُني أزحفُ هابطاً الدرجَ مِن جديد.. تعثرتْ بي ممراتُ الدورِ الأعلى مُنهَكَةً.. عيناي أصابَهما الدوار..

أتسحبُ مِن حُجرةٍ إلى أخرى.. زاوية رُصَّتْ على أطرافِها صناديق.. وأخرى أرففُ كُتب.. مقاعد وثيرة ومتكئات كثيرة.. لا ريح تهز الستائر.. صناديق هنا وهناك.

أزحفُ في قصرٍ جائع حتى مِن بقايا أصداءِ أصواتِهن.. قاعة تقودني إلى أخرى.. وممرٌّ يسكبُني في مَمَر.. بابٌ كبيرٌ لم أقوَ على فتحه. تركته متجهاً إلى ممر طويل لم أطرقْه من قبل.. كما لو كنت أتشمم روائحاً شهيةً.. تتبعتُها زاحفاً حتى كاد يُغمى عليَّ مِن الإعياء.. لم أُصدّقْ أنفي وعينيَّ: مطاحن وأواني طبخ.. أفران.. أكوام حطب.. وساقية تحتضن ماءً.. أحواض حبوب ودقيق وأوعية خوص مليئة بكسر الخبز وجرار سمن وعسل.. كالملهوفِ أرسلتُ يدايَ أتلمَّسُ وأتذوقُ كلَّ شيء.. لم يكنْ حُلماً.. التقطتُ كسرةً و لُكتُها.. سكبتُ في فمي سمناً وعسلاً.. حتى صببتُ عرقاً نتناً.. فقدتُ وعيي لبعضِ الوقت.. ثم عادتْ لبدني حيويَّتُه بالتدريج.. أحملُ هلعي ووعاءَ كِسَرٍ كثيرة وإناءَ عسلٍ وسمناً.. نثرتُ كثيراً مِن الفتات لغرباني.. شاركتْها عصافيرُ الدوري.. رأتْنِي الشمسُ أسحبُ خيوطَها مبتسماً.. نمتُ تلك الليلة أُردِّدُ: أين ذهبْنَ ساكناتُ القصر؟!

اليوم الخامس:

مع بزوغ اليوم الخامس تفرغتُ لترتيبِ ما استطعتُ مِن الصفحات.. لم يعد ما يُقلقُني بعد وفرةِ الطعام.. أخذتُ أقرأ: "ظلَّتْ نهايةُ ابنِ نجيبِ الدولةِ وتلك التقلُّباتُ تقودُني لتلمُّسِ أسبابِ عنجهيتنا حين نمتلكُ القوة.. وتمرُّدنا على السلوك القويم حين تزايدُ السلطة بين يدينا. بدأت أشعر بعزوف لا أعرف مصدره.. طغيانٍ أتألم مِنهُ.. ولم أندمْ على رحيلِ المصري كما ندمتُ على موت فارعة.. وآاه مِن فارعةَ!! تلك الجارية التي لم أتصوَّر أنَّ رحيلَها سيغير معارفِ كنتُ أظنها راسخة.. حتى أدركتُ تلك الاهتزازات التي ظلت تتعاظم بداخلي.

كنتُ أرى فيها نفسي.. دوماً أتذكرها في لحظاتِ الخطوبِ وأتذكر أسلوب دعمها لي.. تتصرف كأم ضنينة.. أسلوبها السهل والمؤثر.. لأكتشف بأني كنت أتكئ عليها في كل شيء.. لكنها تركتْني.

هي مَن كانتْ تُشيرُ عليَّ - دونَ أنْ أطلبَ منها - بأمورٍ أرى فيها محبةً وصدقاً فلا أملكُ إلا اتباعها.

كانتْ مشورتُها دوماً صائبة.. ومنهُ هذا التدوين الذي كانتْ هي السبب في كتابتي له.. بدورِها كانتْ مُقتديةً بذلك الناسخ الذي ذكرَ لها بأنَّه يدوّنُ ما يعيش. فارعة استخدمتها حِيلةً تواجه بها انقطاعِ جواباته. وهنا أتذكَّرُ تلك العلاقَة الغريبة التي نشأتْ بينهما.. ومثلما كانت البداية بتلك اللفافة السحرية التي ظننتُها لفافة فريدة مِن نوعها.. كما ظننتْ

بأنَّها أيضاً قد وقعَتْ بين يديها مصادفةً ولم تعرفْ بأنّي مَن وضعتُها في طريقها لتستخدمَها.. حتى أنه حين احتجزَها الناسخُ ظانَّاً بأنَّها ظلَّتْ لديه.. ولا يعرفُ بأنَّنا

استعدناها بعد أيامٍ مِن احتجازها.. لم يكنْ مِن سحرٍ بها.. هي فقط مِن رقوقٍ صُنِعَتْ في حي اليهود بغرض المراسلات السرية.

وأتذكر بأنَّها كانتْ تلحُّ عليَّ تكليفَها بأعمالٍ ذاتِ صلةٍ به.. وتعتقدُ بأنَّي لا أعرفُ ما يدور فتعمل على تضليلي بغرض إيصالي إلى عدم الشك مِن تصرفاتها. احتاطَتْ لتلتقي به بشتى الحِيَل.. ففي الوقت الذي كانت تلتقي به كانتْ تحدثُني عن ظنونِها حوله.. بل وتشي بأمورٍ قد تكون فيها نهايته.. ولم تكن تدري أنَّ العاشقةَ تفضحُها عيونُها.. وكثيراً ما تدفعُها مشاعرُها لحتفِها بسعادةٍ غامرة.. بل وبتلذُّذٍ تُقادُ إلى رمادها.. أو تتحول إلى فراشة نار تلتهم قلبَها.

أرقبُ تحوَّلَ طباعِها.. وتغيُّرَ تعامِلها.. فهي كاتبتي والمؤتمنة على مراسلاتي.. وكنتُ كثيراً ما أسألُ نفسي: لماذا قرَّبتُ كاتبةَ رسائلي دونَ سائرِ الجواري؟ هل لأنَّها أكثرُهُنَّ استجابةً وطاعةً وأكثرُهُنَّ صبْرَاً وضعفاً؟! وهل الملكةُ سيدة كانتْ ترى فيَّ تلك الصفات حين قرَّبتْني منها واصطفتْني؟

ودوماً أسألُ نفسي: لماذا يميلُ السلطانُ إلى أكثر الناس طاعةً وخضوع؟! كنت أظن أن الجارية فارعة تتخفى وراء قناع لا مرئي.. لا تتجاوز في تعاملها حدود خَطتها لنفسها منذ كنتُ أنا جارية.. وكأنها تتبع ما قرأت في كتب المعلم.. لتُريني نهايتَها عكس ظنوني وأنّها كانتْ صادقة.. ولم يكن لها مآرب.. فهاهي تدعوا عزرائيل لترحلَ معهُ دون ضجة.

يوماً سألتْني: لماذا لا تخُطّينِ ما تعيشين؟ لأعرف بأنَّها تخطُّ ما تعيشه.. رافضةً أنْ تُريني صفحاتها.. لحظتَها عرفتُ بأنَّها لم تتوقفْ عن الكتابةِ إليه.. فتشوقتُ إلى قراءة (صعفان) وكيف تخاطب جحوده.. بل ولأرى كيف تراني أيضاً؟

لم يكن أمامي إلا البحث عن صفحاتها.. تلك الكتابات التي نجحَتْ في إخفائها بعض الوقت.. لأصل إلى مخبأها في النهاية.. ويا لضياء نواح عشقها الجريح وعتبها الدامي.

وأعترفُ بأنَّها حرَّكَتْ فيَّ عاطفةَ الأنثى التي كنتُ أظنُّها قد ماتت يوماً.. سائلةً نفسي: كيف تهيمُ كل ذلك الهيام لمجرد لقاءات عابرة؟! وكيف له أن يكون هو بكل تلك الصلافة حين يحرمها من كتاباته؟!

وحقاً أشفقتُ عليها مِن رِقّةِ طبعِها.. لم أُظهِرْ معرفَتي بما يدور.. استمررتُ في معاملتِها كما لو أنَّي لا أعرف شيئاً.. وفي لقاءاتِها به عجبتُ لها حين لم تُفصِحْ عمَّن تكون!

بعد وفاةِ الملِكة ترددتُ بإخراجِهِ مِن محبسه.. فكانتْ تلحُّ دوماً عليَّ بإخراجه.. أرسلتُها إليه بعد أشهُرٍ لتصعدَ بِهِ إلى أحدِ أبراجِ السطح.. بل وكلّفتُها بخدمته.. وكنتُ على يقينٍ بأنَّ بقاءَها جواره سيخلق مشاعر جديدَة بينهم.. متشوقةً لمعرفةِ تفاصيل تلك العلاقة.. لكنَّها أيامٌ جمعتهم لأعرف بأنها تركتْهُ.. لم أكن أتوقع ذلك وهي المتلهفة إليه.. لا أعرف ما دار.. وذلك الكُتيِّب الذي كانت تدون ما تعيشه اختفى بعد لُقياها به.. أخبرنني بأنها انزوت في دار النسخ التي كان يسكنُها.. وأمست ملاذاً لها.. قِيلَ لي بأنَّها تقضي أوقاتها

بنقشِ الجدران وتلوينها.. أرسلتُ بدعوتِها إليَّ فلم تستجب.. بعدها لم أهتمْ بما تصنع.. ولم أهتمْ بمعرفةِ سرِّ خيبتِها.

طالَ الأمرُ بها.. فكَّرتُ أنْ أزورَها.. لكنِّي أجَّلتُ ذلك وكنتُ واثقةً بأنَّها ستمِلُّ الوَحدة وتأتيني.

جعلتُ مَن تخدمُها تنقلُ لي ما يدور.. لتخبرَني بأنَّها منشغلةٌ على الدوام بنقشِ جدران ذلك الدار وتلوينه.. لم يكن مِن شكلٍ مُحدَّدٍ.. فقط تكرِّرُ نقشَ رأسِ أقرع ووجه غاية في القبح.

تركتُها منتظرةً نهايةَ نزوتِها.. تأتيني أخبارُها بين فينةٍ وأُخرى.. أخبرتْني المُكلّفة بخدمتِها أنّها لم تعدْ كما كانتْ تلك المُحِبَّة والمتفاعِلة مع مَن حولها وأنها أمستْ كثيرةَ الصمتِ والسرحان.

لا أعرفُ لماذا كنتُ متأكِّدةً بأنّها ستعودُ وتخرجُ ممَّا هي فيه.. ويا لقسوتي فلم أعدْ أعبأ بما هي فيه.. انشغلتُ عن متابعتها.. وكانتْ صدمتي كبيرةً حين جاءتْ خادمتُها تخبرُني بأنَّها وجدتْها على فراشِها وقد فارقتِ الحياة.. سحقَني ذلك الخبرُ.. ليتأكَّدَ لي بأنِّي شريكةُ ذلك الناسخ في رحيلِها.. وشريكته في فقدانِها.

كلَّفتُ مَن يعتني بتكفينها.. وأمرتهن أنْ لا يُجَزّ شعرُ رأسِها الطويل كما جرتِ العادةُ في موتى القصر.

بعد موتِ فارعة نبتتْ بداخلي مقبرة.. وكان قبرُها أولَ بذرة. انكفأتُ أبحثُ عن حزنٍ يواسيني.. حزنٍ أبكي فيه نفسي.. تغيّرَ إقبالي على السلطان.. لم يعد لديَّ نفسُ الشغف بمجريات أموره.. أخذتُ أُهمِلُ شؤون أمراء القلاع والحصون.. وشؤون الحرب.. لم أعدْ بعد رحيلها مثلما كنتُ.. كان موتُها كشْفاً لزيفِ هذه الحياة.

أيقظَني رحيلُها كما لم توقظني كُلُّ حوادثِ عُمْري.. لم يُفرَضْ عليها الموتُ بل اختارتْهُ.. هكذا دونَ أنْ تشكو لأحد.. حتى لي وأنا مَن كنتُ أشكو لها ودوماً تَهِبُ لإسعادي.. ها هي تدعوه إلى نفسها.. لتستكينَ في أحضانِ مَن نخشاه.. فقط تمدَّدَتْ دونَ أنْ تتناولَ شيئاً كما قال الحكيم.. استدعَتْ مَلاكَ الموت.. وربما شكَتْ له قسوتَنا وإهمالَنا.. حتماً رَقَّ قلبُه وأخذتْه الرأفة.. أو أنه عشقَها ليصطفيها له عروساً.

بعد أيامٍ وجَدَتْ الجاريةُ المُكلَّفةُ بخدمتِها ما كتبتْه قبلَ رحيلِها بين طيَّاتِ فراشِها.. لتزيدَني تلك الصفحةُ قَهراً: "بسم الله الرحمن الرحيم والحمد له حتى يرضى.. وسلامه وصلواته وبركاته الطيبات على نور الهدى وعلى الأئمة الأتقياء.. لم يبتلِ أولياءَه بما ابتلاهم تعنتاً ولا هضماً.. بل اختباراً.. وإنْ كان قد أحاطَ بكل شيءٍ عِلْمَاً ووسعَ أعداءَ دِينِهِ أناةً وحِلْماً ليحتقبوا بالاستدراج حوباً وإثما.. لم يكن إلّا الرحيل إلى جنان رب الأرباب وعفوه ومغفرته.. لم أرحل إلا بطمعي في عفوه وغفرانه.. ولم أفكر بأنَّ أتجرَّعَ سُمَّاً أو أقفزَ مِن شاهِقٍ.. لكنِّي دعوتُه مِن قلبٍ يفيضُ حُبَّاً وتسامُحاً.. حُبَّاً وتقرُّباً إلى رحمتِه.. وتسامُحاً لجميعِ خلائقِه.. كيف لا أغفرُ وقد أحاطَني اللهُ بحياةٍ ملأَها عزَ وجَلَّ بالمسرات.. ومنحَني

السلوى. أتضرَّعُ إليه أنْ يهدي قلوبَ مَن ظلموني وقسوا عليَّ بالغفران فقد كنتُ بينهم غريبةً وبقربهم ثقيلة.. أناجيه بالتسامح يزرعه في قلوبهم لي ولمَن سواي.

لم أكن باختياري لدار النسخ قد فكرت بالعبور إلى الأبدية.. فقط كنتُ أتوقُ للخلوةِ بنفسي بعض الوقت.. وبعدها أعود للحياة.. لكن ما اكتشفته مِن صورٍ لمولاتي بيلسان ملأ صعفانُ بنقشِها جدرانَ إحدى الغُرَف وسقفها.. لأكتشفَ لحظتَها يقينه.. ولأتعرَّفَ على شوذبه التي ظل يهيم بها.. في الوقت الذي لم أتخيَّلْ أنْ تكونَ هي يوماً.. أدركتُ وهمي لحظتها أمام يقينَه. هزَّني ذلك الاكتشاف وظلَّ سؤالٌ يتردد: كيف أعود.. ولمَن أعود؟! شعرتُ بالصمَم..حينها فكرت بالموت.. قررتُ المُضيَّ في الاتجاهِ الأسهل.. أنْ أقصدَ الله.. فغير طريقِه جحيم.. وكم هي سعادتي أنْ أمضي خاليةَ الوفاض.. فلا أطلبُ أحداً ولا يطلبُني أحد.. ما أرجوهُ مِن عالي القُدرةِ وعظيمِ المغفرةِ أنْ يُرسِلَ مَلاكَ الموتِ كي يُطهِّرَ روحي مِن بدني ويأخذَها أخذَ عزيزٍ مُقتدِر.

ربِّ إليكَ لا سواكَ ألجأ.. ربِّ لا تكلني إلى غيرِكَ فأشقى.. ربِّ أنا أَمَتُكَ وابنةُ أمتِكَ أتضوَّرُ جُوعاً إلى رضاكَ وعطشاً إلى سلواك.. ربِّ لا تدعني وحيدةً وأنتَ أرحمُ الراحمين.. سلَّمتُ نفسي إليكَ راضيةً طائعةً وطامعةً برحمتِك.. اللهُمَّ ارضَ عنّي.. اللهم فاستجبْ".

بكيتُ وكأنَّ مشاعر الحزن قد عادتْ إليَّ بعد أنْ افتقدتُها منذُ موتِ الملكة سيدة.. عادتْ بسخاء.. انتحبتُ.. وعِفتُ الزادَ لأيَّام.

كان ذلك آخرَ ما خطَّتْه فارعة.. وكانتْ حروفُها مُنسجِمَة.. تُبدي التصالُحَ مع النفس والرضى بما هي مُقدِمَةٌ عليه.. لتتركَ جرحاً في نفسي التهمَ كُلَّ الجراح.. وتأكَّدَ لي مِن كلماتِها بأنَّي شريكة (صعفان) في قتلِها. تعاودُني ذكراها في أحلامي لأجلسَ إليها وحيدةً.. ثالثنا الدموع.

وتُذكِّرُني حالتُها بما كانتْ تُردِّدُه علينا الوصايا: "الرِّجَالُ شَرٌّ وعلينا بقتلِهم في أنفسِنا وألَّا نتركَ لهم مجالاً لإذلالنا إنْ أردنا أنْ نمتلكَ أنفسَنا.. وتقولُ: لا يمكنُ أنْ نمتلكَ كرامتَنا إنْ قَبِلْنَا أنْ يكونَ لنا أزاوجٌ يرونَنا مُجرَّدَ إماءٍ.. أنْ نمنحَهُم حقَّ استعبادِ أنفسنا.. ندورُ في فَلَكِ رغباتِهم.. ولا هَمَّ لهم إلا غرائزَهم".

وهاهي سعَتْ إليه ليحوّلَها رماداً.. ونظراً لأنانيّته لم يشعرْ حتى برائحة دخانِها.

بعد رحيلِها تأتيني كرفيفِ طيرٍ يطعن قلبي.. كانتْ لي السلوى وكنتُ لها طريقَ الموت.. لا أعرفُ لماذا كنتُ أظنُّ أنَّ لها عقلاً مثلَ عقلي.. لكنَّها كشفَتْ خيباتي.

كثيراً ما تزورُني في منامي.. أجادلُها فيهِ كما لو أنَّها لازالتْ تعيشُ إلى جواري.. أُحدِّثُها عمَّا قالَهُ ذلك الناسخُ حولَ ربوبيةِ الرعيةِ للسُلطان.. فتردُّ ضاحكةً: إنَّ كُلَّ ما يقولُه حَقٌّ.. بل إنَّها كانتْ تحكي في منامي عن شغفِها بما يتفوَّهُه وعن عشقِها لَه.. أنهرُها بأنَّ العشقَ في حياتِنا خَطَرٌ.. تضحكُ وكأنَّها لم تَمُتْ.. تُهامسُني في سُخريَّة: أظنكِ الأخرى مغرمةً به.. وإلَّا لما انشغلَتْ مولاتي بناسخٍ بسيط. أُهدِّدُها بأنَّا لم نَعُدْ في سِنٍّ يمنحُنا تلك

الأحاسيسَ وأنَّهُ كذلك مُسِنٌّ.. فترُدُّ ضاحكةً: لكنَّ عينيكِ تفضحانِ ما يجولُ بداخلِكِ.. فلا تُغالطي نَفْسَكِ".

انتهيتُ مِن قراءةِ صفحاتِها الدامية.. لم أستوعبْ أنْ يموتَ إنسانٌ بتلكَ البساطة.. خرجتُ باحثاً عمَّا يبعثُ فِيَّ الأملَ.. لكنَّ تفاصيلَ فارعة جَثَمَتْ على مشاعري.. وكأنَّها ماتتْ منذُ لحظات. أسأل نفسي: لماذا لم أفكر بالموت وأنا في تلك الأوضاع؟ هل ظل الأمل يقتاتني؟ أم هو اليأس؟

تحضرُني مشاهِدُ ما كان بيننا.. لحظاتُ فتحِها لنوافذِ الأملِ في رسائِلِها.. أستحضرُ لحظاتِ لقاءاتِنا.

انقضى النهارُ هائماً في أرجاءِ السطحِ دونَ هدف.. حتى أنّي لم أرفعْ ناظريَّ للأُفُقِ الذي ظَلَّ يتساءَلُ حولَ ما يُشغِلُني.. نضبَتْ دموعي.. حتى الشعور بتحجُّرِ عيني.

اليوم السادس لرحيلها:

يعيدُني ضوءُ الصباحِ إلى صفحاتِها.. بلغَ عجزي عدم خروجي مِن تحتِ أغطيتي.. أشعرُ بأنّي دونَ روح.. تلكَ الكلماتُ جعلتْني غريباً.. سائلاً: كيفَ بنفسٍ تصلُ مرتبةَ الفناءِ دون وسائط.. دون خوف؟ هل نضبت الرغبة بالحياة؟ لكن هل حقاً سكنتْ فارعةُ قلبي يوماً؟ ومشاعرُ المحبةِ لها أكانت مُجرَّدَ أنانيةٍ تحتَ غطاءٍ زائف؟ لماذا لم تدفعْني مشاعري للسؤالِ عنها بعد أنْ غادرتْني؟! فقط ظللتُ أنتظرُ عودتها كعادتِها حين تفاجئُني.

صفحاتٌ أعادتْني إلى تفاصيلِ آخرِ لقاءٍ.. أُعاملُها كائناً مُحتالاً وهي مَن اتخذَتْ مِن الوشايةِ حِيلةً لإبعاد الظنون.. كيف كانتْ أنانيَّتي تتضاعفُ يوماً بعد يوم لتذللها وتقربها؟ أيُّ روحٍ هي روحُها؟ بل أيُّ روحٍ تلك التي تنسحبُ دونَ مِنَّةٍ تقديراً لعشقٍ حتى أنا لم أستوعبْهُ.

ما كان يضرُّ لو حقَّقَتُ أمَلَها.. أنْ نقرأَ معاً ما دوَّنتْه؟! الآنَ يتأكد لي أنَّني لا أختلفُ عن الآخرين.. كما تراني صفحاتُ شوذب.. فهل يا تُرى بابُ الموتِ هو بابي أنا أيضاً للوصول إلى مبتغاي؟

أحسُّ أنَّ أروى كانتْ لا ترى فينا عاشقين.. فكلماتُ العشقِ لديها لا تعني إلا السلطان.. وقد بدتْ ككائن جاف.

ثم تلك الذكريات تجعلُني أقفُ حائراً مع نفسي.. وإنْ مَضى على فارعةُ سنوات بعيدة.. فأهرب إلى ترتيب بعض الصفحات:

"لم تمر سنوات قليلة على رحيلِ ابنِ نجيبِ الدولةِ حتى اضطرَبَتْ أنحاءُ جزيرةِ اليمن.. وأمستْ قلاعُها وحصونُها في صراعٍ مُستعِر.. فالطامعون للتوسُّع أخذوا يدفعونَ بقبائلِهِم لمهاجمةِ جيرانِهِم.. والداعون للنزارية باشروا بملاحقةِ دعاةِ المُستعلية.. وتزايدَ دُعاةُ

المذهبِ الزيدي.. كان يظنُّ الكثيرون أنَّ بدايةَ نهايةِ سلطانِ ذي جبلة كانتْ مع رحيلِه.. ولا يعرفونَ أنَّ بدايةَ النهايةِ كان قبل ذلك بسنوات.. وبالتحديد بموت فارعة.. تلك الجارية التي هَزَّتْ برحيلِها ثباتي ومزَّقَتْ إيماني بما ظللتُ أعملُ لأجله طوالَ عُمري. موتُها جعَلَني أنظرُ إلى داخلي.. فلم يَعُدْ يُهمُّني انتشارَ النزارية بينَ أمراءِ عدن وأبين وحضرموت.. أو بين أمراءِ المخلافِ إلى تعز والجند.. ولا انتشار الدعوات المذهبية الزيدية.

منذُ رحيلِها وسؤالٌ يتردَّدُ بداخلي إلى أين نمضي؟ بعد أن مضى مَن مضى؟! أخذتُ أنظرُ إلى سِنيّ حياتي.. مُحاولةً حَثَّ هِمَّتي في مواجهةِ ما يدورُ مِن صراع.. متذكرةً ما كانتْ تُردده الملكةُ سيدة.. وتلك الوصايا التي تبدو مستمدة من كتُبُ المُعلِّم صعصعة.. ثم أجدُ فارعةً تقفُ أمامي هامسةً: وماذا بعد؟ لأعودَ لتأمُّلي بمَا كان.. وتصوّري ما سيكون.. لأصلَ إلى قناعةٍ أنَّ لهاثنا عَبَثٌ.. فلا آبَهُ بتلك الصراعات المنتشرة في أنحاء جزيرة اليمن.

أعيشُ منذُ رحيلِها فقدانَ توازُن.. فلم تعد يهمني هرم الجواري.. ولا أصدى نواقيسُ أصواتهن. فقط ذلك السؤال يتردد: إلى أين؟ في الوقت الذي أشعرُ بأنَّ ذي جبلة تعيشُ مِحنة.. أبحثُ عن مخْرَجٍ.. مخرج لا يعيدني للتسلط.. ألجأُ للوصايا فأجدُها تدفعُني لحِيَلِ القتلِ ولا أجِدُ بها مَخْرَجاً.. لكني وجدتُ في كُتُب المُعلِّمِ صعصعة بصيصَ أمل.. حيث واجَهَ المعلمُ محنةً وصراعاً يشابِهُ ما أنا فيه؟ حين كتبَ كل تلك الصفحات.. بدأها بالطريق إلى السلطة.. حتى وصوله إلى دمج المعبود بالسلطة.. وطريق آخر في فصل الدعوة عن السلطة.. هذا ما كنتُ أبحثُ عنه وما كانتْ الملكةُ سيدة قد مالت في آخرِ سنواتِها إليه.

لم تبخلِ الأقدارُ عليَّ حين وصلتْ رسالةُ أمير المؤمنين الآمِر.. أسماها (البُشرى) وجاءَ فيها: "أمّا بعد.. فإنَّ نِعَمَ اللهِ عند أمير المؤمنين لا تُحصى.. ومِن أشرفِها قدْرَاً أنْ رزقَهُ مولوداً زكيَّاً مَرْضِيَّاً.. وذلك في الليلة المصبحة بيوم الأحد الرابع مِن شهر ربيع الآخر سنة أربع وعشرين وخمس مئة.. سُمِّيَ بالطيب.. وكنَّاهُ بأبي القاسم كنيةَ جده نبي الهدى.. ولمكانتك من حضرة أمير المؤمنين المكين.. أشعرَكِ بهذه البُشرى.. لتأخذي مِن المسرة بها بأوفى نصيب.. ولتذيعيها في مَن قِبَلَكِ مِن الأولياء المؤمنين إذاعةً يتساوى بالمعرفة بها كل بعيد وقريب".

وبذلك وجدتُ المَخْرَجَ المناسب.. وسارعتُ بإعلان الدعوة للإمام الطيب في جزيرة اليمن.. لتتواتر الأخبار بعد ذلك بمقتل أمير المؤمنين الآمِر مِن قِبَلِ النزاريين.. وملاحقةِ الإمام الوليدِ "الطيب".. وخوفاً عليهِ أرسلتُ إلى القاهرة مَن يأتيني به قبلَ أنْ يصلَ إليه النزاريون.. ليُحمَلَ إلينا مِن مصر في سريَّة تامة.. ويا لصدمتي حين اكتشفتُ بأنَّ الإمام الطيب ما هو إلَّا أُنثى! ولأيام كثيرة عشت في حيرة. عرفتُ خلالها أنَّ أميرَ المؤمنين الآمِر حين بشَّرَنا بمَقْدَمِ الإمام الطيب كانتْ زوجتُه حاملاً في أيامها الأخيرة.. وقد قُتِلَ قبلَ أنْ تلِدَ.. وما بشارته إلا تمنّي بمقدَمِ مولودٍ ذكر يخلفه على الإمامة.

كنتُ في موقفٍ غريب.. لكنَّني قررتُ المُضيَّ قُدُماً فلم أغيِّر مِن الأمر شيئاً.. وسميتُ المولودةَ طيِّبَةَ سِرَّاً.. ورأيتُ أنَّ الاستمرار في الدعوة سيُنقِذُ ذي جبلة. مضيتُ قُدُماً بعدْ أنْ أحطتُها بسريَّة تامة.

أعلنتُ فصل دعوتنا عن مصر التي أمست نزارية.. وكان ذلك على نهج الملكة سيدة.. لتستقل جزيرة اليمن بدعوتها الطيبية.. كما أعلنتُ تكريسَ أنشطتِنا في الدعوة بعيداً عن التسلُّط. وبذلك ابتعدت بذي جبلة عن مخاطر التجاذب بين الأمراء وصراعاتهم المذهبية.

ومع توجُّهِنا الجديد كان علينا تنصيب داعي للدعاة.. أو داعي القلم ليقوم بهذه الدعوة العظيمة.. في لحظة صفاء قفزَ إلى ذهني (صعفان) المترهبِن في بُرجِهِ العالي منذ سنين.. فلا أحدَ يُجاريه في التلاعبِ بالأفكارِ وسعةِ المعرفة.. اقترابي من أفكارِه كانتْ منذ سنوات.. حين حدَّثني عن أفكارِ التجرُّدِ الإلهي وعظمةِ الإنسان.. مبتكراً جميعَ الأفكارِ والعقائد وجميع الأخلاق والقيم.

أخافَني ما سمعتُه يومَها.. ليدفعني السؤال عن السلطان.. فقال: السلطان لا يؤمِنُ إلا بنفسه.. يستخدمُ كل شيء بما فيها الأديانَ كوسائل لتكريس ربوبيته دون أنْ يُصرّح بذلك.. وإخضاع رعيته واستغلالهم.. وبالدين يمنحُ نفسَه حقَّ القتلِ والاستغلال.. فيستخدم ذلك لمزيدٍ مِن بسْطِ سُلْطَتِه.. في الوقت الذي يُقدِّمُ نفسَهُ كحامٍ لإلهٍ مُجرَّد من خلال تلك الكتب التي اختصَّتْ بتبجيلِ تجرُّدِه مِن صفاته وذاته.. ما يقود إلى نفي وجوده.. تحت مبدأ تعظيمه.

وما تؤكّدُهُ أحداثُ التاريخِ هو أنَّ العوامَ وقودُ الربِّ الحاكِم.. حطبٌ تلتهمُهم نيرانُ الدعوات. مُنبِّهَاً لي إلى ضرورة قراءة كل ما خُطَّ في علم المذهب حتى أعرفُ مقامي على رأس السلطان.. وليظلَّ جميعُ الرعية صاغرين. وقال: الرب الذي يعبدون هو أنتِ.

رمى بجمرِ كلامِه الذي لو خرجَ به للعوام لدمَّرَ كُلَّ شيءٍ.. في ذلك اليوم شعرتُ بخطورة كلماته.. سألتُه في لقاءٍ آخر: هل قرأتَ كُتبَ معلمِك صعصعة يوماً؟

- كانتْ أمانة.. ولم أفكر بخيانة الأمانة!

- قد يكون ما قرأتَ مِن كُتب أخرى بينها كُتُب مدسوسة.

- كل كُتُبِ المذاهبِ تتصارعُ.. بل كُتُبُ جميعِ الأديان وغايتُها واحدة.. السيطرة والتسلط تحت إردة ربوبية.. وما هو أكثر وضوحاً تقسيم الناس إلى مَن يفهم ومَن لا يفهم.

فالباطن له رجالُه وهم مَن يدورون في فَلَكِ الحاكم.. المستفيدون مِن تجهيل البقية.. من لهم الظاهرُ..عوام الناس.. وهم مَن يراد منهم ألا يفهمون.. وعليهم بظاهر الأشياء.

وقد تجلَّى ذلك مِن خلالِ علومِ المذهب المتفرّعة.. ولذلك على السلطان أنْ يكونَ أكثرَ الناسِ إلماماً بألاعيب ومتاهات تلك العلوم.. وألا يرتهِن لغيره ممَّنْ يدورون في فلكه.

طلبتُه التوضيحَ فقال: الحمد لله الذي لا تدركُه مَن لا تدركه الأبصار.. ولا يحصره مَن لا تحصره الأفكار.. دون تناوله للأفكار أستار.. أو لأقدام الأوهام زلل وعثار.. فهو سبحانه لا يدخل تحت اسم ولا صفة ولا يُومَأ إليهِ بإشارةٍ مُكيَّفَة.. ولا يُقالُ عليه حيٌّ.. ولا قادر.. ولا عالم ولا عاقل ولا كامل ولا تام ولا فاعل.. لأنه مبدع الحي.. القادر العالم العاقل التام الكامل الفاعل.. ولا يقال له ذات.. لأنَّ كُلَّ ذاتٍ حاملةٍ للصفات.. كالجسمِ وأعراضِه

التسعة.. والنفس وصفاتها.. وكل ما ذكرتُه هو مِن كتبِ المذهب التي تشيرُ إلى أنَّ الله هو السلطان.. وينفي وجود المُجرَّد بصورةٍ غير مباشرة".

قلتُ : لكنك تلوي عنق المعنى ما يؤدي إلى التجديف.. فلم نجد كتاباً من كتب المذهب يعني ما ذكرت.. فرد بصوتِ المستكين: لو قرأتِ ما قرأتُ لذهبتِ أبعد مما ذكرت.. فتلك الكتب تدفعكِ للتفكُّر فيما يعبدُه مَن حولك.. وستجدين أنَّ مَن يُعبد أقرب إلى العقل.. فماذا بعد إلغاء صفاته وأسمائه.. لترفعه تلك الكلمات إلى ما ليس في متناول العقل. وذلك إسفافٌ بالعقل خالق كل شيء. ستجدينه في تلك الكتب لا موجوداً ولا غيرَ موجودٍ.. ولا هو عالماً ولا هو جاهلاً.. ولا قادراً ولا عاجزاً.. وهو إلهُ المتقابلين وخالق المتخاصمين والحاكم بين المتضادين.. وهو ليس قديماً وليس بالمُحدَث. فالقديمِ أمرُه وكلمتُه والحديثُ خلقُه وفطرته. ولا ينبغي أنْ يُقال: إنَّ للبارئ ذات لأنَّ الذات حاملةُ الصفات.. ولا يُقال أنه موجود.. لأنَّ الموجود يقتضي موجوداً أوجِدَه. وهكذا تستمرُ تلك المقولات حتى تجدي نفسَكِ تقفين في فراغٍ تأويلي غريب.. باحثةً عمَّن لا وجودَ له.. لينكفئَ العقلُ بالبحث عنه في داخل الذات.. بعدَ أنْ تيقَّنَتِ عدم وجوده خارج ذاتك. ولذلك أتمنى على مولاتي مزيداً مِن الاطلاع في علوم المذهب.

أدخلَني ببساطتِه تلك في حيرةٍ.. ما جعلَني أتساءل: هل بعد هذا العمر مِن قراءة وتأويل؟ وحقيقةُ الأمر ما إنْ خرجَ مِن مجلسي حتى أضمرتُ أنْ يُحبَس حتى لا يصل بمَا يتحدثُ إلى أحد. لم أنمْ ليلتها.. ظلَّ عقلي يُقلِّبُ الأمر.

وحين حان الوقت كلفته داعياً لدعاة الطيبية المستعلية.. وجمعت إليه كافة دعاة الإسماعيلية.. ونصَّبتُه بحضورِهم.. وأمرتُهم بإذاعةِ بُشرى مولود الإمام الطيِّب في جميع أنحاء جزيرة اليمن.. وأخذِ البيعةِ والعهد له والدعوة إليه والصلوات عليه. وهكذا أصبحَ لذي جبلة صفة جديدة.

بعد مرور سنة على وصول الإمام طيبة أمرتُ بإقامةِ الاحتفالاتِ بإعلانِ ولايتي وحمايتي للإمام الطيِّب.. إلَّا أنَّ سِرَّ جنسِها تسرَّبَ.. ليُجاهِرَ البعضُ بالتشكيك.. وتطوَّرَ الأمرُ إلى مطالبة بعض أمراء القلاع والحصون بالكشف عن جنس ذلك الكائن. لأعلن من فوري الطيب إماماً مستتراً.. وأنه قد حُمِلَ سِرَّاً إلى جزيرة الهند حيث لا تصله أيادي النزارية.. بمبرر الخوف على حياته. وهكذا أشاع الناس خبر ستره".

تركتُ صفحاتِها جانباً بعد أن سافرتْ ذاكرتي إلى يوم دعتني الملكة أروى إلى مجلسها.. كنتُ في وَجَل.. وقد بدأ صوتها بسؤال: ما واجب العالِم؟

لأبحث عن العالم الذي تقصده.. أجبتُها بمواربة:

- ما يريده السلطان!

ليُسمَعَ صدى قهقهتِها.

- أريد مِن كلماتكَ توضيح معالم الدين وإحياء مراسيمه.. وتبيين شريعته.. وتفسير تأويله وحقيقته.. وتمكين دعاته. ومهمتنا جميعاً الدعوة للإمام الطيب.

صمتٌ لصدى صوتٍ ينبثقُ مِن داخلي متسائلاً: لمَن أدعو؟ ومَن أوجِّه إليه الدعوة؟ وبعد صمتٍ خرجَ صوتي:

- لكنِّي...

ولم تدعني أُكمِلُ :

- مَن سمعتُ منه قبل سنوات ذلك الكلام قادرٌ على الإتيان بما هو أعظم!

فهمتُ ما ترمي إليه فأذعنت.. بينما ما استقرَّ بداخلي أمرٌ آخر. ردّدَتْ جدرانُ القاعةِ صدى أصواتِ الجواري بالتهليل.

أتذكرُ بأنّي عدتُ بُرجي أُفكِّرُ فيما أمرتْنِي به.. متسائلاً: لماذا اختارتْني دون سواي.. وهي مَن تعلم بأنَّ لا إيمانَ لي.. ثمَّ ترفعُني إلى مقام برج الشموس ومرتبة العقل السادس؟ وأنا المُنكِر لكل ذلك. هل السلطان لايهمه إلا نفسه؟!

أستعد لملاقاة الدعاة.. أجلس على مقعدٍ عالٍ.. أسمعُهم يتحدثون في استعراضٍ عقيمٍ لمهاراتهم الكلامية.. وأساليب إغواء ضحلة.. أستمع إليهم هازاً رأسي بعلامة الإعجاب.. مُحقِّرَاً كل ما أقوم به في باطني.. وتارة أختار كلمة أو كلمتين مُشجِّعَاً.. مُدرِكَاً مدى إغراقِهم في خديعة أنفسهم.. وحين أحتار في أمرٍ ما أشير إليهم بالعودة إلى الملكة الحرة أروى.. مردداً تلك الجملة: "حجة وكافلة كافَّة المؤمنين والدعاة الميامين والحدود المستجيبين لتوضح لهم البراهين في ولاية الأئمة عليهم السلام وتظهر معالم الدعوة فهي من لا يفوقها أو يوازيها في مرتبتها من الدعاة أحد".

وهكذا كنتُ ألعن نفسي بعدة أقنعة.. فأنا في خلوتي كائنٌ عارٍ مِن كل شيء.. وأمامهم كاهنٌ مُدَّعٍ أتلبَّسُ أمامهم حكمة لا أملكها.. لأعيشَ بعد كل لقاءٍ صراعاً مع نفسي.. إذ الإيمان بربٍّ لا نستطيع إظهاره كان يسحقني.. يحيلني إلى كائن مخادع يبالغ في تعذيب نفسه.. فما بالي وأنا أروِّج لإمام أرادته مولاتي ذكراً؟! وإنْ كانتْ تستهويني بعض الوقت تلك المتاهات.. ليكتمل العبث بأقصى مداه. أقلب تلك الكتب واحداً تلو آخر.. باحثاً عما يعينني بتغيير معرفتي.. فلا أجد ما أبحث عنه.. استرخي أبحث بداخلي.. وبعد جُهْدٍ أجد في أعماقي مبتغاي. لكل شيء عدة أوجه.. ويمكنني التحدث عن أي شيء بأكثر من معنى.. أن أطرح دون أنْ أهجر نفسي.. وأن أستمع إليهم ولو بظلال.

وأعود إلى أول اجتماع بالدعاة.. كنت في رهبة.. استمع إليهم واحداً تلو الآخر.. البعض يتحدث بأسلوب مكشوف.. وآخر يذهب بعيداً في صناعة الكلام.. وهكذا كان الجميع يظن أنه الأفضل.. وهكذا لقاء بعد آخر.. رأيت ما هم فيه لأذهب بعيداً.

بدأ صوتي دون ذكر الله ولا الصلاة على رسوله.. ولا الثناء على الأئمة المعصومين.. فقط تحدثتُ عن ظاهر الشريعة.. وأنَّ الناس لا يهمهم غير الظاهر.. والظاهر هو الإسلام..

ولذلك علينا بالظاهر.. أما الإيمان.. أو العبادة العقلية فلها أهل التأويل.. وإذا ما انتخبتم نفراً فأعمِلوا فيهمُ الجدل.. طابقوا المحسوس بالمعقول.. واعلموا أن أول الديانة لله تعالى معرفته.. وكمال معرفته توحيده.. ونظام توحيده نفي صفاته.. واعلموا أنَّ وصفه تشبيه،، ونعته تمويه.. والإشارة إليه تمثيل.. والسكوت عنه تعطيل.. والتوهم له تقدير.. والإخبار عنه تحديد.. وعليكم ألا تقولوا بالتشبيه ولا بالتجسيم ولا بالتعطيل.

أقول ما أعنيه لينشغلوا بالبحث عن تأويل ما لا أعنيه.. يوماً بعد يوم أشعر بألفة غريبة مع ألاعيب كلامية أمارسُها عليهم.. أُمعِنُ في إذكاءِ الجدل.. وحين يحتدم أترك الأمر للقاء التالي. ولا يأتي اللقاء اللاحق إلا وقد وجدتُ لِما يطرحون أكثر مِن جواب.

اليـوم السابع:

أصحو مِن ذكرياتِ سنواتي الطويلة.. وبلهفةٍ أبحر في صفحاتِها:

"حين بدأتِ الحرة سيدة بالتفكير في موطن جديد يكون حاضرة لسلطانها.. كنتُ حريصةً على الحصول على كُتبِ المُعلِّم صعصعة قبلَ رحيلنا مِن صنعاء. انشغلتُ بالبحث عن وسيلة للوصول إليها.. فكرتُ بالذهاب إلى حانوت جوذر وأنْ أطلبَ منه تسليمي ذلك بصفتي ابنته.. رأيتُ أنَّ الأمرَ مُعقَّدٌ.. وقد أزيده ضياعاً.. وربما أفقد تلك الكتب إلى الأبد.

حدَثتُ الملكة بفكرة جمع كتب المذهب مِن صنعاء ليكون للدعاة مكتبتهم في حاضرتها الجديدة.. وكان تجاوبها للفكرة عظيماً.. إذ سريعاً ما كلَّفتْ أحدَ رجالِ زوجها الملك بتلك المهمة.. وكان ذلك المُكلَّفُ شاعراً ذا قامةٍ تلفتُ الأنظار بقِصَرِها.. وكثيراً ما راودَني عن نفسي.. مرسلاً هداياه بين فترة وأخرى.. وجاء الظرف الذي أظهر ليني. ولم يتوانَ في إرسال عسكره.. مُركِّزاً على حانوتٍ بعينه في سوق الوراقين.. لكنه بعد جهد لم يحصل على شيء.. ثم أرسلَ مَن يُنقِّبُ داخل الحانوت وفي زوايا الدار حسب ما أشرت عليه.. وللمرة الثانية لم يستدل على صندوق تلك الكتب.

كانت الأيام تتقاطر وأرى أملي يذوي.. نضجتْ بداخلي الرغبة.. ويوماً بعد يوم تحوَّلتْ تلك الرغبة إلى شغف.. هامستُ الحرة سيدة بأني أعرفُ بأسرار بعض بيوت صنعاء.. وأنَّ هناك كُتُباً مُهمة للمذهب في بعض دورها.. لتلحقني بمجموعة جواري كمساعدات للمُكلَّفِ اليامي.

كان عملُنا يقضي أنْ تزورَ كُلُّ جاريةٍ دُورَ أُسَرٍ يُفترَضُ أنَّ بحوزة سكانها كتباً ومخطوطات.. ظننتُ أنَّ مهمتي ستقتصر على أيامٍ قليلة.. لكنّها امتدتْ.. لم يكن لنا أنْ نخبرَ أحداً من نكون.. تفرقنا بأسمائنا الجديدة.. سكنتُ حَيَّ اليهود.. أجولُ شوارع وأسواق وأحياء مدينة بعد انقطاع سنوات.. أعدو في كل اتجاه.

لم أتصوّر أنّي سأَضطرِب وأنا أقترب من دكان جوذر.. حتى إنّي كنتُ أسمعُ دبيباً بداخلي.. حيلتي مناغاةُ هيامه.. لحظتها قررت ألا أطيل.. أن أزورَه زيارةً قصيرة.. أسبرُ حالتَه.. ثم أتركُه لأفكرَ بأي المسالك أسلكها للوصول إلى ذلك الصندوق.

وفي لحظات اللقاء الأولى كدتُ أكشفُ له عن حقيقتي وهو يحاورُني خارجَ الحانوت.. فضّلتُ الهروبَ وودَّعتُه.

عدتُ بعد أيام أكثرَ تماسُكاً.. وقد وضعتُ خطةً مُحكَمةً لإدارةِ هيُامِه.. لكن لقاءاتي بجوذر لم تكن بالأمر السهل.. فجأةً أظهَرَ تواطأً مع نكراني لذاتي وما أدعيه.. في محاولةٍ منه لكسب ودي.. ولم يكن يعي بأنّي مَن تديرُ تواطئَه.. وبمساعدةِ عرَّافة يهودية أعرفُها منذُ صغري نجحتُ في زرعِ وشم الرمز الأعظم على كفِّه.. تلك العرافة التي كانتْ تُدعى إلى مجلس الحرة سيدة.. وهي مَن كانتْ تتردد على القصر منذ عهد الملك علي محمد الصليحي الذي كان ينتظر زياراتها السنوية ليستمع إليها كثيرا. لكنها شاخت وأضحت حركتها محدودة.

سبق للحرة سيدة أن اختلتْ بها لأيام.. ثم عرفنا بأنها تنبأتْ لها بشأنٍ عظيم.. وأنَّ رمز الملك الراحل.. يجب أنْ يكون تميمتها.. وهو الرمز الذي أوصى الملك أنْ يُصوَّر على بدنه.. وعلى شاهدِ قبره.. لكن مقتله بعيداً عن صنعاء حالَ دون ذلك. وكان منذ بداية سلطانه قد اتخذَهُ شعاراً له فلم يُقهَر.

كلامُ العرَّافة وافقَ هواها.. ويوماً بعد يوم ألحظُ هوسَ الحُرَّة بذلك الرمز.. ولذلك علَّمنا جوذر إجادة نقشه وضربه دون أنْ يعرف لماذا؟ فكان عليَّ مِنذ ذلك اليوم العمل على رعايته والمحافظة عليه.. وأنْ يظلَّ بالقُربِ مني حتى آخر العمر.

بعد عدة زيارات ودعتُه دونَ وعدٍ.. عائدة وقد عرفتُ مِن كلامه بمكْمَن تلك الكتب.. وكانت لي مع اليامي صفقة يحصل كُلٌّ مِنَّا على ما يريد.

بعد انتقالنا إلى ذي جبلة أعطيتُ وقتاً لمطالعة كتب المعلم.. لتدفعَني صفحاتها إلى إفناء نفسي في الحُرة سيدة.. أنْ أستلذ باستعبادها لي.. أتماهى في إسعادها.. أن أكون يدها التي تنفذ ما تريد.. وأظافرها التي تنتزع كل مريب.. لأعرف أن تلك الوصايا ما هي إلا صدى لتلك الكتب. وأستنتج أنَّ علاقةً ما على طريق السلطان كانت بين المعلم وأسماء.

لا يعلم باستحواذي تلك الكتب إلا اليامي الذي أمسى مستشارا للملكة الحرة بعد نفي المكرم إلى التَعكر.. وإن كان لا يعرف أهمية ما تحمله تلك الكتب.

كنت قد عرضتُ على الملكة كتاباً من هدايا مستشارِها اليامي سِرَّاً.. كان قدَّمَهُ له جوذر هدية.. لتُدْهَش وتعجب بدقة صنعة تلك الأحرف.. وروعة زخرفها.. طرحتُ عليها فكرة جلبه.. لتأمر على الفور بإحضاره كناسخٍ ومُنمِّقٍ لرسائلها.

توالت الأيام وطرأت أحداث كثيرة.. لكنه اليامي ظل يلح بملاحقته.. ولا يعلم أنه لم يعد لي حاجة به.. حاولتُ إقناعه بأنّي لستُ شبيهةً بجواري إغوائه.. وأنَّ ما بيننا انقضى.. لكن ذلك كان يزيده إصراراً.. ممتطياً تصاعد رغبته.. مكثراً من هداياه.

كان بذلك يشغلني عن الحرة سيدة.. إفناء النفس في حب السلطان كما جاء في كتب المعلم.. أنْ لا أنصتَ لما يعزفه القلب.. أن أحاول نسج أقنعة بينه وبين المغريات.. وأرهف لصوتٍ يناديني دوماً إلى السلطان.. وقد أدركتُ بعد رحيلِ الملكة سيدة أنّي سرتُ في الطريق الصحيح.

وأتذكرُ يوم هدَّدني اليامي يائساً مِن صدودي.. ملوِّحاً بإفشاء سِر استحواذي على صندوق الكتب. خفتُ لحظتها مِن نظراته.. لا أعرف ما كان يستهويه فيَّ؟ لليالٍ لم أنم.. أفكر وحيدةً ولا أجروَ أنْ أبوحَ بحملي لأحد.. أتصوّر وقد دفع بحياتي أيضاً للهلاك. سبقته بإخبارِها أنَّهُ يلاحقُني منذُ زمن. كنت أرتجفُ ناظرةً في عينيها لحظة تغيَّرَ لونُ وجهها.. وقفتْ دون أنْ تطلبَ مني مزيداً مِن الحديث.. حدَّستُ أنّي أوصلتُ ما أريدُ إيصالَه بشكلٍ خاطئ.. بل أحفرُ قبري بلساني.

سارعتُ بالركوعِ هامسةً بهلعٍ ظاهرٍ: "لم أمكنه.. وهناك مَن اضطجع معهن". أمسكَتْ بكفي وقد لانتْ نظراتُها.. لأدرك بأنَّها تراجعتْ عن عقابي.. طالبةً ذكرهن واحدة واحدة.. وما كان أسرع عقابها. أما اليامي فلم يشعر بما ترتب له الأقدار.. حتى إذا ما أرادتْ استخدامَه للمرة الأخيرة أوعزتْ أن يفر من ذي جبلة معلناً خلع طاعته.. مستجيراً بالسلطان سبأ.. دافعاً له محاربة النجاحي صاحب تهامة. ليُقتل اليامي أمام أبواب زبيد.. ولا يعرف أحد بأنها مَن أرسلتْ قاتلَه.. ثم أعلنتْ حزنَها على شاعرِها الكبير.. لتتقبل العزاء في أحد أنبل فرسانِها.. وأُلقيَتْ قصائدُ الرثاءِ مِن شعراءَ كُثر. وهكذا تخلصتُ منه.. لأبدأ في تكوين رغبتها لإزاحة أبنائها.. ثم السلطان سبأ.. ولم يعد أمامي غيرها ".

أكملتُ تلك الأسطر لتغشاني قشعريرة.. تلك الليلة نمتُ دون إطباق جفنيَّ..أشعر بأن فوق صدري تجثم أحمالٌ.. غبن يكاد يخنقني.. أستنجد بأصوات غرباني حين يستيقظن الفجر.. متذكراً يوم أمرَتْ مولاتي بنقلي مِن حبسي في دار النسخ إلى السطح الفسيح.. لم أكن أعلم إلا أنها الملكة الحرة سيدة.. ولم أدرك أنها قد رحلت.. ولذلك تعجبتُ مِن أمرِها.. وما أثار استغرابي أنْ أمرتْهن بإطعامي مما تأكلُ -هذا ما أخبرنَني به- بل وتأمرُ دوماً بملابس جديدة لا أعرف لمَن ألبسُها؟ وعطور لمَن سأتعطر بها.

في ذي جبلة لا تحدث الأشياء مصادفة.. فخلف كل حدث أمر.. ذي جبلة مزرعة التساؤلات: هل أرادتْ أنْ ترينَي اتساع السماء بنقلي السطح؟ أم لأرى الكون وأدرك ضآلة نفسي؟ أجزم بأنها تعرف أنَّ العبودية لا تكمن في الأمكنة وأن مسكنها العقول؟ لأكتشف بعد حين أنها أرادتْ إغراق حواسي بفراغ الوقت المتداخل.. ذلك الشعور الخادع بكثرة المشاغل. وأنَّ لا وقت يكفيني لخدمة طيوري.. أو العناية بشجيرتي.. وكذلك منادمة وميض الكون.. أو مجالسة الماضي.. وتلك الكتب التي كنتُ أجد مع نهاية كل جملة دعوة للتي تليها. هذا ما كنتُ في البداية.

أقف متخيلاً ما ترمي إليه مندهشاً لاتساع ما بيني وبينها.. أبحثُ عن أوجه كل معنى.. وتأويل ما يتستر بغموضه.. لأجد أسماء أبحث عنها منذ سنين.. وحُجُباً تشتاقها روحي في كل وقت وحين.. وتحفيزاً دائماً لإبحار العقل. لأجد بعد سنوات أن أفكار تلك الكتب

ملتني.. ليبتعد عقلي عنها.. ولم يعد لي غير استدراج الأمس لأتخيل العيش في حيواته.. وبعض الوقت ألتقي وميض الكون وسواد طيوري والشجيرة اليتيمة.

لتعاودني أسئلة: ماذا لو لم تتسلق الشجيرة شطراً من أوقاتي.. ولم تشاركني الغربان فتاتي.. ولم تنادمني الأومضة.. وذاكرة تستدرج ماضي أيامي.. هل كنت سأُجَن أم يكتمل جحيمي المنقوص؟

وهكذا روّضتْني سكينةٌ لا أعرفها من قبل.. يدفعني الشوق للخروج إلى عوام الناس لأحدثهم عمّا بين صفحات تلك الكتب. أسأل نفسي: لو أفشيتُ لهم.. هل سيفهمون؟ وإذا فهموا هل سينقص إيمانهم؟ كيف سيصنع السلطان عَوَامَّاً جُدُدَاً؟

وحين كنتُ ألوّح لمولاتي بذلك العبث تُسكِتُنِي بصوتٍ هامس: وبشريعته تمت الشرائع وهو صاحب إظهار الأمر كله.

وهكذا وجدتُ أنَّ بإمكان كل كائنٍ عاقلٍ أنْ يصلَ إلى دينٍ يخصُّه.. وطريقٍ تنتهجه روحُه.

مع مرور السنوات أمسيتُ جُزءاً مِن سطح القصر.. ولم تعد فكرة هبوطي لعامة الناس تثيرني.. لجسمي مواقيته التي يتنفس إيقاعَها.. يتسرّبُ الوقت ليذوى اهتمامي بتلك الكتب.. حتى أمستْ عاهات مسندة.

أنصرفُ عنها إلى غرباني وشُجيرَتي.. أمضي مجالساً لوميض كون فسيح.. أعود إلى وحدتي لأخلع جبتي الفضفاضة.. أرفضُ دعوات مولاتي إلى اجتماع الدعاة.. رافضاً كهنوتاً تغريني بأثوابه.. بعدها انقطعت دعواتها.

عدتُ لوحدة السطح.. أرى كل ما أريد رؤيته لنبض الحياة على الجبال وسفوحِها وخضرة الوديان.. أشعر في ذلك بتلاقي كل بعيد.. وتسرب ما حولي إلى داخلي.. لحظات شروق وغروب الشمس تأسرني.. متابعة زقزقة أسراب العصافير.. أصوات الفلاحين.. عزف يراع ناي على ظهر صخرة.. ليلٍ تزهو به بثور النور. ولم أعد أشعر بأني شخص لا أعرفني.

أعود من ذكريات الأمس لتسألني وحدتي: ماذا لو حضر الموت؟ كيف سأواجهه وحيداً؟ أفكر باصطحاب سواد طيوري؟ ثم أفكر بتسلق خيوطِ الشمس.. أن ألتف بخيوطُها؟ أو أنتظر وميض الكون البعيد؟

الخوفُ كان يؤرجحُنِي.. ولم أكن صادقاً وأنا أحاول استعارة شجاعة كاذبة.. باحثاً عن مكانٍ يليق لاستقبال عزرائيل.... بعد فقدانِ شجاعةٍ أدعيها.. ولذلك فكرتُ كثيراً وقررتُ أنْ أنسى الأمر. مُفضِّلاً مباغتته.. نامتْ بي الكوابيسُ ذلك المساء ولم يأت مَن يقرعُ جُمجمَتي.

اليوم الثامن:

أدركتُ صباحاً أنَّ صفحاتِها لم يعدْ منها الكثير.. تزايدَ قلقي: بِمَ سينشغلُ عقلي إذا أكملتُها؟! وبعد ترددٍ عدتُ لترتيبها:

" لم يعد يعنيني احتدام الصراع بين دعاة المذهب الزيدي.. فالداعي القاسم العياني يحارب كإمام زيدي على شهارة.. وبنو الهادي يقاتلون من أجل صعدةَ إمامةً زيدية.. والأشراف من بني سليمان في شام تهامة وحتى الحجاز يصارعون لمد نفوذ إمامتهم.. وفي ثِلا ظهرتْ إمامةٌ زيدية أخرى.. واستمرَّتْ تهامة الجنوب إمارة سنية لبني النجاحي وحاضرتها زبيد.. وصنعاء تتأرجح بين المتغلبين.. فتارةً همدانية وأخرى زيدية.

وهكذا المخلاف وعدن وحضرموت. تلك هموم تخلّصتُ منها.. والهَمُّ الأكبر الذي كان يجثم على تفكيري ويؤرقني ليل نهار الإحساس بدنو أجلي.. شعور بأني سأودع ذي جبلة.. أنْ أرحل عن قصرٍ عملتُ سنواتٍ وسنواتٍ مِن أجل أنْ أكون مَلِكَتَهُ.

إحساسٌ بارد حين أفكر بعزرائيل وحيدة.. ولا يسليني إلا التفكُّر فيما صنعتُه مِن طيبة بإعلانِها إماماً مستتراً.. بحيث لا يصلُها أحد.. ذلك كان تعويضاً عن خسائري.. ولم أُبقِ بعدي مِن سلطان لأقلق عليه أو عمَّن ستخلفني فيه.. فقط هي الدعوة الطيبية التي تنتشرُ بين المؤمنين بها.

ما كنتُ أخشاهُ حَلَّ.. فلم تبدأ سنة ٥٣١ حتى عجزتْ ساقاي عن حمْلِي.. وفقدتُ القدرة على النهوض مِن فراشي.. وإنْ ظَلَّ عقلي آخرَ حصوني يَقِضَاً.. فكثيراً ما يسترد كل ما عشته.. كنتُ أخاف أنْ يخذلَني يوماً.. أو أُصابُ بالخرف.. ولذلك سارعتُ إلى خطِّ وصيتي.. أستسقي مِن أمسي ما يؤنسني منتظرةً ذلك الزائر الرهيب".

تحملُني كلماتُها خوفَ الموت.. تارةً إلى أيام بعيدة.. وأخرى قريبة.. لأرى الجميع يرحل.. لكنَّ حيرتي تثير سؤالاً: هل بمقدور الفرد العيش دون قلب.. وأي سعادة يجنيها؟ أم أنني كائن ضعيف استهلكهُ قلبُه؟ فأي قلب هو قلبها؟ وأي إرادة قادتها في سبيل السلطان لأنْ تُقصي مشاعرَها؟ ثم ماذا يعني أنْ تكون أروى؟ أم أنَّ حُبَّ السلطان يعمي الذات؟

ذلك النهارُ أخَذَنِي في جدلٍ مع نفسي ومع ما قرأتُه في صفحاتِها.. لأكتشفَ بأنّي الآخر قضيتُ عُمراً كنتُ فيهِ شقيَّ القلبِ والإحساس.

لم يعدْ لي مِن بقاءٍ في ذلك السطح.. نهضتُ أُفكرُ القفز في الفراغ.. جُلتُ حوافَّهُ.. مازالتْ تلك الوديان خاليةً مِن الحياة.. السفوح.. الجبال.. حتى السحب هجرت السماء وتركتها متصحرة بزرقتها.. هل توقفت الحياة برحيل الملكة؟

عدتُ أودعُ بُرجَ الصمتِ.. الكتب واصطفافها بداخلي.. سئمتُ تعاليها المقوس.. جمعتُ ما تبقى من صفحات أروى غير المرتبة لففت حولها شريطها الأحمر.. مددتُ أصابعي أتلمس شجيرتي.. أوراقها ندية.. هل تدمع الشجر؟ غرباني خرجن لم يلتفتن لفتات الخبز.. تجمعن على أطراف السطح البعيد.. يحركن أجنحتهن ببطء.. ثم خفقات متتالية.. مالبثتْ أنْ تسارعت.. لترتفع مخالب بعضها عن السقف.. أرقبها ظانَّاً أنّها جُنَّتْ.. لكنها حلقت الثانية تلو الأولى.. ليُثار غبارُ خفقاتِ أجنحتها.. لم تتعثر إحداهن.. حلقن في منظرٍ يُوحي

بمَن يعرفُ طريقَه تحت سماءِ الغابة العالية. وقفتُ منبهراً بعد أنْ ظننتُ نسيانَهُنَّ أجنحتِهن.

مضيتُ لم يلتفتْ إليَّ السطح.. أو برج الصمت.. تجاوزت الدرجة الأولى.. خطواتٌ فرحةٌ تهبطُ السُلَّم.. هرباً مِن سنين طويلة.. ذلك الباب الكبير الذي عجزت عن فتحه في المرة الماضية كان مشرعاً وكأنّهَ ينتظرني.. عبرتُه.. ثم ستة أبواب أفضَتْ إلى ممَرٍّ مُترِب.. ينتهي بدرجات حلزونية تدورِ إلى الأسفل.. أشعلتُ مشعلاً.. بددت عتمة برائحة الصخر.. جدران داكنة.. شبيهة بمتاهة حجرية.. قادني الحذرُ حتى قاعةٍ واسعة ذات جدارٍ دائري بعيد بلا أعمدة.. دون نوافذ.. جدران صقيلة كزجاج أسود.. ظلال صفوف طويلة لتوابيت حجرية تتراقص. أسيرُ وسطَ سكينةٍ باردة.. التوابيت تتشابه.. سرت حتى واجهة الجدار لأرى نحتاً: "قيلَ إنَّ الجنة هناك في الآخرة.. تتجاور وجهنم.. ولا يُدرِكون بأنَّ جهنم هي

سكون الروح في الجسد.. وأن الجنة تحررها منه.. ولذلك حين يدنو الخلاص من جهنم فان إرادة الغيب تتعاظم لتحرر الروح بعيداً نحو سموات الجنة وفضائِها الرحب.. يبجلون الحياة ولا يعرفون بأنها الجحيم.. ويخشون الرحيل ولا يعلمون بأنه النعيم الأبدي.. الموت ليس إلا فناء الجسد.. إنعتاق وتحرير للروح مِن جهنم.. لتحيا نعيمَ الطُهرِ الأبدي.. لا على الروح سلطان لأنَّها روحُ قُدُسٍ مِن روح الله.

جميع أرواح الخلائق أتت من الجنة وحين تتحرر تعود لتسبح فيها متصلة بروح الكون.. غير مدنسة بأفعالنا.. لتمكث أجسادنا مثلما جاءت من طين الظلمة والعبودية.. ولمشيئته ننتظر عودة الروح إلى عبودية الجسد.. ولإرادته نقبع حول إمامتنا طيبة.. تبجيلاً لأمر الله".

يعلو تلك الأسطر نحت للرمز الأعظم يملأ الجدار.. وعلى رَفٍّ بلوريٍّ تحته وُضِعَتْ كأسٌ هي ذاتها التي حدثني عنها ذو الساق.. يحاذي الجدار تابوت اتجاهه مختلف عن اتجاه صفوف التوابيت الأخرى.. وأيضاً حجمه أصغر.. رُصَّتْ حوله صناديقُ مترعة بالحُليِّ والمجوهرات.. أتأمل في حيرة رافعاً ناظري.. صفوف ظلال التوابيت وقد وُضِعَتْ بمحاذاتها صناديقٌ صغيرة رُصَّتْ بعناية.. أعاود هَزَّ شُعلتي فتتمايل ظلالها.

حاولتُ زحزحة أحد أغطية تلك التوابيت فلم تستجب.. انتقلتُ إلى غطاء التابوت الصغير بعد جُهدٍ أزحته.. ليزفر رائحة زكية.. دنوتُ بكفي ملامساً زيتاً يملؤه.. ليتوهج بألوان قزحية.. بَدَنٌ صغيرٌ مغمورٌ تحت الزيت.. بحذر أمسكتُ بذراعِه.. إنه أملس كحجر صوان أبيض! سحبته ببطء.. أجلسته على حافة التابوت.. سالَ الزيتُ وتقاطر من أطرافه.. ليتوهج بضوء بارد.. رأس حليق.. ووجه دون ملامح واضحة.. فلا عينان.. ولا فم.. فقط وجه متماوج.. صندوق يختلف عن بقية الصناديق المجاورة للتابوت.. اقتربتُ منه.. شبيه بصندوق أروى.. فتحتُه لأجدَ مجموعةً مِن الكتب.. أخرجتُ أحدها لأتصفح.. ميزتُها.. كانت كتب المعلم.. فجأة تحرَّكَ غطاءُ التابوت المجاور دون أنْ المسَه.. ليظهر رأسٌ دون شعر.. وجهٌ دون ملامح.

وقفتُ مبهوتاً وقد تقاطر زيته.. أرقبُ ما حولي بعيونٍ ذاهلة.. أسمعُ صمتاً.. ثم صوتاً:

- هناك مَن أيقظَني وهو يعبث بكتبي.. هل هو زمانُنا قد حانَ يا أميرة المؤمنات؟!

ثم صدىً ردَّدتْه الجدرانُ لصوتٍ صغير:

- لم يحن بعد.. لكني أشمُّ رائحةَ شقيٍّ أيقظنا.

لا أعرف من أين تخرج الأصوات.. فلا شفاه على الوجوه.. صمتتِ الأصواتُ لبرهة ثم ارتفعَ صوتُ الأولى :

- لك رائحة أعرفها.. أريدُ سماعك ومعرفة ما قادك إلينا.. ولماذا توقظنا وتفتح صناديقنا؟!

واصلتُ صمتي ممسكاً بمشعلي أرفعه ببطءٍ نحو وجهٍ أملس.. وبدَنٌ يلمع بياضُه دون تفاصيل. وقبل أنْ يصل ذلك البدنُ إليَّ شعرتُ بمَن ينتزع الكتابَ مِن بين يدي ويعيده للصندوق: "أسمعني صوتك لأعرفك".. تراجعتُ إلى الخلف ممسكاً بمشعلي.. ثم شعرتُ بمن يحاول انتزاع مشعلي.. ليعاود الصوتُ الصغير: "لم يعد لنا مِن أمانٍ هنا بعد وصول الغريب.. فليستيقظ الجميع".. تبعَ صوتَها همهماتٌ ملأتْ فضاء القاعة.. مالبثتْ بقية أغطية التوابيت أنْ تحركت وظهرت صفوف لرؤوس حليقة متشابهة.. قامات بيضاء تتقاطر زيتاً.. وتتوهج بضياءٍ أفقدَ التوابيت ضلالها.

كانت الصفوف تتجه نحوي ببطءٍ مخيف ليرتفع صوتي:

- لا أريد إيذاء أحد.. فقط أبحث عن مَخرَج مِن هذه المتاهة.

ليعاود الصوتُ وقد هدأتْ حِدَّتَه:

- هذا أنت (صعفان)!!

لتتوقف خطواتهن عن التقدم.. ثم علا الصوتُ الصغير:

- لكنه غريب.. لا أعرفه!

تحركت الصفوف البيضاء نحوي من جديد.. لا أعرف إلا أنَّ عِراكاً نشبَ بينهن.. تطايرت أطرافُ بعضِهن.. سقطتْ رؤوسٌ دون أثرٍ لدماء.. فقط تتكسَّرُ وتتبعثر الأطراف كما لو أنها ضُربت بمعاول صلبة.. عاد صدى الصوت:

- مولاتي أميرة المؤمنات طيبة هلَّا تكرمتِ بوقفِ قتالِهن.. وأذنتِ لي بالتحدث إليه؟

لترد الصغيرة بصوتٍ حازم:

- لكنه رجل.

- فقط أحدثه حديث الوداع.. ولكِ ما تريدين.

- فليكن.

عادت الصفوف إلى انتظامها وهدأ الضجيج.. لتلتفت إليَّ:

"أبرأُ إليكَ ربي.. مَن تعفو وتصفح كريم عظيم الشأن لا يوجد لك قرين.. وأستغفرك مِن كل ذنب وأستجير بك من هفوات العقل.. وأستصرخ شفيعي أبا الزهراء خير مَن سار على وجه الحياة.. ومستجيرة بأخيك موسى كليم الله.. وأعتصم بالآل والأئمة الأطهار.. من زينهم بمولاتي أميرة المؤمنات طيبة ابنة مولاي أمير المؤمنين الأمر بأحكام الله.. وأستغفر الله في البداية والنهاية.. وأسألُكَ: ما الذي قادك إلى عالمنا وجرح سكينتنا ونحن ننتظر زماناً يخصنا؟

وعليك أنْ تعلم أني أنا أروى أو كما تحب أنْ تسميني (شوذب).. وتلك كتب معلمك.. وهي الكتب التي بدأتَ تعبث بها.. فبها سنسير حين يحين زماننا.

أخاطبك بآخر أسماءك (صعفان) أو كما تحب أن تكون جوذر.. وأسألك حول ما قرأتَه في صفحاتي التي أوصيتُ بها لك.. والتي خططتها لمن ستخلفني.. ولم يكنْ في حسباني بدايةً أنْ تكون يوماً بين يديك.. ولأنَّكَ حاضرٌ دوماً معي.. ومع دنوِّ أجلي فكرتُ لمَن أتركُها؟ ثم قررتُ أنْ أوصي بها لك.. فهل قرأتَها؟ وهل جَلَتْ بعضَ ما التبسَ في حياتك؟

نعم لم يكذب يقينُك يوماً.. فأنا شوذب.. وفي الوقت نفسه لستُ شوذباً.. وقد تعرَّفتَ حين نظرتَ وجهي المُسجَّي.. ثم آخر ما كتبتْه فارعة في دار النسخ.. وهي الآن تسمعنا بين الجموع.

لم يكن لي أنْ أتركَك.. في الوقت الذي لم يكن لي أنْ أُفصِحَ لك عمن أكون.. كنتُ أتمنى لو أنكَ عرفتَ بأنَّ طريقاً قد رُسِمَ لي غير طريقك منذ عودتي مِن جبال حراز صبية.. ولو عدتُ إلى بداية اختفائي صغيرة حين ظنَّ الجميعُ بأنّي خُطفتُ.. فسأقولُ لك بأني لم أُخطَفْ بل كان ذلك تمويهاً مِن المُعلِّم حتى لا تعرف عيونُ حاكم صنعاء بما يدور.. وقد تتذكر أنّ في تلك الأيام كان الملك علي محمد الصليحي وزوجته الملكة أسماء بنت شهاب يعدون العدة لإعلان دعوتهم الإسماعيلية مِن جبال حراز.. وكان إمامُ صنعاء يرقب ما يدور وسلاحه القمع.. لتكتشف عيونُه ذلك الدور الذي كان يقوم به المعلم سِرّاً.. ليُسحَل المعلم ويُحرَقُ دكانُه على مرأى منك.. ثم تُحبَس أنت في ظلمة الله - كما سمَّيتَها أنت - بتهمة الترويج لكتب الدعوة الإسماعيلية.. قد لا تعرف مَن كان وراء إخراجك منها بعد دخول الصليحي صنعاء!

وإنْ عدتَ لتتذكر حالتي بعد أنْ عاد بي المعلم مِن جبال حراز.. ستتذكر بأنّي لذتُ بالصمت.. لتصطدم نظراتكَ بحيرةٍ لا تفهمُها وامتنعتُ عن الخروج معكَ إلى أزقة الشوارع التي ألِفَتْ عيونُنا زُخرفَها.

المعلم كان الوحيد الذي يعرف بأني لم أعد تلك الصبية التي كانتْ تجالسكم لحظات نسخ ما علينا نسخه. وبعودتي مِن حراز كنتُ أجيد كتمان ما يجول بداخلي حسب ما أوصتْني به مولاتي أسماء بنت شهاب: "دوماً الصمتُ المغموسُ بابتسامةٍ عذبةٍ أنجعُ الطرق للحفاظ على باطنك.. فلكل ظاهرٍ باطِن.. ولكل باطن عوالمه التي لا يفقهها إلا أولو الألباب".

نعم تعلمت فضيلة الصمت وعدم الإفصاح عمَّا يجول بداخلي.. أو ما يدور مما عشته في أيام حراز.. وقد تستغرب عدم تدخلي فيما بينك وبين ذات العين الفريدة.. حين كنتُ ألمسُ نظراتكَ المُستنجِدة ولا أُحرّكُ ساكنا.

قد تقول كيف اخترتُ طريقي؟ وأقول لك لستُ أنا بل هي مولاتي أسماء بتواطؤ للمعلم من اختارتْ طريقي لخدمة الدعوة الإسماعيلية.. حين كان المعلم داعيهم في صنعاء كان قد أشارَ لتضمني إلى ربيباتها.. وهو مَن زوَّدَها بنسخةٍ مِن كتبه التي كنتَ أنتَ المؤتَمَن عليها.. وتلك الكتب التي تراها في صندوقها الآن منها اشتقَّتْ الملكة أسماءُ الوصايا السريَّة.. ليتحدَّدَ طريقُ حياتي.. وهكذا افترقتْ طرقُنا.. فماذا تريد من الكتب الآن؟

بعد عودتي من حراز أمسيتُ شبيهةً بالممسوسة.. لكنِّي كنتُ أُجيدُ تسييرَ قلبي كما أريد.. فلا طاعةَ له أبداً.. كيف ذلك وقد علَّمتني الملكة أسماء أنْ لا أتركه وحيداً.. أنْ أجالسَه.. أتحدث معه دوماً.. ولا أتركه يبحث عمَّن يحادثُه.. حتى لا أجد نفسي في دروبِ عذابِ التوق للآخرين.. وبذلك أُسارِعُ إذا ما أُعجِبَ بحديثِ أحدِهم إلى الاقتراب منه.. وقبل أنْ تدخل كلماتُه أُسارِعُ لمناغاته.

وإذا استرجعتَ ماضي أيامك.. ستجدني إلى جوارك.. قد تظن بأنَّ سنواتنا لم نعشها معاً.. لكنَّا كنا في نفس نهر الأيام ذاتها.. تلك النهارات والأماسي.. وتلك الروح الواحدة كانت تسكننا.. كنتُ قريبةً منكَ وأعرف ما يدور لك وحولك.

 ولا تعرف أنك لا تعرف عن حياتي شيئاً.. فتلك الحياة ليست حياتي.. وما كانت تكتب إليك فارعة لا يعني حياتي.. فقد ذكرتْ لك بيلسان.. فهل كنتَ أنت تعرف مَن هي بيلسان؟ بينما كنتُ أنا أعرف حياتك في صنعاء.. ثم تعرف أنت بقية الحكاية.

ضرْبُ ذلك الوشم لم يكن إلا خطوة مِن خطواتِ رعايتك.. ثم جلبك إلى ذي جبلة.. وطوال وجودك في ذي جبلة: عزلتك.. خروجك.. حبسك.. وصعودك برج الصمت.. كنتُ أعرفُ تفاصيلَها وأرعاها.

الحرة سيدة كانتْ تسيِّرُني.. هذا ما كان ظاهراً.. وهي اليوم إلى جواري تسمعني.. لكنِّي كنتُ باطنَها.. فنحن ربيبتا الملكة أسماء.. وإنْ حوَّلتْني بعد رحيل أسماء إلى جارية ضمن جواريها.. وذلك أسعدني طالما وأنا في خدمة الدعوة.. لتعلمني كتب المعلم المزيد من التماهى مع إرادتها.. وكيف أتلذذ بعبوديتي لها..إخلاصي للدعوة.

فارعة كائنٌ التقيتُكَ فيها.. أما أنا فكنتُ فندة وشوشانا التي كان يقينك ينكرني.. فأنا كل تلك الأسماء وكذلك بيلسان وأروى وما لم تسمع به أيضاً.. كان لي مِن الأسماء الكثير.. ولا تعرف بأن اسم شوذب كان قد مات.. ولم يعرفه أحد منذ دخلت القصر والتحق بالملكة أسماء في صنعاء.. لكني لم أجد نفسي في كل تلك الأسماء حتى جاء من ينعتني بأروى وهو ما كنتُه.. وهو آخرُ أسمائي وأحبها إلى قلبي.

قبل رحيلي كنتُ مشغولةً ومهمومة بمصير تلك الأعداد من الجواري.. من سيقبل بعجائز إنْ وزعتُهُنَّ هدايا؟! احترتُ ثم فكرتُ بتركهِنَّ كما يتركُ الميتُ أشياءَه.. أنْ أدعَهُنَّ

لأقدارِهن.. أو أنْ أتركَهن بعهدتِك.. لكنَّك كنت بحاجة إلى مَن يرعى شيخوختك.. ثم واتتْني فكرةُ أنْ أخفيهن في مكانٍ ما.

وها أنت وجدتني وقد حفظتُ لهن ماءَ وجوهِهن.. تلك الفكرة جاءت في اللحظات الأخيرة لرحيلي.

ولا يزال سؤال يلاحقني: هل سيظل الشوق يتقد بقلبك بعد معرفتك مَن أكون؟ وأنّ يقين العمر الطويل لا تتغير.. سؤال يلح عليَّ وأنا أراك طِيلة سنوات عمرك تلاحق إيماناً تفتقده.. لتعيش دون غاية تعمل مِن أجل تحقيها.. ولا تعلم بأن الإيمان يجعل مِن الكائن ذا غاية.. وهو ما كنتَ تفتقده.. حيَّرَني ذلك السؤال وقد أخذَ يردده قلبي كعتابٍ متأخر.. وإنْ فات أوانه.. وعزائي أنَّكَ ستلحقُ بي.. وها أنت تلحق.. لكن في مكان غير مرحب بك كما ترى.. أن ترحل من الحياة حيث هناك كل شيء شفاف.. وإنْ تمنيت أنْ تلقاني على دين أُمّنا.

لا أنكر أنَّ عواصفَ عِشقٍ هبَّتْ حول قلبي لمرات.. لكنَّها سريعاً ما تساقطتْ كأجنةٍ خُدَّجٍ.. أقفُ على شفةِ هاويةٍ دون أنْ أهوي.. سِرٌّ ما وضعته الملكة أسماء في قلبي: "تجنّبِي الرِجَال.. وإنْ لم فيجب أنْ تعايشيهم كمرضٍ ابتُلِيتِ به".. وإنْ كنتُ موقنةً بأنَّي سألقى ربي وكل ما عشتُه كأنَّ شيئاً لم يكن.

هذا ما دوَّنتُه.. وقد اجتهدتُ أنْ أخطَّ ما عشتُه في سلطان الملكة سيدة ومَن سبقَها.. وفيما كانَ لي مِن سلطان ابتغاء مرضات الله.. وخدمة لدينه.. والحمد له عدد خلائقه وما سبحَّ الطيرُ في مشارقه ومغاربه.. ونختم بالسلام على من اتبعَت موسى والمصطفى رفيع النبوة فوق كل زمانٍ ومكان.. وعلى وصية أشرف ترجمان.. وعلى الأئمة القائم منهم إمام في كل زمان هُداةً يُبشر بهم ربُهم برحمةٍ منه ورضوان.. وأنَّنا نُشهدُ اللهَ بأنَّا عائدات وإن إمامتنا طيبة باقية إلى يوم الدين.. أحدثك وقد وطأتْ قدماك موطئاً ما كان يجب لها أن تطأه.. مكان انتظار زماننا حيث نخرج خلف أميرة المؤمنات طيبة لتملأ الدنيا عدلاً وخيراً بعد أنْ دنَّسَها الرجُل وملأها جوراً وظُلماً.. والآن الأمر لها في مصيرك".

ذلك اليوم كان يقيني بنهاية أروى.. وتلك الأبدان المنتظرة.. ونهاية أيامي وأنا أمسك بمشعلي. لم أكن واهماً حين ارتفع صوت الطفلة طيبة آمراً: "لن نعود إلى توابيتنا.. ولن ننتظر.. سنخرج ندعو الناس لنملأ الأرض عدلاً بعد أنْ امتلأتْ بؤساً وجوراً.. لن يكون بعد ذلك اليوم لسلطان الرجُل بقاء.. لكن قبل أن تتحركن هيئن لـ(صعفان) تابوتاً ولا تدعنه يخرج من هنا حتى لا يبوح بسرنا".

اقتربن مني.. ولم يعد من نجاة.. اقتربتُ بمشعلي باتجاه طيبة.. صفعتُها بلهبي.. ثم اتجهتُ باتجاه أروى.. ثم قذفتُ به ليحط على صندوق الكتب.. سريعاً ما اشتعلت النار.. انسحبتُ بنفسي محاذياً للجدار الصقيل.. بينما النار تلهث باتجاه.. وأنا ألهث باتجاه بداية السلم الحلزوني.. تعالت الأدخنة ممتزجة بجلبتهن وهن يحاولن اللحاق بي.. صوت طيبة يستحثهن: "عليكن بملاحقته وغمره في تابوت يخصه ".. صعدتُ السُلَّم.. عبرتُ متاهات الأبواب السبعة.. وأخيراً رأيتُ الشمس تتدفق مِن نوافذِ القصر.. صفوف عيونهن

تتابعني! زحفتُ حتى إحدى النوافذ.. رأيتُ مياه النهر الصغير تسافر.. الأشجار تحركها الرياح.. الطرق إلى الوادي يسير فيها مزارعون.. قذفتُ بنفسي مِن أحد النوافذ.. أدور وأدور .. تحملني الريح.. أشعر بمداعبة النسيم.. أسراب العصافير .. سُحبٌ تسافر تحت سماء زرقاء.. تلال خضراء تتخللها قطعان أغنام.. وراعٍ على صخرة ينفخ نايه منتشياً.. أدور في فضاءٍ لا نهائي.

محمد الغربي عمران..
عضو الأمانة العامة لاتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين

- **رئيس نادي القصة.**
- **الأمين العام لاتحاد البرلمانيين اليمنيين (السابقين)**
- **رئيس مركز الحوار لثقافة حقوق الإنسان. عضو في عدة منظمات أهلية**

صدر له

في القصة القصيرة:

- **الشراشف ١٩٩٧..دمشق.. اتحاد الأدباء العرب.**
- **الظل العاري ١٩٩٨.. صنعاء.. الهيئة العامة للكتاب. ط٢ / ١٩٩٩.. بيروت**
- **حريم أعزكم الله٢٠٠٠.. صنعاء.. نادي القصة. ط٢.. القاهرة.. ٢٠٠١مركز الحضارة العربية.**
- **ختان بلقيس ٢٠٠٢.. صنعاء.. نادي القصة.**
- **منارة سوداء٢٠٠٤ .. صنعاء.. اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين.**

في الرواية :

- **مصحف أحمر ٢٠١٠ رواية ط١..بيروت.. رياض الريس. وطبعة ثانية وثالثة صنعاء. مركز عبادي بالاشتراك مع نادي القصة.**
- **ظلمة يائيل الفائزة بجائزة الطيب الصالح ٢٠١٢.. المرتبة الأولى. صادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.. القاهرة ٢٠١٢.. ضمن سلسلة إبداع عربي**
- **الثائر.. بيروت.. دار الساقي.٢٠١٤**
- **مسامرة الموتى. القاهرة . دار الهلال٢٠١٦**
- **رواية جديدة تبحث عن ناشر.. .**
- **حول أعماله الروائية .. لمجموعة من الكتاب**
- **كتاب في أدب الرحلات**
- **نوقشت عدة أطروحات جامعية حول أعماله السردية.**

- **متفرغ للكتابة**

للتواصل بالكاتب :

اميل: algarby@gmail.com

هاتف: 00967777411120
فيسبوك:
https://www.facebook.com/profile.php?id=100000195878105